المحتويات



الشبهة الرابعة والستون

ادِّعاء أن داود ﷺ خائن وسفَّاك للدماء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن داود ﷺ كان خائنًا وسفَّاكًا للدماء، ويستدلون على ذلك بما فعله مع الفلسطينيين الذين أذلهم؛ حتى إنهم كانوا يقدمون له الهدايا؛ اتقاءً لشرِّه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) حديث القرآن الكريم، والسنة المطهرة عن النبي داود ﷺ حديثٌ صادقٌ؛ آية صدقه أنه يُقدِّر الأنبياء ويضعهم في منازلهم من التقوى والورع؛ لأنهم هم المصطفَون الأخيار، والطعن فيهم طعن فيمن اصطفاهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

٢) من يُطالع الكتاب المقدس يجد تناقضًا كبيرًا حول قصة داود ﷺ؛ مما يؤكد عدم صحة ما جاء في هذا الكتاب عنه.

٣) حديث الكتاب المقدس عن الأنبياء فيه تطاولات وافتراءات لا يمكن تصديقها في جانب خير خلق الله تعالى، أولئك الذين زكَّاهم الله واصطفاهم.

التفصيل:

أولا. حديث القرآن الكريم والسنة عن داود ﷺ صادقٌ؛ لأنهما وحي من قبل الله تعالى:

لقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن صفات نبي الله داود ﷺ الحميدة وأخلاقه الكريمة، وحديث القرآن يدفع كل شبهة تُثار عن مثل هذا النبي الكريم، الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض؛ ليحكم بين الناس بما أمر الله تعالى به، وكان مما ذكره القرآن الكريم عنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١) ﴾ (البقرة)، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: آتى الله نبيه داود المُلْكَ الذي كان بيد طالوت، والحكمة؛ أي: النبوة بعد شمويل، وعلمه مما يشاء من العلم الذي اختصه به، وهو العلم الذي ينبغي أن يعلمه الأنبياء - عليهم السلام -[1].

وقال تبارك وتعالى عنه أيضًا: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠) ﴾ (الأنبياء)، فهل يمكن بحال تصديق مثل هذه الافتراءات في حق نبي سخر الله تعالى الجبال والطير معه؟!

وقال ﷻ أيضًا: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٩)

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم حتى الوقت الحاضر، د. حمد الحسيني، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، ج١، ص٣٠٣.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾ (ص)، فهذه الصفات التي وصف بها النبي داود عليه السلام لا يمكن أن يتأتى معها ارتكابه للمنكرات، فقد وصفه الله تبارك وتعالى بعدة صفات؛ منها:

- **ذو الأيد**: أي: القوة، ويقصد بها القوة في الدين، والعزم الشديد على أداء الواجبات، وترك المنكرات.
- **أوّاب**: أي: الرَّجّاع الذي يكثر من ذكر الله تعالى.
- **تسخير الجبال والطير معه**: واللائق بتسخير مثل هذه الأشياء لنبي من الأنبياء أن يشكر الله تعالى عليها ويبتعد عن الهوى.
- **وشددنا ملكه**: أي: شددنا ملكه في أمور الدين والدنيا.
- **آتيناه الحكمة**: والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملًا.
- **فَصْل الخطاب**: قال ابن عباس: بيان الكلام؛ أي: معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير صعوبة في ذلك. ومن كان هذا شأنه، كيف يجور على إنسان بريء، ويهضم حقه ويظلمه لمصلحة نفسه[1]؟!

وقد جاء نص من الله تبارك وتعالى يأمر فيه نبيه محمد ﷺ أن يتبع الرسل من قبله، ومن ضمن هؤلاء نبي الله داود عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾ (الأنعام)، فكيف يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يتبع الرسل ويقتدي بهم، وهم - كما يدعي هؤلاء - يرتكبون المعاصي والمنكرات؟! هذا حديث القرآن عن سيدنا داود عليه السلام.

وإذا نظرنا في سُنَّة رسول الله ﷺ نجد فيها كثيرًا من الأحاديث التي تمدح أفعال داود عليه السلام؛ من هذا قول رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[2]، وكانت عبادة داود عليه السلام من أفضل العبادات التي يقوم بها المؤمن تجاه ربه؛ لذلك مدحها رسول الله ﷺ حين قال: "أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه"[3].

وعلى هذا الأساس نجد أن الله عز وجل قد تكفَّل بالرد على الذين يتهمون داود عليه السلام ظلمًا وزورًا، فإن الذي يستحق الزلفى وحسن المآب - كما جاء في القرآن - هو الذي يفعل الطاعة لا المعصية، والذي يجب أن يُقتدى به هو الذي يطيع الله ولا يعصيه، والذي يُمدح من قِبَل خير خلق الله تعالى - وهو رسول الله ﷺ - هو من كان يعمل الأعمال الصالحات لا المنكرات، وكان مُزكًّى من قِبَل الله عز وجل؛ لأنه ﷺ لا ينطق إلّا عن

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشُّبَه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٨٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (١٩٦٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام (٣٢٣٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (٢٧٩٦).

وَحْي في مثل هذا.

ثانيًا. من يطالع الكتاب المقدس، يجد تناقضًا حول قصة داود عليه السلام؛ مما يؤكد عدم صحة ما جاء في هذا الكتاب عنه عليه السلام:

من يطالع نصوص الكتاب المُقدَّس الذي جاء فيه ذُمَّ داود عليه السلام يجد فيه أيضًا دليل كذب هذا الافتراء، حيث نجد فيه نصوصًا تؤكد على فضل داود ومكانته العالية عند الله تعالى، فكيف يُحتَج بكتاب يوجد فيه الشيء ونقيضه في وقت واحد؟!

ففي جانب ذم داود نجد الكتاب المقدس يقول: "قام داود وذهب هو ورجاله، وقتل من الفلسطينيين مائتي رجل، وأتى داود بغُلَفِهم[1] فأكملوها للمَلِك لمصاهرة الملك". (صموئيل الأول ١٨: ٢٧).

ويروى في الكتاب المقدس أن داود عليه السلام رَقَص حتى كُشفت عورته، عندما فرح باسترجاع التابوت من الفلسطينيين، واحتقرته امرأته لهذا الفعل، ونصُّ ذلك يقول: "وكان داود يرقص بكل قُوَّته أمام الرب. وكان داود مُتَنَطِّقًا بأَفُودٍ من كِتَّان. فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهُتاف وبصوت البُوق. ولما دخل تابوت الرب مدينة داود، أشرفت ميكال بنت شاول من الكُوَّة، ورأت الملك داود يَطْفُر ويرقص أمام الرب، فاحتقرته في قلبها". (صموئيل الثاني ٦: ١٤ ـ ١٦).

ومن المنكرات التي تنسب لنبي الله داود عليه السلام زواجه من امرأة أحد رجاله، وقيامه بفاحشة الزنا معها، وإرسال زوجها إلى ساحة الحرب حتى يلقى حتفه، يقول الكتاب المقدس: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّيّ؟». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مُطَهَّرة من طَمْثِها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يوآب يقول: «أرسل إليَّ أُورِيَّا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حِصَّة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته». فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أُطْلِقك». فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا. وكتب

١. الغُلْفَة: الجلدة التي تُقْطع للخِتان.

في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت". (صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ١٥)، "يا لها من خيانة عُظْمَى أن يُضحِّي القائد بجُنْده من أجل خِسَّته ونَذالته، وزناه مع امرأة أحد جنوده الشرفاء، الذي ضنَّ على نفسه بالتَّنعُّم في فراشه، وأبى إلَّا أن يبيت الليل على باب نبي الله وقائده الأعلى لحراسته، ثم يتخلص منه نبي الله ويقتله!، أين القدوة التي أتى بها هذا النبي ـ على زعمكم ـ لشعبه"[1]؟

أما عن جانب مدح داود عليه السلام في الكتاب المقدس فنجد أيضًا العديد من النصوص التي جعلت من داود مثلًا أعلى ومقياسًا يُقاس عليه ملوك بني إسرائيل، فقد ذكرت الأسفار أن الله لم يُمَزِّق ملك سليمان عليه السلام إكرامًا لأبيه داود، الذي حفظ وصايا الله، فتقول: "ولا آخذ كل المملكة من يده، بل أُصَيِّره رئيسًا كل أيام حياته؛ لأجل داود عبدي الذي اخترته، الذي حفظ وصاياي وفرائضي". (الملوك الأول ١١: ٣٤).

ويؤكد الكتاب المقدس استقامة داود على فرائض الله، ويعتب على سليمان أنه لم يكن مثل أبيه الذي اتبع أوامر الله بالتمام، فتقول: "عَمِل سليمان الشرَّ في عَيْنَي الرب، ولم يَتْبَع الرب تمامًا كداود أبيه". (الملوك الأول ١١: ٦).

فهل بعد ما ذكرناه من نصوص الكتاب المقدس الذي يؤمنون به يمكن التسليم لهذه الافتراءات على رسول من أفضل الرسل في الطاعة والعبادة والعمل؟!

ثالثًا. حديث الكتاب المقدس عن الأنبياء فيه العديد من التطاولات والافتراءات التي لا يمكن تصديقها في جانب الأنبياء خير خلق الله عز وجل:

لم يقتصر اتهام الكتاب المقدس للأنبياء على النبي داود عليه السلام فقط؛ بل يتعداه إلى غيره من الأنبياء الذين شهد لهم القرآن الكريم بالأفضلية حين قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾ (الأنعام).

ومن هذه الافتراءات ما يلي:

١. **الأنبياء كَذَبَة:**

نجد ذلك على لسان إبراهيم عليه السلام في الكتاب المقدس: "وحَدَث لما قَرُب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويَسْتَبْقونك، قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفس من أجلك". (تكوين ١٢: ١١ ـ ١٣).

٢. **الأنبياء كَفَرَة:**

جاء عن سليمان عليه السلام ما نصُّه: "وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عَشْتُورَث إلهة الصِّيدُونيِّين ومَلْكُوم رِجْس العَمُّونيِّين". (الملوك الأول ١١: ٤ ـ ٦).

٣. **الأنبياء زُناة:**

جاء عن لوط عليه السلام في الكتاب المقدس ما يلي: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه،

---

١. البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٨٨.

لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحَبِلَت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودَعَت اسمه «مُوآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم". (تكوين ١٩: ٣٠ـ ٣٨).

فإبراهيم ﷺ في الكتاب المقدس يكذب حتى يفدي نفسه من الموت، وسليمان كفر بالله ﷻ بتأثير من زوجاته لكبر سنِّه، ولوط زنا بابنتيه دون علمه متأثرًا بالخمر، وداود يقتل ويغتصب النساء دون وجه حق، وسليمان ولد زنا، وغير هذا العديد والعديد من الأكاذيب والأباطيل التي نسبت إلى خير خلق الله على وجه الأرض، الذين أرسلهم الله تعالى لهداية العالمين، فإن فعلوا مثل هذه المنكرات، فما هو الحال مع أتباعهم الذين أرسلوا لهدايتهم؟ وكيف يكونون قدوة لأقوامهم؟ وما موقف ذلك من عصمة الأنبياء التي نص عليها القرآن الكريم؟ فهل بعد هذا يمكن تصديق ما جاء في الكتاب المقدس؟! وهل بعد كل هذا نَعُدُّ هذا الكتاب مصدرًا من مصادر المعلومات والأخبار التي نعتمد عليها في إطلاق الأحكام ووصف الناس[1] ®؟

الخلاصة:

- داود ﷺ نبي من أنبياء الله، وهم معصومون من الخطأ والكذب، وذلك بنص القرآن، فكيف يفعل داود ـ مع عصمته ـ ما نسب إليه من منكرات ؟!
- لقد خصَّ الله تعالى داود ﷺ بالعديد من الصفات التي قل أن نجد مثلها في واحد من البشر، وأكد النبي ﷺ على أن عبادة داود هي أفضل العبادات، وصيامه هو أفضل الصيام، وهذا تفضيل من الله ورسوله ﷺ لنبي الله داود، فكيف يكون بمثل هذه الصفات الحميدة، وتصدر عنه هذه الأعمال المنكرة ؟!
- لقد تناقضت نصوص الكتاب المقدس حول داود، فتارة تَصِف داود بعدَّة صفات خبيثة، مثل: الزنا والقتل، وتارة أخرى تصفه بصفات الكمال، وتجعل منه مثلًا أعلى يحتذى به، وتجعل منه مقياسًا يُقاس عليه ملوك بني إسرائيل، فكيف نُقر بما جاء في هذا الكتاب المقدس في نظرهم وهو يحوي هذا التضارب المُشين ؟!
- من يقرأ الكتاب المقدس يجد فيه العديد من الأعمال المنكرة المنسوبة إلى أنبياء الله ﷻ، من ذلك

١. انظر: محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، القاهرة، ٢٠٠٣م.

® في **"مقام النبوة في التوراة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). والوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي **"مقام الأنبياء بين القرآن والتوراة"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

كذب إبراهيم ﷺ؛ لكي يفدي نفسه من القتل، وكفر سليمان ﷺ بسبب اتباع أزواجه، وزنا لوط ﷺ بابنتيه متأثرًا بالخمر، وقتل داود ﷺ وسفكه الدماء واغتصابه النساء، وغير ذلك كثير؛ كيف يمكن أن نصدق مثل هذه الأكاذيب والأباطيل في حق أفضل خلق الله على وجه الأرض، الذين أمر الله ﷻ رسوله محمد ﷺ باتباع هداهم حين قال ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام: ٩٠)؟!

الشبهة الخامسة والستون

ادِّعاء طمع داود ﷺ في زوجة قائد جيشه، والتآمر على قتله (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن داود ﷺ أُعْجب بزوجة قائد جيشه، فزَجَّ به في مقدمة الجيش؛ حتى يُقتَل، فيظفر بزوجته، ويضمها إلى نسائه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ألصقت التوراة بداود ﷺ نقائص يَأْبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يأتيها نبي اصطفاه ربه واختاره ليصلح به المفسد؟!

٢) الآيات التي سبقت قصة الخصمين اللَّذَيْن تَسَوَّرا المحراب، والآيات اللاحقة لها، تقضي للنبي داود ﷺ بالبراءة مما نُسب إليه مما لا يليق بنبي من أنبياء الله ﷻ.

٣) لم يَرِدْ حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يجب اتباعه فيما نُسب إلى داود ﷺ من التآمر لقتل قائد جيشه والظفر بزوجته.

التفصيل:

أولا. ألصقت التوراة بداود ﷺ نقائص يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يرتكبها نبي اصطفاه ربه واختاره؟!

من أَجَلِّ الأعمال وأعظمها مثوبة عند الله الجهاد في سبيله والقتال لإعلاء كلمته، ولا أقل من أن يكافأ المجاهد ـ الذي باع نفسه لله ـ بتوفير الأمن لأهله، والحفاظ على عرضه. ولكن العهد القديم ينسب إلى داود ﷺ أنه لم يراع أقل واجب نحو مجاهد مخلص لدينه وأمته، بل جازاه بالتي هي أسوأ؛ حيث خانه في عرضه، واعتدى على شرفه؛ ولم يكتف بذلك، بل كاد له ليُقْتَل من أجل الظفر بامرأته، والاستيلاء على زوجته.

من يقرأ القصة التي أوردتها التوراة عن سيدنا داود وقائد جيشه نجد أنها تلصق بداود ﷺ عدة نقائص:

- النظر إلى امرأة غيره، فضلًا عن كونها عارية.
- حسد زوجها عليها.
- الزنا بها.
- سقي زوجها خمرًا.
- التسبب في قتله، وقتل بعض الجنود معه.

وهذه الذنوب يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فما بالك بها جميعًا إذا صدرت من نبي اصطفاه ربه واختاره ليصلح به المفسد، ويقوِّم به

(*) عصمة الأنبياء، الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

المعوجَّ، إن هذا غير معقول!! كما أنه ليس من المعقول كذلك أن يكون العقاب الذي عاقب به الرب داود ﷺ - كما أوردت التوراة - هو تسليط أبشالوم بن داود على نساء أبيه يزني بهن، ويَهْتِك أعراضهن علانية أمام جميع بني إسرائيل كما زعم ذلك سفر صموئيل الثاني: "فقال ناثان لداود: «أنت هو الرجل! هكذا قال الرب إله إسرائيل: أنا مَسَحتك ملكًا على إسرائيل، وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حِضْنِك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا. وإن كان ذلك قليلًا، كنت أزيد لك كذا وكذا. لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشرَّ في عينيه؟ قد قَتَلْتَ أُورِيَّا الحِثِّي بالسيف، وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عَمُّون. والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة. هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك، فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس. لأنك أنت فعلت بالسر، وأنا أفعل هذا الأمر قُدَّام جميع إسرائيل وقدام الشمس». فقال داود لناثان: «قد أخطأت إلى الرب». فقال ناثان لداود: «الرب أيضًا قد نقل عنك خطيتك. لا تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يَشْمَتون، فالابن المولود لك يموت»". (صموئيل الثاني ١٢: ٧ - ١٤).

بَيْدَ أن السؤال المطروح الآن على أولئك المؤمنين بهذا الكتاب المقدس هو: ما عقوبة الزاني عندكم؟ أليس هو الرجم؟ يقول الكتاب المقدس: "وإذا زَنَى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه، فإنه يُقتل الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه، فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما". (اللاويين ٢٠: ١٠ - ١٢)، ولماذا لم يُنفَّذ هذا الحد فيه لو صحَّ وقوع هذه الجريمة منه؟ ومن ثم فعدم تطبيق حد الفحشاء على سيدنا داود ﷺ - وحاشاه ذلك - دليل على كذب دعواهم وبطلان افترائهم.

ولذا فإن ما ينسب إلى داود ﷺ كذب وافتراء، إذ لا يليق بنبي من أنبياء الله أن يطمع في امرأة متزوجة، ويتحايل في ضمها إلى ما عنده من نساء، لا شك أن داود ﷺ يستحي من ربه أن يراه طامعًا في امرأة متزوجة، ويستحي من الناس أيضًا أن يجدوا نبيهم الذي يدعوهم إلى القناعة، وملكهم الذي يزجرهم عن الاعتداء على حقوق الآخرين غير قنوع وغير مراعٍ حقوق غيره. ومعلوم أن الله ﷻ ملأ قلوب الأنبياء - عليهم السلام - غنى وقناعة بما عندهم[1].

ثانيًا. الآيات السابقة واللاحقة لقصة الخَصْمَيْن تقضي لداود ﷺ بالبراءة مما نُسِب إليه:

وذلك من عدة أوجه هي:

١. أنه قَبْل ذِكْر نبأ الخصم أمر الله تبارك وتعالى نبينا محمدًا ﷺ أن يصبر على ما يفتريه عليه كفار مكة، وأن يقتدي بداود وغيره من الرسل في الصبر على مشاق تبليغ الدعوة: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص). ولو أن داود ﷺ ارتكب الكبائر ما أُمر نبينا ﷺ بالاقتداء به في الصبر؛ إذ كيف يقتدي في الصبر بمن لم يصبر عن المعصية؟!

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢١٤: ٢١٨ بتصرف.

٢. أنه لو صحَّت هذه الحادثة يكون داود عليه السلام باحتياله على قتل أوريا قاتلًا له، ولو كان هذا لندم داود واستغفر منه، والقرآن لم يَحْكِ له استغفارًا من قتل أوريا. وإنما استغفاره - على فرض صحة هذه الحادثة - من الاستيلاء على زوجته، فهل يُترك الاستغفار من الذنب الأشد، ويستغفر مما هو أقل منه؟!

٣. أن الله عز وجل مدح داود عليه السلام قبل ذِكْر الخَصْمَين اللذين تسورا المحراب بأوصاف حميدة لا يتناسب أبدًا معها صدور هذه المعصية منه عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ (٢٠) ﴾ (ص). ومن كان بهذه الصفات لا يجور على إنسان ولا يهضم حقه.

٤. ما ذُكِر بعد قصة نبأ الخصمين يدل على براءة ساحة نبي الله داود عليه السلام مما نُسب إليه؛ إذ إن داود قال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (ص: ٢٤) ، فاستثنى الذين آمنوا من البَغْي، ولو كان مرتكبًا ما ذكرته القصة لكان باغيًا، فيلزم الحكم على نفسه بعدم الإيمان - أو نقصه - ولا يجوز هذا على نبي.

وقال الله تبارك وتعالى في حقه أيضًا: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) ﴾ (ص)، فهذا إنما يستقيم لمن يفعل المأمورات، ويجتنب المنهيات، أما من يسعى في قَتْل غيره والعدوان عليه في زوجته، فلا يستحق القُرْبَى وحُسْن المَرْجِع في الجنة؛ إذ كيف يبتعد عن الله بمعصيته ويزيده الله رِفْعَة ومَثُوبة؟!

٥. قبل هذه القصة صفات مدح، فلو كانت تقتضي الذم؛ لاختلط المدح بالذم بطريقة لا تتفق وما عرف عن القرآن الكريم من حسن الترتيب، وروعة التنسيق. ومن هذا يتضح بطلان القصة - على النحو السابق - ويتعين براءة داود عليه السلام مما نسب إليه فيها[1].

ثالثًا. لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما نُسب إلى داود - حديث يجب اتباعه وتصديقه؛ ولذا لم يذكر هذه القصة أحد من أصحاب الكتب الستة:

لم يثبت في أيّ من كتب السنة الصحيحة خبر يؤكد هذه القصة المُفْتَرَاة، أما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم فغير صحيح السَّنَد؛ لأن في إسناده ابن لَـهِيعة، ويزيد الرَّقاشيّ وكل منهما ضعيف؛ قال السيوطي: "القصة التي يحكونها في شأن المرأة، وأنها أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل - أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة - وحاله معروف - عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفًا".

وعلى هذا يكون من ذكرها من المفسرين إنما أخذها عن الإسرائيليات. قال ابن كثير: "قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى

١. المرجع السابق، ص٣٥٦، ٣٥٧.

الله ﷻ؛ فإن القرآن حق، وما تضمنه حق أيضًا. وما ذُكر موقوفًا منها على بعض الصحابة ـ كابن عباس ـ فلا يُستبعد ـ لو صحَّ السند إليه ـ أنه أخذه عن التوراة، أو عمن حكى عنها". وجدير بالذِّكر أن اليهود يتعمَّدون هذا في حق داود ﵇؛ ليصلوا من ذلك إلى الطعن في عيسى ﵇؛ لأنه من ذريته. قال البقاعي في تفسيره: "وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود ﵇؛ لأن عيسى ابن مريم ﵇ من ذريته؛ ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه".

وعلى هذا فهذه القصة لم ينص الله ﷻ في القرآن عليها، ولم تَرِد عن نبينا ﷺ في حديث صحيح ولا حسن، فهي مُختلَقة مُفْتَراة للنَّيل من داود ﵇، فلا يصح أن ننخدع بها، وإنما نشدِّد على مَنْ يُرَوِّجها ويُشيعها، كما فعل علي ﵁. قال أبو السعود: "وأما ما يُذكر من أن داود ﵇ دخل ذات يوم محرابه.. إلى آخر القصة ـ فإفك مُبْتَدع مكروه، ومَكْر مُخْتَرَع مكروه، تمجُّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، ويل لمن ابتدعه وأشاعه، وتبًّا لمن اخترعه وأذاعه؛ ولذلك قال علي ﵁: من حدَّث بحديث داود ﵇ على ما يرويه القُصَّاص جَلدتُه مائة وستين، وذلك حدُّ الفِرْيَة على الأنبياء"[1].

وأما من ناحية المضمون: فهذه القصة تضمنت نسبة هذه المعاصي الكبيرة إلى داود ﵇:

- نظره إلى زوجة رجل آخر بقصد سيّء.
- حسده الرجل على زوجته، والرغبة فيها لنفسه.
- الاحتيال لقتل زوجها حتى قتل بغير حق.

وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر، مما يحكم بالبطلان على أي قصة تتضمن وقوع كبيرة من أحدهم.

وتأسيسًا على ما سبق نخلص إلى نتيجة مُفادها أن داود ﵇ بريء مما نسبه إليه اليهود من المعاصي والأفعال السيئة، والشواهد التي سبقت والأدلة العقلية كذلك خير من يبرئ ساحة هذا النبي النقي الأوَّاب.

الخلاصة:

- ألصقت التوراة بداود عدَّة نقائص هي: النظر إلى امرأة غيره وهي عارية، وحسد زوجها عليها، والزنا بها، وسقاية زوجها خمرًا، والتسبُّب في قتله، وقَتْل بعض الجنود معه، وهذه الذنوب يأبى كثير من عامة الناس أن يرتكب بعضها، فكيف يأتيها نبي اصطفاه ربه واختاره؛ ليُصْلِح به المفسد ويُقوِّم به المُعْوَجَّ؟!
- الآيات التي سبقت قصة الخَصْمَين اللَّذَين تسوَّرا المحراب، من أمر النبي محمد ﷺ أن يصبر على ما يفتريه عليه كفار مكة، وأن يقتدي بداود وغيره من الرسل في الصبر، تدل دلالة عقلية على كذب وافتراء القوم، وبطلان ادعائهم، وأن القرآن لم يحك له استغفارًا مِنْ قتل أوريَّا، وأن الله ﷻ مدحه بصفات حميدة لا يتناسب معها صدور هذه المعاصي.
- لم ينص الله ﷻ في القرآن الكريم، ولم ترد عن نبينا ﷺ في حديث صحيح ولا حسن، قصة داود وامرأة أوريَّا، فهي ـ إذن ـ مختلقة للنَّيل من نبي الله

---

١. المرجع السابق، ص٣٥٣: ٣٥٥.

داود عليه السلام، وهذه القصة تضمنت نسبة هذه المعاصي الكبيرة إلى داود عليه السلام، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر.

الشبهة السادسة والستون

ادِّعاء خطأ داود في حُكْمه في قضية الحَرْث والغنم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن داود عليه السلام أخطأ في حكمه في قضية الحرث والغنم، وأن ابنه سليمان عليه السلام قضى بعده فأصاب القضاء، ويستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء). ويتساءلون: كيف يتناسب الاجتهاد الخاطئ في الحُكْم مع ما يتصف به الأنبياء من العصمة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) قضاء داود عليه السلام بإعطاء الغنم لصاحب الحرث قضاء صائب؛ لأن الغنم أفسدت الحرث، ولا يعد حكمه خطأ ألبتة.

٢) قضاء سليمان عليه السلام بانتفاع صاحب الحرث بمنافع الغنم حتى تبلغ قيمة ما أفسدته، ثم تُردُّ الغنم إلى صاحبها، غير متعارض مع حكم داود عليه السلام ولكلٍّ سنده من فقه الواقع.

٣) داود وسليمان - عليهما السلام - اجتهدا في الحكم، واجتهادهما مُزَكًّى بتوفيق الله، وكلاهما أصاب، ولكل أجره، لا سيما أنهما نبيَّان.

التفصيل:

أولا. قضاء داود عليه السلام بإعطاء الغنم لصاحب الحرث قضاء صائب:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الأنبياء): أنَّ رجلين دخلا على نبي الله داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم تُبق من حرثي شيئًا. فقال له داود عليه السلام: اذهب فإن الغنم كلها لك، فقضى بذلك داود، ومَرَّ صاحب الغنم بسليمان عليه السلام، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود - عليهما السلام - فقال: يا نبي الله، إن القضاء سوى الذي قضيتَ. فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن ينتفع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كل عام. فقال داود: قد أصبتَ، القضاء كما قضيتَ، ففهمها الله تعالى سليمان[1].

وروي أن سليمان عليه السلام لما سمع حُكْم داود عليه السلام قال: غير هذا أرفق بالفريقين، فأخبر بذلك داود،

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٨، ص٤٧٥، ٤٧٦.

فدعاه، فقال: كيف تقضي؟ ويروى أنه قال: بحق النبوَّة والأبوَّة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين. قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدَرِّها، ونسلها، وصوفها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الحرث كهيئته دفع إلى أهله، وأخذ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيتَ[1]، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الأنبياء). أي: انتشرت الغنم في الزرع ليلًا بغير راع، فأفسدته على صاحبه، وأكلته "وكنا لحكمهم شاهدين" أي: وكنا لحكم الحاكِمَيْنِ والمتحاكِمَيْنِ إليهما حاضرين بعلمنا؛ فلم يخف علينا الحكم، بل علمناه.

وهذه الحادثة، وإن كان حكم سليمان عليه السلام أرجح من حكم أبيه داود عليه السلام فإن هذا لا يعني خطأ داود في الحكم، ومما يؤيد صحة حكم داود عليه السلام قوله تعالى في ختام الآيات التي حكت تلك القصة: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء: ٧٩)، وهذا يفيد أن قضاء النبي داود عليه السلام كان عن حكمة وعِلْم.

ذكر الله تعالى بعد ذلك أنه سخر لنبيه داود عليه السلام كثيرًا من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء). ولا يكون تسخير هذه المخلوقات لداود عليه السلام إلا لاستحقاقه وجدارته بمثل هذا، فلو كان داود عليه السلام أخطأ في حكمه، ما استحق ثناء الله عليه، وإنعامه عليه بما عدده من نعم بعد ذلك. وقد أخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه قال: كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعب داود في حكمه[2].

يتساءل بعض المشككين: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا خصَّ الله تعالى سليمان عليه السلام في قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾.

وجواب ذلك: أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر في الآية لا يدل على أن داود بخلافه، فإن دليل الخطاب في اللقب لا يُقيّد بإجماع المُحققِّين؛ أي أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذِّكر لا يعني اختصاصه بالفهم والحكمة دون غيره.

كما أن في هذا التخصيص فائدتين هما:

١. أن داود عليه السلام كان متوقِّفًا؛ لتعارض الأمارات، وسليمان عليه السلام لم يكن كذلك، بل كانت الأمارات واضحة جَلِيَّة أمامه، فأصدر حكمه بناءً على هذه الأمارات.

٢. أن داود عليه السلام كان عالـمًا بالحكم، لكنه أفتى امتحانًا لابنه سليمان رجاء أن يفتي به ويستخرج حكمه.

وبالنظر إلى هذا التخصيص ـ ذكر سليمان ـ نلحظ أنه كان إقرارًا لعين والده داود، وخاصة أن سليمان أفتى بحكم كان أرفق بالخصمين مما رفع قدره بين الناس، وإنما أعرض القرآن عن ذكر داود عليه السلام للعلم باشتهاره فيما بين الخلق بمعرفة الأحكام، ثم إن الله

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٧١.

٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ص١٨، ص٤٧٩.

عقب على تخصيص سيدنا سليمان بقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء)؛ لئلا يُتوهَّم أنه كان جاهلًا به، وحاكمًا فيه بغير الحق أو الصواب[1].

ثانيًا. قضاء سليمان عليه السلام لا يتعارض مع قضاء داود:

على الرغم من اختلاف حكم داود عليه السلام عن حكم سليمان عليه السلام، إلا أن حُكم كل واحد منهما لم يكن متعارضًا مع الآخر، فكل منهما قد أصاب القضاء، ولكن حكم سليمان عليه السلام كان أكثر صوابًا من حكم أبيه، **ومما يدل على عدم تعارض الحكمين ما يأتي:**

١. أن كل حكم من الحكمين قد وافقه مذهب فقهي من المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة؛ فَوُجِّه قضاء داود عليه السلام بأن الضرر لما وقع بالغنم سُلِّمت بجنايتها إلى المجني عليه، كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه، وعند الشافعي: يبيعه في ذلك أو يفديه، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الزرع.

وَوُجِّه قضاء سليمان عليه السلام بأنه جعل الانتفاع بالغنم مقابل ما فات من الانتفاع بالحرث، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان الذي أصابه.

ومن هذا القبيل ما قاله أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا، فأَبَق من يده، فله أن يضمن القيمة، فينتفع بها المغصوب منه مقابل ما فوّته الغاصب من منافع العبد، فإذا ظهر العبد تراضيا.

وحكم هذه المسألة في شريعتنا أن يضمن أصحاب الماشية قيمة ما أتلفته مواشيهم ليلًا؛ إذ المعتاد ضبط الدواب ليلًا، كما قضى النبي صلى الله عليه وسلم، لما دخلت ناقة البراء حائطًا وأفسدته، فقال: "على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل". وعلى هذا، فإن كلًّا من الحُكْمَيْنِ له أصل شرعي يستند إليه، ومن ثم فلا تعارض بينهما، وإنما هو اختلاف وارد، لا يمنع صحة الحُكْمَيْن.

٢. قضاء نبي الله سليمان عليه السلام كان أرفق بالفريقين من قضاء أبيه داود، وأحسن ما قيل في تفسير حكم داود وحكم سليمان أنهما ليسا حُكْمَيْنِ مُتَعَارِضَيْنِ، فقضاء داود بإعطاء الغنم لصاحب الحرث؛ لأنه قوَّم الغنم والكَرْم - أي الحرث - الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم[2].

أما حكم سليمان باستفادة أصحاب الحرث بألبان الغنم وأصوافها، ودفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الحرث إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة ردَّ كل واحد منهما ماله إلى صاحبه، فكان حكم سليمان هذا بالنظر إلى تساوي قيمة ما أفسدته الغنم بقيمة ما سيستفيده المتضرر من الغنم.

وهكذا قال النحاس: إنما قضى بالغنم لصاحب

---

١. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١٩.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٧٣.

الحرث؛ لأن ثمنها كان قريبًا منه، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضًا.

وكان حكم سليمان أنفع للطرفين، فلو نفذ حكم داود - مع أنه حكم عادل - فسيحرم صاحب الغنم من ثروته التي ربما ليس له غيرها، ويوغر صدره على صاحب الحرث وهو يرى غنمه قد آلت إليه، ففائدة صاحب الحرث المتضرر من منتجات الغنم تعويض له، وإعادة زراعة ما تلف من قبل صاحب الغنم المعتدية تأديب له، ورَدُّ كل مال لصاحبه إبقاء لهما معًا، وعودة للوضع إلى ما كان عليه.

وعلى هذا فإنه لا تعارض بين الحُكْمَيْنِ، وإنما كان حكم سليمان عليه السلام أرفق بالفريقين من حكم داود عليه السلام، وقد دلل على هذا سليمان عليه السلام - لما سمع حكم داود - بقوله: "غير هذا أرفق بالفريقين"، ثم صدَّقه داود عليه السلام بقوله: "القضاء ما قضيت".

ثالثًا. قضاء داود وسليمان - عليهما السلام - كان عن اجتهاد:

والسؤال المطروح الآن هو: هل كان قضاء داود وسليمان - عليهما السلام - عن اجتهاد منهما، أو عن وحي إلهي؟

ذهب بعض العلماء إلى أن القضاء كان بوحي من الله عز وجل، فقال قوم: كان داود وسليمان - عليهما السلام - نبيَّيْن يقضيان بما يُوحَى إليهما، فحَكَم داود بوَحْي، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا "ففهمناها سليمان" أي: بطريق الوحي الناسخ لما أُوْحِي إلى داود، وأمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1].

وقال الجمهور: إن حكمهما كان باجتهاد، إلا أن اجتهاد سليمان أوفق وأرفق، وهذا هو الأرجح.

وهناك عدة أدلة ترجح أن هذا القضاء كان عن اجتهاد؛ وهي:

١. لو كان القضاء بنص عند داود عليه السلام لوجب أن يكون النص الناسخ له نازلًا أيضًا على داود، لا على سليمان عليه السلام.

٢. أن الله عز وجل مدح كلًّا منهما عقب ذلك بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ولو كان قضاؤهما عن طريق النصِّ، ما استحقا هذا المدح؛ لأن استحقاق المدح إنما يكون على البراعة في الاستنباط، واستخلاص الحُكْم الذي ليس فيه نص.

٣. قول سليمان عليه السلام عن حكم أبيه: "غير هذا أرفق"، وقوله في بعض الروايات: "أرى أن تدفع"، ومناشدة داود لسليمان - عليهما السلام - إظهار ما عنده، ولو كان عند سليمان نص فيها لأظهره من بادئ الأمر، ولما انتظر مناشدة والده له؛ إذ يَحْرُم كتمان النص، وخاصة عند الحاجة إليه.

٤. أن الظاهر أن سليمان عليه السلام لم يكن نبيًّا وقت هذه الحادثة، وإنما نُبِّئَ بعد ذلك، فقضاؤه كان باجتهاد، وقضاء داود عليه السلام باجتهاد أيضًا؛ لأنه لا يجوز نقض حكم النص بالاجتهاد[2].

وبناء على هذا، يُرَجَّح أن قضاء داود وسليمان كان

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١١، ص٣٠٧ وما بعدها.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبهه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٧٤.

عن اجتهاد منهما، أما القول بأنه عن وحي فهو مستبعد.

الخلاصة:

- إن داود عليه السلام قضى في حادثة الغنم التي نَفَشَت في الحرث فأصاب في حُكمه، ثم قضى ابنه سليمان عليه السلام فخالفه في الحكم، لكنه كان أكثر صوابًا منه.

- يدل على صحة حكم داود عليه السلام قوله عز وجل: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فهو حكم قد بُني على الحكمة والعلم الذي منحه الله له.

- ويدل عليه أيضًا إخبار الله تبارك وتعالى أنه سخر لنبيه داود عليه السلام ما شاء من المخلوقات؛ كالجبال والطير وغير ذلك، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾ (الأنبياء)، وهذه النعم لا يهبها الله تبارك وتعالى لأحد من عباده إلا لمن اصطفاهم، وارتضاهم قدوة لعباده.

- إن تخصيص الله لسليمان عليه السلام بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ لا يدل على عدم فهم داود عليه السلام؛ وذلك لاختلاف موقف كل منهما، فداود عليه السلام كان متوقفًا لتعارض الأمارات، وسليمان حكم لوضوح الأمارات.

- لم يذكر القرآن الكريم أن داود عليه السلام أخطأ في حكمه، ولم ينتقص من قدره، بل قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وفي الآية إبراز لبراعة سليمان عليه السلام، وتوفيقه في الحكم الذي يُسْعد والده، ودأبُ الوالد أنه يُحبُّ أن يكون ولده أفضل منه، خاصة أنه سيَرِثه في الحكم: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦)﴾ (النمل).

- حكم سليمان عليه السلام كان أرفق بالفريقين من حكم داود عليه السلام؛ لأنه أبقى على ملكية صاحب الغنم لغنمه، كما عوض صاحب الحرث عما أفسدته الغنم.

- كان قضاء كل من داود وسليمان عليهما السلام عن اجتهاد، وليس عن وحي من الله عز وجل.

الشبهة السابعة والستون

الزعم أن داود عليه السلام قد حكم ظلمًا بين المتخاصمين لديه؛ لاستغفاره بعد الحكم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن اللَّذَيْن تَسَوَّرا المحراب على داود من الملائكة، أرسلهما الله عز وجل ليعرضا عليه قضية ليس لها وجود حقيقي، وإنما قُصد بها تدريبه على القضاء. ولما حكم النبي داود عليه السلام على المدَّعى عليه - قبل أن يسمع منه - أدرك أنه امتُحِن بما عُرِض عليه؛ فاستغفر ربه؛ لذا أمره الله عز وجل أن يحكم بين الناس بالحق في قوله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

﴿ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ (ص). ويتساءل هؤلاء: ألا يتنافى هذا مع ما يُقال عن عصمة الأنبياء؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الخصمان اللذان تسورا المحراب على داود عليه السلام كانا من البشر، ولم يكونا من الملائكة.

٢) الخصومة بين الخصمين كانت حقيقية في أغنام لهما؛ لأن القرآن الكريم لا يمكن أن يذكر أشياء لم تقع.

٣) حكم داود عليه السلام كان حكمًا عادلًا، لأنه بُنِي على مقدمات أدت إليه، ولم يكن مجرد حكم عارٍ من الأدلة.

٤) استغفار داود عليه السلام كان لظنه - خطأً - أن الرجلين أتيا لقتله.

التفصيل:

أولا. الخصمان اللذان تسورا المحراب على داود عليه السلام كانا من البشر، ولم يكونا من الملائكة:

لا شك أن الادعاء بأن الخصمين من الملائكة يتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم، وفي الروايات الصحيحة التي تثبت أن اللذَيْن تسورا المحراب على داود كانا من البشر؛ حيث يقول الله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ (ص).

يقول الإمام الشنقيطي في "أضواء البيان": "قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ قد أمر نبيه داود عليه السلام فيه بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله"[1].

وهناك عددٌ من الروايات التي تؤيد القول بأن الخصمين اللذين تسوَّرا المحراب كانا من البشر، ومنها:

- قول الألوسي - رحمه الله -: "والذي يذهب إليه ما دلَّ عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانا من الإنس، دخلا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظانًّا أنهم يغتالونه..."[2].

- قول ابن حزم: "كان هذا الخصم قومًا من بني آدم بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية. ومن قال: إنهم كانوا ملائكة مُعرِّضين بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل، وتقوَّل عليه لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ (ص:٢١) فقال هو: أي من ادعى أنهم ملائكة، لم يكونا قط خصمين، ولا بغى بعضهما على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: اكفلنيها؛ فاعْجَبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم، ونعوذ بالله من الخِذْلان، ثم كل ذلك بلا دليل"[3].

فالحق الواضح - عند المحققين - إذن أن الخصمين

---

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م، عند تفسير الآية.

٢. روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت، ج٣، ص١٨٥.

٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١٥.

كانا رجلين من بني البشر، وهو ما يدل عليه ظاهر الآيات الكريمة.

ثانيًا. الخصومة كانت حقيقية، وليست مفتعلة:

بناءً على ما سبق إثباته من أن الخصمين كانا من بني البشر، فإن الخصومة التي كانت بينهما لا شك حقيقية على أغنام لهما، وليس كما قيل من أنها كانت خصومة وهمية أراد بها الملكان تدريب داود عليه السلام على القضاء، فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس بعد ذلك إلا بالحق.

وأثبت ما ورد في هذا الموقف: أن الخصومة حقيقية في شركة على أغنام، وأن المتخاصمين أرادا التحاكم إلى داود عليه السلام حتى يحسم النزاع، غير أن داود كان إذ ذاك في خلوته الخاصة يعبد ربه... ولم يجد الخصمان وسيلة للوصول إليه إلا تسور المحراب الذي يتعبد فيه، فظن داود أن مجيئهما في هذا الوقت، وبهذه الصورة يراد به شر، فطمأناه وطرحا أمامه الموضوع، وبدأ أحد الخصمين بتوجيه الاتهام إلى الآخر، فنطق داود بالحكم بإدانة صاحب الغنم الكثيرة قبل أن يدلي بحجته، وهنا أحس داود بأنه كان على غير صواب في ظنه أن هذين يريدان به شرًّا، وأن الله امتحنه بالخوف منهما، فاستغفره مما حدثته به نفسه، ومنَّ الله عليه بقبول استغفاره، وأنزله عنده منزلًا كريمًا[1].

وقد ذكر بعض المؤرِّخين أن الخصمين كانا من الأعراب ـ رعاة الغنم ـ لهما من الجرأة ما دفعهما لتَسَوُّر المحراب على نبي الله داود عليه السلام؛ لكي يَعرضا عليه خصومتهما.

ثالثًا. حكم داود عليه السلام كان حكمًا عادلا:

ويتساءل المشككون: كيف يكون داود عليه السلام عادلًا في حكمه، وقد نطق بالحكم على أحد الخصمين قبل أن يسمع منه؟

ويتخذ هؤلاء هذا الأمر ذريعة لإلصاق تهمة أخرى بداود عليه السلام، وهي أنه كان ظالمًا في حكمه على المدَّعَى عليه، ولكن ما عليه ظاهر الآيات من امتداح لداود عليه السلام لا يوحي بذلك، وإنما يمكن حمل حكم داود عليه السلام قبل سماع الطرف الآخر على **عدة احتمالات:**

- أن هذا من باب ترك الأولى، وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي؛ حيث عَدَّ هذا من باب ترك الأفضل والأَوْلَى، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن اعتبار قضاء داود عليه السلام لأحد الخصمين قبل سماع كلام الثاني من باب ترك الأولى فيه مضيعة للحقوق، كما أنه يتعارض مع أوليات القضاء بين الناس، وإذا فعل ذلك قاض ليس بنبي، فإنه يعاب عليه ويطعن به في حقه، والأولى ألَّا يجوز هذا في حق الأنبياء[2].
- أن داود عليه السلام لما حكم على المدعَى عليه قبل أن يسمع منه، واكتفى بما قاله المدعِي، فربما كان ذلك لأنه سكت ولم يتكلم؛ فكان سكوته هذا بمثابة الإقرار والاعتراف بما نسب إليه، كما أنه ليس في القرآن ما يثبت أنه صَدَّق المدَّعي من غير ظهور الحجة؛ فيكون المراد: إذا كان الأمر كما ذكرت؛ فقد ظلمك، ومن ثم

1. المصطفَون الأخيار، عطية صقر، دار مايو الوطنية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٩٠، ٩١.

2. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٦ بتصرف.

لا يكون داود عليه السلام مخطئًا في حكمه، بل بَنَى حكمه على مقدمات ودلائل سيقت إليه.

- أن حكم داود عليه السلام هذا، إنما كان بعد سؤال المدعَى عليه، وإقراره بما نسب إليه، ولكن القرآن الكريم لم يحك هذا؛ لأنه معلوم، حيث لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه[١].

وهذا يعني أن داود عليه السلام استمع لقول المُدَّعِي، ثم استمع لقول المدعَى عليه، ثم حكم بقوله: "لقد ظلمك... "[٢].

وهذا هو أرجح الاحتمالات، وأكثرها توافقًا مع ظاهر الآيات، وأكثرها تناسبًا مع عصمته عليه السلام وتنزيهه عن الذنوب والمعاصي[٣].

وهنا يثار تساؤل آخر: إذا كان داود عليه السلام عادلًا في حكمه، فلماذا إذن أمره الله باتباع الحق، وعدم الميل مع الهوى على الرغم من صوابه؟ حيث قال الله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص).

والجواب: أن ذلك لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف، وإنما يعد هذا توجيهًا له بالاستمرار على ما هو عليه من اتباع للحق، وبُعْد عن الهوى، أي: استمر على ما أنت عليه من الحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى، ويدل على هذا المعنى:

قوله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾﴾ (الأحزاب)، فهو لا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتقي الله، أو أنه كان يتبع الكافرين والمنافقين، وإنما هو أمر بالاستمرار على ما هو عليه من تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، ومثل هذا يقال في داود عليه السلام.

ويدل أيضًا على عدل داود عليه السلام في حكمه وعلى أن هذه الآية من باب الحث على الاستمرار على ما هو عليه، وصف الله تعالى له بالاستخلاف في قوله عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومعلوم أن الاستخلاف على شيء لا يتم إلا بعد التحقق من استحقاق الشخص المستخلف لهذا الأمر العظيم، ولا يكون إلا بعد ثبات عدله في الحكم.

وقد جاء في "الدر المنثور" للإمام السيوطي عن معنى "خليفة": أخرج الثعلبي من طريق العوَّام بن حوشب قال: حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله عنه أنه سأل طلحة والزبير، وكعبًا وسلمان: ما الخليفة من المَلِك؟

قال طلحة والزبير: ما ندري! فقال سلمان رضي الله عنه: الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ما كنت أحسب أحدًا يعرف الخليفة من الملك غيري[٤].

---

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٣.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٦.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٦٣.

٤. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، عند تفسير الآية.

رابعًا. فتنة داود واستغفاره:

اختلفت الآراء حول فتنة داود عليه السلام على عدة أقوال، منها[1]:

١. أن المراد بفتنة داود عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾(ص) أن داود عليه السلام قد ظن أن يكون ما آتاه الله تعالى من سعة الملك العظيم فتنة؛ فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر له ظنه؛ إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة.

وهذا القول ضعيف، وإن كان يجري في تفسير الآيات على الظاهر، إلا أنه كذلك خلاف الظاهر من أن الآيات كلها تحكي قصة واحدة، وأن فتنة داود عليه السلام إنما هي فيما جاء الخصم من أجله

٢. أن المراد أن داود عليه السلام لما ظن أن الخصمين إنما أتيا لقتله عزم على أن ينتقم منهما، ثم عفا عنهما واستغفر ربه، **وأن الاستغفار لأمر من أمور أربعة:**

- لما عزم عليه من الانتقام منهما، وغضبه لنفسه.
- لما دخل قلبه من العجب؛ حيث إنه عفا عنهما مع إرادتهما قتله، وقدرته على الانتقام منهما، ثم أناب إلى الله، واعترف بأن إقدامه على العفو لم يكن إلا بتوفيق الله، فغفر الله له ذلك الخاطر.
- أن يكون من همّه الانتقام منهما، ثم تذكّر أنه لم يدل دليل قاطع على أنهما أرادا به سوءًا؛ فعفا عنهما، ثم استغفر من همّه ذلك.
- أن يكون استغفاره لمن قصدا قتله؛ حيث تابا إلى الله، وطلبا منه أن يستغفر الله لهما، فاستغفر لأجلهما، وعليه فمعنى قوله تعالى "فغفرنا له" أي: فغفرنا ذنبهما لأجله، وبسبب دعائه لهما[2].

وقد ذهب إلى هذا القول الإمام الرازي، وكذلك الألوسي والنيسابوري، وهو ضعيف كذلك؛ لأنه مبني على أن الخصمين لم يكونا كذلك، وإنما كانا أعداءً، وأن الخصومة كانت مفتعلة منهما، وقد أثبتنا أن الخصومة كانت حقيقية، وبناء عليه فهذا الرأي ضعيف أيضًا.

٣. أن المراد أن فتنة داود كانت في تعجله في الحكم، قبل سماع المدَّعى عليه، مستدلين على ذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾، وقد أجاب عن هذا القاضي ابن العربي بقوله: "وأما قول من قال: إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر - فلا يجوز على الأنبياء"[3]، كما أن هذا يتنافى مع ما وُصِف به من أنه أُوتِي فَصْل الخطاب.

٤. وأرجح هذه الأقوال: أنَّ داود عليه السلام كان منفردًا في محرابه للعبادة، وأن وقته هذا لا يدخل فيه عليه أحد، فلما دخل عليه الخصمان من غير المدخل - حيث

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٣.

٢. المرجع السابق، ص٣٦٤.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٥، ص١٨١.

تسورا المحراب ـ وفي غير وقت جلوسه للحكم، فزع منهما ظانًّا أنهما جاءا لقتله، فلما اتضح له أنهما جاءا في خصومة، ولم يقع ما كان ظنه استغفر من ذلك الظن، وخرَّ ساجدًا؛ فغفر الله له ذلك الظن، وهذا هو أرجح الأقوال؛ لأنه ينزه نبي الله داود عليه السلام عن كل ما لا يتلاءم مع النبوَّة، كما أنه يتفق مع ما وصفه الله به، قبل ذكر نبأ الخصم من الصفات الحميدة.

يرى الإمام ابن كثير أن قصة داود عليه السلام مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ حديث. وفسَّر قوله تعالى: ﴿ فَتَنَّٰهُ ﴾ بقوله: عن ابن عباس بمعنى: ابتليناه واختبرناه، ولم يوضِّح حقيقة الابتلاء، وفسَّر قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ بقوله: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الإبرار سيئات المقربين[١].

والمعنى أن استغفار داود عليه السلام كان لظنه خطأً أن الرجلين أتيا لقتله، فلما تيقَّن أنهما إنما أتيا في خصومة بينهما، وأنه ظن بهما خطأً ـ استغفر ربه، فغفر له[٢].

الخلاصة:

- أن اللذيْن تسوَّرا المحراب على داود عليه السلام كانا رجلين من بني البشر، ولم يكونا ملكين ـ كما ادَّعى المدَّعون ـ ويدل على هذا قوله ﷻ: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (ص: ٢٦)؛ حيث دلت على أن ما عرض عليه كان من قبيل الحكم بين الناس.
- الخصومة التي كانت بين الرجلين خصومة حقيقية واقعية في أغنام لهما، وليس كما قيل من أنها كانت خصومة مفتعلة من الملائكة، أريد بها تدريبه على القضاء؛ حتى يحكم بين الناس بالحق فيما يعرض له بعد ذلك.
- أن داود عليه السلام كان عادلًا في حكمه، وهو ما تدل عليه ظاهر الآيات، والتي تمتدح داود عليه السلام.
- أن حكم داود عليه السلام كان بعد سؤال المدَّعى عليه، وإقراره بما نسب إليه، ولكن القرآن لم يحك هذا؛ لأنه معلوم، حيث لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدَّعى عليه، والتحقق من قول كلا الخصمين.
- أمر الله تعالى لنبيه داود عليه السلام بأن يحكم بالحق ولا يتبع الهوى في قوله ﷻ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ليس إلا توجيهًا له بالاستمرار على ما هو عليه من اتباع للحق، وبُعْدٍ عن الهوى؛ وذلك مثل قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١﴾ ﴾ (الأحزاب).
- فتنة داود عليه السلام كانت في ظنه الخاطئ بأن الخصمين إنما أتيا لقتله، ولما علم أن مجيئهما بسبب خصومة حقيقية بينهما، استغفر ربه، فغفر له ذلك الظن الخاطئ.



---

١. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، طبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د. ت، ج٤، ص٣١.

٢. انظر: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٦٧.

الشبهة الثامنة والستون

الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود عليه السلام بزوجة أُورِيًّا قائد جيشه، وقد زجَّ به داود في إحدى المعارك وتسبب في قتله؛ ليتزوج امرأته بعد أن خانه معها؛ ليخفي آثار جريمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) العقل يوجب عصمة الأنبياء؛ لأنهم الصفوة المختارة من الخلق، اختارهم الله لحمل رسالته وهداية خلقه، ولا يليق بهم إلا كريم الصفات.

٢) الكتب السابقة طعنت في أنبياء الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ، ولفقت لهم افتراءات لا تليق إلا بأحط البشر، وهو أمر يبطله العقل والمنطق، والدين، والواقع.

٣) زعم التوراة أنَّ داود عليه السلام زنى بزوجة أوريا، وأنها حملت من الزنا زعم باطل، حملهم على ذلك حرصهم على إباحة الزنا لأنفسهم، وما ذكره بعض مفسري المسلمين قريبًا من هذا هو من الإسرائيليات التي لا يمكن تصديقها.

٤) الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل لا يليق بنبي الله سليمان، الذي أعطاه الله من المنح والعطايا ما لم يعط أحدًا ممن سبقه، ولن يعطى أحدًا مثله بعده.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. العقل يوجب عصمة الأنبياء؛ لأنهم الصفوة المختارة من الخلق:

إن الذي يؤمن به كل مسلم ويعتقده أن كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف، فهم أناس مختارون، وهم ليسوا أخيارًا فحسب، بل مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون طوال حياتهم أي شيء يلقي ظلًا على اصطفائهم هذا، وعلى قدسية المهمة التي بُعثوا من أجلها.

فقد بعثوا بيننا من أجل القيام بمهمة التبليغ، فغاية وجودهم هي التبليغ فقط، أي: إنهم أول المخاطبين بكلام الله تعالى وأوامره؛ ومن ثم عليهم أن ينقلوا هذه الأوامر إلى الناس كما هي، ولو لم يكونوا أصحاب أرواح طاهرة ونفوس قوية، ما استطاعوا نقل الرسائل الإلهية كما هي إلى الناس، ولو اقترف هؤلاء ـ الذين هم قدوة الناس وأئمتهم ـ الذنوب، فكيف يجوز اتباعهم؟ إن الاتباع نابع من بحث الإنسان عن الاستقامة، أما اتباع من يجوز عليه الانحراف، فهو ضد هذا الميل الإنساني الباحث عن الاستقامة وعن الطريق القويم، كلا لم يقترف أي نبي أي ذنب، بل كانوا قدوة في جميع تصرفاتهم طوال حياتهم؛ لأن من الصعب التصور أن إنسانًا ليس من أهل الجنة يقوم بالإمساك بأيدي الناس ويقودهم؛ ليكونوا من أصحاب الجنة، بينما أرسل الله الأنبياء والرسل؛ لكي يهدوا الناس؛ ويجعلوهم أهلًا لدخول الجنة...

إن عصمة الأنبياء، وعدم اقترافهم لأي إثم فطرة وطبيعة، فهم ـ على مذهب الجمهور ـ معصومون من

الذنوب كبيرها وصغيرها، وبعض الهنات أو الهفوات المنسوبة إلى بعض الأنبياء لا تعد ذنوبًا، سواء وقعت قبل نبوتهم أم بعدها؛ ففي كلتا الحالتين يبقى النبي معصومًا، وما ندعوه نحن بالهفوة أو الزلة إنما يتعلق بمقامهم، أي: إن هذه الهفوات لا تعد أخطاءً بالنسبة للأشخاص العاديين، ولكنها تعد هفوات بالنسبة للمقربين إلى الله تعالى[1].

لنتأمل كيف أن الملك الذي ينقل الوحي يُختار أيضًا من بين الملائكة.. ملك متميز بالأمانة؛ لكي تعهد إليه هذه المهمة، فالقرآن الكريم يصف جبريل عليه السلام بأنه: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ (التكوير)؛ أي: تطيعه الملائكة في السماء والملأ الأعلى، وهو أمين في نقل الوحي كذلك، فهل يطالب الملك الناقل للوحي بهذه الصفات، ولا يطالب النبي الذي سيمثل هذا الوحي بالصفات نفسها؟!

أجل، لا يمكن لله أن يعهد بمثل هذه المهمة المقدسة إلى شخص مخادع، أو سِكِّير، أو معتدٍ على الأعراض؛ فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الصفات القبيحة التي يشمئز منها عامة الناس في نبي يبلغ عن الله؟

إذن فهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق هم الصفوة المختارة من عباده، كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ (الحج). وقال تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ (ص).

وكان الرسل مصطفين وأخيارًا؛ لأنهم حملة أكرم رسالة، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر، ولأنهم في مقام القادة والهداة، ولا يتصور أن يسوس القومَ إلا أكملهم وأرفعهم في هذه المهمة بالذات، ومع صدق الرسل، فهم كذلك أمناء ملتزمون لأوامر الله سبحانه، ولو لم يكونوا كذلك؛ لسلب الله عنهم شرف الاصطفاء الذي ما كان ليعطيهم إياه لولا علمه بجدارتهم، وأهليتهم له.

وقد أجمع العلماء على عصمة الرسل عليهم السلام من الزيغ في العقيدة والانحراف عن الفطرة السوية، حتى قبل أن يحظوا بشرف الرسالة، كما أشار إليه قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء)؛ ولا تقع منهم كبيرة أبدًا ؛ حتى لا تهتز ثقة الناس بهم، بل ونُجِلّهم من الصغائر التي لا تليق بمقامهم، فقربهم من الله يجعل مقاييس سلوكهم أشد دقة وأقوى ضبطًا[2].

ويعد الطعن في أي نبي طعنًا فيهم جميعًا، ذلك أن الرسالات كلها عقد واحد، نظامه الدعوة إلى الله، وهداية البشر إلى أقوم الطرق، والأنبياء جميعًا إخوة في أسرة واحدة، وإن كان الله فضَّل بعضهم على بعض، ومحمد صلى الله عليه وسلم أحد أفرادها وإن كان أفضلهم جميعًا، فهو سيد ولد آدم... وانطلاقًا من هذه الأخوة ووصلًا للرحم بين الأنبياء، أمر الإسلام بالإيمان بجميع الرسل دون تفريق بين أحد منهم، كما أمر الله نبيه أن يقتدي بهداهم، وأن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام.

---

١. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨: ١٢ بتصرف.

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٨، ٩.

إن الإيمان بالرسل، وتوفير الاحترام لهم، والدفاع عنهم واجب على كل مسلم، وهو إنصاف من الإسلام وتقدير لدورهم الكبير في خدمة الإنسان، ومن القيم الدينية إنزال الناس منازلهم، والدفاع عن الأبرياء منهم، والقرآن الكريم خط دفاع قوي يحرس الدين بوجه عام، ويهيمن على الكتب السماوية، مُصدِّقًا لأصولها، ومصحِّحًا لما فيها من تحريف، وباعثًا للقيم الأصيلة التي تكاثف عليها غبار القوم، أو لوثها دخان الشكوك والريب، وتلك سمة الدين العالمي الذي ارتضاه الله للناس جميعًا، وبهذا يتضح السر في الاهتمام بالحديث عن السابقين من الأنبياء، فهو حديث عن ركن كبير من أركان الإسلام[1].

يذكر القرآن الكريم أن المسيح عيسى عليه السلام كان روح الله تعالى وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء ونفحة ربانية، وأن الخليل إبراهيم عليه السلام كان خليل الله، وأن موسى عليه السلام كليم الله، وأنه تعالى خاطب آل داود عليه السلام قائلًا: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13)﴾ (سبأ). هذه هي الأوصاف التي يصف الله تعالى أنبياءه الكرام بها[2] ®.

ثانيًا. الكتب السابقة طعنت في أنبياء الله ولفقت لهم ما لا يليق إلا بأحط الناس:

وردت في الكتب السابقة افتراءات شنيعة حول الأنبياء، ومن هذه الافتراءات في حق الأنبياء:

- ذكرت التوراة أن لوطًا عليه السلام شرب الخمر وزنى بابنتيه، وأن نسله دام منهما، ففي سفر التكوين: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحَبِلَت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودَعَت اسمه «مُوآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عَمُّون إلى اليوم". (تكوين 19: 30 ـ 38).

تأملوا.. إن الله تعالى قد خسف بأهالي سَدوم وعَمُورة الأرض؛ ذلك لأنهم لم يستمعوا إلى نبي طاهر مثل النبي لوط عليه السلام، بل استهزءوا به وبدعوته إلى الطهر والعفاف؛ فاستحقوا بذلك العقاب الجماعي: "وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صُوغَر، فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من عند الرب من السماء. وقَلَب تلك المدن، وكل الدائرة، وجميع سكان المدن، ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود مِلْحٍ". (التكوين 19: 23 ـ 26)، ولو لم يكن هناك

1. المرجع السابق، ص33: 36 بتصرف.
2. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، مرجع سابق، ص25.

® في "عصمة الأنبياء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين. والشبهة الثانية بعد المائة، من هذا الجزء.

شاهد آخر على عِفَّة لوط عليه السلام الذي هو ابن أخ للنبي إبراهيم عليه السلام غير أنقاض هذه المدن المخسوفة، وغير الجدران المُتهدِّمة لبيوتها، أما كان شاهدًا كافيًا؟ وهل يمكن أن ننظر إلى كتاب يحوي مثل هذه الافتراءات الشنيعة على أنه كتاب إلهي؟!

- يذكر العهد القديم أن داود عليه السلام طمع في زوجة قائده أُورِيًّا وتسبب في قتله؛ ليأخذ زوجته، جاء في سفر صموئيل الثاني: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّيّ؟». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مُطَهَّرة من طَمْثِها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يوآب يقول: «أرسل إليَّ أُورِيًّا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حِصَّة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته».

فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أُطْلِقك». فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب، وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت". (صموئيل الثاني ١١: ٢_ ١٥).

ثالثًا. زعم التوراة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل، أرادوا بذلك إباحة الزنا لأنفسهم:

لقد تأثر بعض المفسرين المسلمين بالإسرائيليات في تفسيرهم لقوله تعالى حكاية عن داود: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ (ص). فذهبوا إلى أن داود عليه السلام عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها فتزوجها. ثم عتب الله عليه في ذلك، فأرسل إليه ملكين يختصمان في نعجة كانت لأحدهما على سبيل التمثيل، ليعلم داود من هذه القضية الملفقة عظيم خطيئته، فيتوب ويستغفر[1].

إن الذي لا شك فيه أن داود عليه السلام نبي من الأنبياء المكرمين المعصومين، لا يليق به ما نسب إليه مما لا يليق بمن هو ليس بنبي، فكيف به عليه السلام؟!

والحقيقة أن ما ذهبت إليه التوراة، من تسببه في قتل قائد جيشه أوريا ليظفر بزوجته بعد أن أعجب بها إنما

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٥٩.

هو إفك مفترى في حق نبي الله عليه السلام، فأنبياء الله منزهون لا يليق أن تقع منهم الصغائر فضلًا عن الكبائر، ولقد رأينا كيف زعموا أن داود قد زنى بزوجة أوريا بعد أن أعجب بها، كما أنه تسبب في قتله بعد أن دبر له هذه المؤامرة، فداود عليه السلام عندهم ارتكب كبيرتين: الزنا والقتل، فهل هذا يليق بنبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار؟!

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود يتعمدون هذا في حق داود عليه السلام؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى الطعن في عيسى عليه السلام؛ لأنه من ذريته.

قال البقاعي في تفسيره: "وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمَّدون ذلك في حق داود عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام من ذُرِّيَّته، ليجدوا سبيلًا إلى الطعن فيه. وهذه القصة - على النحو السابق - لم ينص الله عز وجل في القرآن الكريم عليها، ولم تَرِد عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح ولا حسن، فهي - إذن - مُخْتَلَقة مُفْتَرَاة للنَّيْل من نبي الله داود عليه السلام، فلا يصح أن ننخدع بها، وإنما نتشدَّد على من يُرَوِّجها ويُشِيعها، كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ حيث قال رضي الله عنه: من حدَّث بحديث داود عليه السلام على ما يَرْوِي به القُصَّاص جلدتُه مائة وستين، وذلك حدُّ الفِرْيَة على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -"[1].

ويمكن القول - إن صحَّ أنَّ داود تزوج بَتْشَبَع زوجة أُورِيًّا - إن داود عليه السلام لعله قد أشفق على زوجة أوريًّا قائد جيشه بعد قتله، الذي لا علاقة لنبي الله داود به من قريب أو بعيد، فتزوَّجها وضمَّها إلى نسائه، وليس في هذا أدنى شبهة، وما نُسِب إليه بعد ذلك من قتل أو زنا هو من حقد الحاقدين.

وما فعله داود عليه السلام من الإشفاق على زوجة أوريا بعد قتله، وتزوجه بها له أصل عندنا في الإسلام، فهذا مثل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع من تزوجهم من أمهات المؤمنين، فقد تزوَّج النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ سَلَمَة - رضي الله عنها - لظروف إنسانية بعد موت زوجها بعد معركة أُحُد متأثرًا بجراحه، وقد ترك لها أربعة أبناء تكفَّلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعاية وبحث احتياجاتهم. وتزوج زينب بنت خُزَيمة - رضي الله عنها - بعد استشهاد زوجها عُبَيدة بن الحارث في موقعة أُحُد.

أما ما ذهب إليه بعض مفسري المسلمين في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ (ص: ٢١) أن داود عليه السلام أُعْجِب بزوجة أوريا... إلخ فمأخوذ من الإسرائيليات كما ذكر ابن كثير، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء من الكبائر، فيجب رد هذا الافتراء.

لقد ذهب المفسرون إلى أن الله تعالى عتب عليه في فعلته الشنيعة هذه، وأرسل إليه ملكين يختصمان في نعجة كانت لأحدهما على سبيل التمثيل، ليعلم داود عليه السلام من هذه القضية الملفقة عظيم خطيئته فيتوب ويستغفر.

وتوجيه الله داود عليه السلام باتباع الحق وعدم الميل مع الهوى، على الرغم من صواب حكمه، لا يدل على ظلمه أو ميله مع العواطف، فقد يكون توجيهًا

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٥٤، ٣٥٥.

بالاستمرار على اتباع الحق، كما قال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ (الأحزاب). فلم يكن منه عصيان حتى يؤمر بالتقوى[1].

وخلاصة القول أن داود ﷺ قد اجتهد في تقسيم أوقاته، فجعل للناس وقتًا، ولأزواجه وقتًا، ولعبادته وقتًا، وجعل الأوقات الثلاثة متساوية، وفاته أنه خليفة في الأرض، وأن الخلافة تتطلب وقتًا أكبر، فسخَّر الله له هؤلاء الأعراب، فتسوَّروا عليه المحراب، وكان من أمرهم ما يشعره بخطئه في هذا الاجتهاد، ففطن إلى المقصود، وعاد إلى ما هو أولى.

وخطأ الأنبياء في الاجتهاد لا يُحرِّم حلالًا، ولا يحلُّ حرامًا، ولكنه لا يعدو أن يكون خلاف الأَوْلَى، ولهذا خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص). أي: أنت يا داود لست كآحاد الناس لا يشغله إلا نفسه وأهله، ولكنك مسئول عن كل من يقيم في مملكتك، أو يدخل فيها من غير أهلها، وهذه المسئولية تتطلب منك تفرغًا أكثر الوقت لتحمل تبعاتها.

ومن المعلوم أن هوى الأنبياء ليس فيه عدول عن الطريق السوي، ولكنه هوى في مرضاة الله، "فهوى داود ﷺ كان معظمه في ملازمة المحراب، فرده الله إلى الاعتدال فيه إلى الحد الذي يكفل مصلحته ومصالح الناس. فمن ولي أمرًا فشُغل بغيره كان عاصيًا أو مقصرًا، حتى ولو كان هذا الأمر الذي شُغل به عبادة من العبادات. وعلى المؤمن أن يوفق بين الدين والدنيا، وأن يضع نفسه حيث وضعه الله"[2].

فلا يليق بنبي الله داود ما نُسب إليه، وما ذهب إليه بعض المفسرين؛ لأن سورة (ص) من أولها إلى آخرها في محاجَّة منكري النبوة، فكيف يلائمها القَدْح في بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح؟! وأيضًا لأن الله تعالى وصف داود ﷺ في ابتداء القصة بأوصاف حميدة، وهذا ينافي ما ذكروه مما لا يليق به[3] ®.

رابعًا. الزعم أن سليمان ثمرة زنا داود بزوجة أوريَّا باطل، ولا يليق بنبي الله سليمان الذي أعطاه الله المنح والكرامات التي لم تعط لأحد قبله:

يتبين مما سبق أن داود ﷺ بريء مما نُسب إليه من تهمة قتل قائد جيشه، وتهمة الزنا بزوجته، وقد زعموا أن سليمان بن داود هو ثمرة زنا داود بزوجة أوريا، وهذا زعم باطل **للأسباب الآتية:**

١. براءة داود ﷺ مما نُسب إليه من القتل والزنا، ولعل الأنسب في هذه القصة المُلفَّقة أن بَتْشَبَع كانت خطيبة لأُوريَّا الجندي بجيش داود، فتزوجها داود بعد موته في إحدى الحروب وأكمل بها المائة، قبل أن يتزوج بها أوريا. أو أنها كانت زوجة لأوريا ثم قتل زوجها في إحدى الحروب، ثم تزوجها داود ﷺ وضمَّها إلى نسائه رَأْفة ورحمة بها وتكريمًا لها، كما فعل

---

١. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٠: ٩٢.

٢. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٦٢.

٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص١١١.

® في **"طمع داود في زوجة قائد جيشه والتآمر على قتله"** طالع: الشبهة الخامسة والستين، من هذا الجزء.

رسول الله ﷺ مع السيدة أمّ سلمة - رضي الله عنها - وهو أمر يليق بمروءة ونخوة الأنبياء.

٢. أن سليمان عليه السلام إن كان قد ولد من هذه المرأة، كما ذكرت التوراة، فهو ولد بعد أن صارت هذه المرأة زوجة لداود عليه السلام وانضمت إلى نسائه، ففي سفر صموئيل الثاني: "وعزّى داود بَثْشَبَع امرأته، ودخل إليها واضطجع معها، فولدت ابنًا فدعا اسمه سليمان، والرب أحبه". (صموئيل الثاني ١٢: ٢٤)، فإن كان سليمان ولد زنا فكيف يحبه الرب ويكرمه كما ذكرت التوراة؟!

٣. أن الرسل الذين اختارهم الله لهداية خلقه هم الصفوة الممتازة من عباده كما قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ (٧٥) ﴾ (الحج). ولا يمكن - سبحال - حدوث الزنا والفاحشة في البيت النبوي، وقد ذكرنا أن الفقه الإسلامي يكره أن يكون الإمام الذي يصلي بالناس مولودًا من الزنا إن كان غيره موجودًا، فكيف يستطيع أن يكون إمامًا للناس جميعًا أي يكون نبيًّا يُقْتدى به ويُتَّبع؟!

٤. أن سليمان بن داود - عليهما السلام - طاهر النسب كما هو شأن الأنبياء، نشأ في بيت الملك والنبوة، نشأة الصالحين المؤمنين، فأحبه أبوه حُبًّا شديدًا، ولم يكن يطيق فراقه في حِلّه وترحاله، ولما اطمأن والده إليه وعرف حسن أخلاقه أخذ يعده لولاية العهد من بعده دون إخوته الثمانية عشر، فأخذ يجلسه معه في مجالس الحكم والقضاء، ويستشيره في مهام الأمور، ويعرض عليه الفصل في الخصومات، فرأى منه ذكاءً خارقًا وحكمًا صائبًا[1].

لقد أحب الله سليمان عليه السلام واختاره رسولًا، وأعطاه من المنح والعطايا ما لم يعط أحدًا ممن سبقه، فسخَّر له الريح تجري بأمره حيث أراد، غُدُوُّها شهر ورواحها شهر، وسخَّر له من الشياطين كل بَنَّاء وغوَّاص، وآخرين مُقرَّنين في الأصفاد، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجِفان كالجواب وقُدور راسيات، وسخر له الطير وعلمه منطقها، بل منطق الحيوانات؛ كالنمل، وجاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله، بل أودع الله في بعض رجاله قوة وكرامة فاقت في بعض أحوالها ما يقوم به الجن من الغرائب، وكان من نتيجة ذلك مجيء ملكة سبأ من اليمن إليه وهو بأرض الشام، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[2].

وهذه بعض المعجزات التي خص الله بها نبيه سليمان عليه السلام ووهبها له، وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، هل يُعقل أن تكون لمن هو ثمرة الزنا، وهل يعقل أن يكون والده مرتكبًا لمثل هذه الفحشاء؟! ومن ثم فهذا الافتراء وهذا الزعم باطل لا جذور له.

الخلاصة:

- إن الذي يؤمن به كل مسلم ويوجبه العقل أن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله أشرف الناس، وأنهم معصومون من الوقوع في الكبائر أو الصغائر؛ فالله يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا

---

١. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٤٦.

٢. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٩٣، ٩٤.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، فلا يليق بنبي أن تقع منه الكبائر ولا الصغائر التي لا تليق بمقام النبوة.

- وعلى عكس هذا الاعتقاد يأتي اعتقاد أهل الكتاب الذين يفترون على أنبياء الله، ويلفقون لهم اتهامات ورذائل لا تليق بمن هم دونهم، فكيف بمن اصطفاهم الله لحمل رسالته؟! فقد نسبوا إلى داود عليه السلام الزنا بزوجة قائده أوريا، وأنه زجَّ به في إحدى المعارك وتسبب في قتله؛ ليتزوج بامرأته ليخفي آثار جريمته، وهو أمر باطل لايليق إلا بأحط الناس، فكيف يثبتون لنبي تهمتي القتل والزنا؟! وهذا من فعل الحاقدين وكيد الكائدين للقدح في عصمة الأنبياء، والنيل من نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام.

- الزعم أن سليمان عليه السلام ثمرة زنا داود بزوجة أوريا زعم باطل، لا يليق بنبي الله الذي أعطاه الله من المنح والعطايا مالم يعط أحدًا ممن سبقه، ولن يعطي أحدًا مثله بعده ببركة دعوته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ (ص).

الشبهة التاسعة والستون

ادِّعاء أن سليمان عليه السلام ليس نبيًّا، وأنه ساحر(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتوهمين نبوة سليمان عليه السلام، ويدعون أنه عليه السلام ساحر، ويستدلون على زعمهم هذا بأن الشياطين كتبوا السحر في كتاب، وختموه بخاتم سليمان.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد أيد الله تعالى سليمان عليه السلام بالآيات المعجزات التي تثبت صدق نبوته؛ من ذلك: تسخير الجن والشياطين، ومعرفة منطق النمل والطير وتسبيحهم، وتسخير الريح، ولم تكن هذه المسخرات من تعاطي سليمان للسحر.

٢) لقد أنزل الله عز وجل آيات يُبرِّئ فيها سليمان من أنه صار ملكًا وثريًّا بفضل ما تعلمه من السحر، كما أوضح عز وجل في تلك الآيات أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، وليس من سليمان عليه السلام.

٣) هناك كثير من العِبَر التي تستفاد من قصة سليمان عليه السلام؛ مما يدل على أن هذه قصة نبي وليست قصة ساحر.

التفصيل:

أولا. لقد أيد الله عز وجل سليمان عليه السلام بالآيات المعجزات التي تثبت صدق نبوته:

كان نبي الله سليمان عليه السلام بارًّا بوالديه مطيعًا لهما، وقد حباه الله عز وجل كثيرًا من الخصال والصفات إثر دعوته لله عز وجل أن يهبه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فضلًا عن وراثة النبوة عن أبيه داود عليه السلام، وعن هذا يحدثنا الأستاذ أحمد الصباحي فيذكر قول الله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ (النمل). فسليمان ورث أباه في نبوته وحكمه وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود عليه السلام أولاد

(*) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد عبد الله الزغبي، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٩٩٨م.

أصغرهم سليمان، ومعلوم أن الأنبياء - عليهم السلام - لا يورِّثون مالًا ولا جاهًا، وإنما يورثون العلم والحكمة.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (النمل)، وقال الله ﷻ إخبارًا عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (ص)، فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدًا من قبله ولا من بعده؛ منها:

- **تسخير الريح**: قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾(ص) أي: حيث أراد ﷺ، وفي آية أخرى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (الأنبياء). أي: الريح العاصفة تجري بأمره رخاء.

- **تعلُّم منطق النمل**: علمه الله تعالى منطق النمل والدواب؛ كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (النمل).

- **تعلُّم منطق الطير وتسبيحه**: من آيات الله ﷻ ونعمه على سليمان ﷺ أن علَّمه منطق الطير؛ كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (النمل). والمراد بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ كثرة نعم الله تعالى عليه ومنها: تعليمه كلام الطير وتسبيحه.

- **تسخير الجن والشياطين**: أخبر الله ﷻ في كتابه الكريم بأنه تعالى سخر الجن لنبيه سليمان ﷺ، إذ قال: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾(سبأ). فبعد أن ذكر الله تعالى تسخير الريح له تجري بأمره رُخاء حيث أصاب، قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾(ص)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(النمل). وذلك بأن الله تعالى وكَّل بهم ملكًا بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ﷺ ضربه ضربة أحرقته، فكانت الجن والشياطين تطيعه وتنفذ أمره ﷺ، وكانوا يعملون له ما يشاء من أضخم المباني والعمائر والتماثيل والقدور الراسيات والجفان التي كأنها حِياض السُّفن العِظام[1].

ثانيًا. بيَّن الله تعالى أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر وليس من سليمان ﷺ:

لقد أنزل الله تعالى آيات تبرئ سليمان ﷺ مما زعمه المدعون من أنه صار ملكًا وثريًّا بفضل ما تعلمه من

١. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص٢٤٧: ٢٥٣ بتصرف.

السحر، كما أوضحت الآيات أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر، وليس من سليمان عليه السلام. ولما توفي سليمان عليه السلام وجدت فرقة من بني إسرائيل تُعلِّم السحر بعده، بدعوى أن السحر كان علم سليمان ولا شيء سواه.

فالشياطين - كلهم - لِلطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم استخرجوا علمًا يُغيِّرون به الأشياء بسرعة أكبر من سرعة البشر وبدقة أكبر، فذلك مما علَّموه لهاروت وماروت، فكانا يعلمان الناس بدورهم أحاجي يفرقون بها بين المرء وزوجه. فهل كانت أحاجيهم تفعل فعلها وتؤتي ثمارها؟ يقول القرآن الكريم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ (البقرة)، إذن فلم يكن سليمان عليه السلام يستعمل السحر، ولا كان يتعلمه ولا كان يعلمه، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنهم بعده صاروا يعلمون السحر، وأما سليمان فكان التَّقي الوَرِع.

ويُعلِّق الشيخ الشعراوي على ذلك قائلًا: "وهكذا يتضح لنا أن بعضًا من بني إسرائيل قد ترك كتاب الله المُصدِّق لما معهم من التوراة، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق، بل اتبعوا ما جاء به الباطل.. فالكتاب الذي كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه، والبهتان الذي كان يجب أن يجتنبوه اتبعوه، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر.

والآية الكريمة تعرَّضت لأمر قد شاع عند بعض من بني إسرائيل، لقد قالوا: إن سليمان إنما صار ملكًا ثريًّا بفضل ما تعلمه من سحر، وهذا قول باطل برّأ الله منه سليمان عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ إن سليمان لم يكفر، وإنما تلقى نعمة الله بالعرفان والشكر، وسخَّر الله له ما شاء من خلقه؛ تكريمًا له وإرادة الحق في ذلك لها حكمة بالغة، ومن حكمته تعالى أن يعطيه ملكًا لا ينبغي لأحد من العالمين، لقد شاءت إرادة الحق ذلك، ليكون سليمان رسولًا له مكانه في قومه؛ أي: مكانة تليق بالزمن الذي جاء فيه سليمان.

إن المتأمل للموكب الرسالي يجد أن كل رسول قد صادف في قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر، لماذا؟ لأن الرسول لا يجيء إلا وقد استشرى الشر، وما دام الشر قد استشرى فلا بد أن يكون للشر قوم ينتفعون به، وحين يأتي رسول لينهي سيادة الشر في الأرض، فهو يواجه أول ما يواجه المنتفعين بالشر، ولا يتبع النبي إلا الضعفاء؛ ليخلصهم الرسول برسالته من شر الأقوياء، وقد أراد الله برسالة سليمان عليه السلام أن يبين لنا طبيعة الإنسان.. حين يؤيد رسولًا بمُلْك لا يمكن لأحد أن يخالفه، إنه رسول ومَلِك من نوع خاص.

فالملوك يملكون كل ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانيات المادية، لكن الله أعطى سليمان ﷺ ملكًا لا ينبغي لأحد من العالمين؛ لأنه سخر له القُوَى التي لا يمكن أن تسخر لبشر عادي، فكأن الله يريد أن ينبه الإنسان أنه لو أراد حكمًا من السماء مسنودًا بحكم ملكي، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه؛ لأن الخالق ﷻ قادر على أن يسخر لمثل ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع على أن يذعنوا له، لكن الحق لا يريد ذلك، إنما يريد سبحانه طواعية الإيمان واختيارية اليقين؛ لذلك يترك الرسل ضعفاء ليعلم من يقبل عليهم بنداء الإيمان لا بمجرد القهر؛ ولذلك خير رسول الله ﷺ أن يكون نبيًا ملكًا فرفض، لماذا؟ لأنه إذا كان ملكا نبيًّا ستكون له من أسباب القوة ما لا يستطيع أحد أن يخالف دعوته قهرًا وعنوة، لذلك اختار رسول الله ﷺ الرسالة والنبوة دون المُلْك... اختار أن يدعو الناس إلى الله فيأتونه رغبًا في منهج الله لا رهبًا من ملكه هو، ولقد اتهم بعض بني إسرائيل سليمان ﷺ بأنه كفر، ويقرر الحق عدم كفره فيقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ ويدلنا على أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن النبي سليمان لم يكن يعلم السحر وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر إنما هي مشيئة الحق ﷻ"[1] ®.

ثالثًا. هناك العديد من العبر التي تستفاد من قصة سليمان ﷺ:

يشير الأستاذ محمد بسام الزين إلى أن قصة نبي الله سليمان ﷺ اشتملت على عديد من الحكم والمواعظ، منها:

المملكة الصالحة:

بَنى نَبِي الله سليمان ﷺ المملكة الصالحة، وكان للحضارة في مملكته جانبان:

أحدهما: صناعي وعمراني، وهذه تسمى في عصرنا بالمدنية.

الآخر: أخلاقي وروحي، وهذه تسمى في عصرنا بالإنسانية.

ولا يجوز بحال من الأحوال أن ينشغل الإنسان بالحضارة المدنية لذاتها دون أن يسخرها لخدمة الحضارة الإنسانية، وإن الدارس لسيرة رسول الله ﷺ ليرى أنه ﷺ أرسى أسس الحضارة الإنسانية دون أن يغفل العناية بالحضارة المدنية.

أما حضارة العصر الحالي فهي حضارة مدنية فيها قلوب الناس كالأحجار، تتسابق فيها الأمم بناطحات السحاب، والصناعات الحربية، غير أن الإنسان فيها مسحوق مظلوم، ليس له من الحقوق المقررة في الأمم المتحدة سوى الشعارات البراقة واللافتات الكبيرة، والنداءات التي لا يستجيب لها ضمير.

حُسن استغلال الطاقات التي سخرها الله له في بناء المملكة الصالحة:

استعمل نبي الله سليمان ﷺ لبناء المملكة الصالحة كل الطاقات التي سخرها الله له؛ إذ استغل الريح

---

1. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٨٣، ٣٨٤.

® في "نفي كفر سليمان" طالع: الشبهة الثانية والسبعين، من هذا الجزء.

وحركتها، واستغل البحار وغاص فيها، واستخرج المواد الخام وصنعها، واستغل الطير في جو السماء، وكان كل عضو أو جندي في مملكته له مكانه المناسب، حيث تتضافر الجهود في عملية البناء، وتتعاون الأيدي لتحقيق أهداف المملكة الصالحة، التي لا تُؤْذَى فيها نملة، ولا تُهْدَر فيها طاقة.

وقد ضل قوم سبأ إذ لم يضعوا الأشياء في مواضعها، فبدلًا من أن يستغلوا منافع الشمس عبدوها من دون الله، كما ضل الإنسان قديمًا إذ عبد الرياح بدلًا من الإفادة من حركتها!! والمشركون ضلوا أيضًا إذ عبدوا الحجر بدلًا من تسخيره في البناء، وإن الله أرسل الأنبياء والمرسلين لتخليص الناس من الوثنية، وإزالة التحجر عن عقولهم، وتطهير اعتقادهم من الضلال، وإرشادهم إلى وضع كل شيء في مكانه المناسب.

أما إنسان اليوم فعلى الرغم من أنه استفاد مما سخره الله للإنسان، إذ تمكن من استغلال حركة الرياح، وأرسل الطائرة في جو السماء، واستفاد من الطاقة الشمسية، واستخرج الحديد والمواد الخام وقام بتصنيعها، على الرغم من ذلك كله فإنه لم يضع الأشياء في مواضعها؛ إذ ما زال المال الغاية المنشودة عنده، يكنزه ويشعل الحروب، ويفتعل الفتن لأجل تحصيل المزيد من الأموال والأرباح. ولذلك فهو لا ينعم بالسعادة وفي الحديث: "تَعِس عَبْد الدِّينار والدرهم"[1]؛ أي: لن يذوق السعادة.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣٠).

١. **مكاتبة الملوك:**

ولو دققنا النظر في كتاب نبي الله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ نجده يحتوي على كلمات قليلة ومركزة جدًا: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (النمل)، وفي السنة السابعة للهجرة بعث رسول الله ﷺ رسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام بعبارات مختصرة مفيدة تشبه إلى حد كبير كتاب سليمان عليه السلام:

- فقد أرسل كتابًا إلى هرقل عظيم الروم، حمله دحية بن خليفة الكلبي، جاء فيه: "أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين"[2].
- وأرسل كتابًا إلى كسرى عظيم الفرس، حمله عبد الله بن حذافة السهمي جاء فيه "أسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك "[3].
- وأرسل كتابًا إلى النجاشي ملك الحبشة، حمله عمرو بن أمية الضمري.
- وأرسل كتابًا إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، حمله العلاء بن الحضرمي.
- وأرسل كتابًا إلى المقوقس عظيم القبط، حمله

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. حسن: أخرجه الطبري في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٣٣)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (٣٥٦).

حاطب بن أبي بلتعة.

- وأرسل كتابًا إلى جيفر بن الجلندي ملك عمان، حمله عمرو بن العاص.

الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون:

إن ضعاف النفوس يعيشون حياتهم في الأوهام، ويكثر حديثهم عن السحر والجن والرَّبط والنفاثات في العُقَد؛ إذ تملأ رءوسهم الوساوس من الخنَّاس، ويلقون أسباب الإخفاق في حياتهم الزوجية والمهنية والاجتماعية على الجن والشياطين، وقد يفسرون بعض الأمراض بأنها ناجمة عن جني أو شيطان!!

وللبيان نضع بين يدي القارئ الحقائق التالية:

- الجن حقيقة غيبية أخبرنا الله بها، وحدثنا أنه يوجد عالم آخر غير عالم الإنس، وهم مخلوقات نارية، منهم المؤمن ومنهم الكافر، وقد استمع نفر منهم إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، وقد سميت سورة في القرآن باسمهم، غير أن القرآن الكريم أكد على أمرين:

  - أن الجن لا سلطان لهم على المؤمنين، وذلك في قوله ﷻ عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (النحل). بل إن الله سبحانه قد جعل لنبيه سليمان عليه السلام سلطانًا عليهم وسخرهم له كما ذكرنا آنفًا.

  - أن الجن لا يعلمون الغيب الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، وقد حرس الله تعالى السماء بمبعث نبيه محمد ﷺ، فمن استرق السمع أتبعه شهاب ثاقب، وقد حكى القرآن الكريم عن الجن قولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾﴾ (الجن). وهذه قصة سليمان عليه السلام فيها دليل قاطع على أن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ قد مات سليمان وهم بين يديه ولم يعلموا بموته!

وبناء على ذلك فقد حرَّم الإسلام أن يذهب مسلم إلى كاهن أو عرَّاف؛ قال ﷺ: "من أتى كاهنًا أو عرَّافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"[1].

- إن الله تبارك وتعالى ذم فريقًا من بني اسرائيل إذ نبذوا التوراة وراء ظهورهم، واتبعوا كلهم أوامر الشيطان وضلالات السحرة الكفرة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (البقرة)، وإن الله سبحانه قد أنزل في القرآن الكريم تشريعات صالحة لكل زمان ومكان، ذكر فيها أسس الحياة الاجتماعية

---

1. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٩٥٣٢)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

السليمة؛ إذ بين كيفية العلاقة الزوجية الصحيحة، ووضع قوانين المعاملات المادية بين الناس، ووضح طريقة النجاح في الحياة الإنسانية. وإنه لمن الضلال أن ينبذ المسلم مبادئ القرآن الكريم وراء ظهره كأنه لا يعلمها، ثم يمضي إلى السحرة، أو الكهنة أو المشعوذين ليستفتيهم في أمور حياته، أو ليسألهم عن أسباب إخفاقه[1]!!

انطلاقًا مما سبق يتضح لكل ذي عقل وبصيرة أن سليمان نبي الله ورسوله اختصه الله بكثير من النعم والفضائل والمعجزات، وقابل عليه السلام هذه النعم بالشكر والإيمان وليس كما يدعي الواهمون من تعلمه السحر، بل هو الرسول المعصوم من ذلك؛ فعليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام.

الخلاصة:

- سليمان عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى، وقد أيده الله بالعديد من الآيات والمعجزات التي تدل على صدق نبوته منها: تسخير الجن والشياطين، وتَعَلُّم منطق الطير، ومنطق النمل، وتسخير الريح وغيرها.
- الله عز وجل برأ سليمان عليه السلام من الدعاوى التي زعمها الزاعمون من أنه صار ملكًا ثَرِيًّا بفضل ما تعلمه من السحر، فلم يكن سليمان يستعمل السحر، ولا كان يتعلمه، ولا كان يعلمه، كما أن سليمان عليه السلام لم يكفر وإنما تلقى نعمة ربه بالشكر والعرفان.
- هناك العديد من العبر التي تستفاد من قصة سليمان عليه السلام منها خصائص المملكة الصالحة، وحسن استغلال الطاقات المختلفة لبناء تلك المملكة، وطريقة مكاتبة الملوك، وكذلك ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

الشبهة السبعون

الزعم أن سليمان عليه السلام غفل عن ذِكْر ربه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام قد شُغِلَ باستعراض الخيل حتى فاتته الصلاة، أو فاته ورد من الذكر كان له، فندم سليمان عليه السلام على ذلك، وأمر برد الخيل، فقام بقطع أعناقها وسُوقها بالسيف وهو منهي عنه، ويستدلون بقول الله عز وجل: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ (ص)، وذلك يتنافى مع طاعة الأنبياء لربهم، وعصمتهم من انشغالهم بأمور الدنيا.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذا الزعم قد يؤيده ظاهر الآيات، لكنه لا دليل عليه ولا يصح، حتى وإن اعتذر الجمهور بأن ترك الصلاة كان نسيانًا، وذبح الخيل كان قربانًا.

٢) ما ذهبوا إليه قول ساقط لا دليل عليه ولا يقبله عقل، ولا يليق بعصمته عليه السلام، والصحيح أنه أحب

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٩٥: ٢٩٩.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

الخيل المجاهدة في سبيل الله تعالى لحبِّه لذكر ربه وطاعته.

التفصيل:

أولا. هذا الزعم قد يؤيده ظاهر الآيات، لكنه لا دليل عليه ولا يصح:

ذهب بعض المفسرين إلى أن سليمان عليه السلام قد شُغل باستعراضه الخيل حتى فاتته صلاة العصر، أو فاته ورد من الذكر كان له حتى غربت الشمس، وذلك قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ (ص: ٣٢)؛ فندم سليمان، وأمر برد الخيل، فطفق يقطع أعناقها وسُوقها؛ تقربًا إلى الله، وذلك قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ (ص). والحقيقة أن مدلولات الألفاظ ليست واضحة فيما ذهبوا إليه، وإنما الذي قالوه في معاني الألفاظ محتمل، ومحتمل بعيد، فهم يقولون: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾، إنما هو للشمس، المفهومة من قوله بالعشي، كما يقولون: إن معنى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢) أنه أحب هذه الخيل معرضًا عن ذكر ربه، فلما ندم أبدله الله تعالى ما هو أسرع منها وهو الريح، وهذا ما ذهب إليه الجمهور، وقد اعتذر الجمهور عن ترك سليمان عليه السلام صلاة العصر بأنه كان نسيانًا، أو ربما كان هذا سائغًا في شريعة سليمان، فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد، وعرضه الخيل، ويستدلون على جواز ذلك بانشغال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب. يقول ابن كثير: ويحتمل أنه كان سائغًا في مِلَّتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعًا فنسخ ذلك بصلاة الخوف[1].

ويرى آخرون أن هذه الادعاءات في حق نبي الله سليمان عليه السلام، إنما هي أقوال باطلة، لا تليق بمقام هذا النبي الكريم، ولا تتفق مع سياق الآيات، ولا مع مجريات الأمور، ومصالح المملكة السليمانية، فضلًا عن أنه لم يدل عليها حديث صحيح، ويرفضها سياق الآيات الكريمة.

ثانيًا. ما ذهبوا إليه قول ساقط لا دليل عليه ولا يقبله عقل، ولا يليق بعصمة نبي الله سليمان؛ والصحيح الذي لا معدل عنه غير ذلك:

إن الصحيح الذي لا مَعْدِل عنه - كما يرى ابن حزم والرازي وغيرهما - أن سليمان عليه السلام قد طلب من جُندِه أن يعرضوا الخيل عليه؛ ليرى مدى كثرتها وقوتها وقدرتها على العَدْو والثبات، فعرضت عليه، وهي كما وصفها الله صافنات جياد. والصافنات هي التي تقف على قوائمها الثلاثة وترفع الرابعة، فتقف على مقدم حافرها مُتهيِّئة للعَدْو إذا حركها راكبها، والجياد هي: التي تجيد العَدْو، وتسرع للقاء العَدُوِّ، كأنها الريح المرسلة، فلما رآها سليمان وأعجب بكثرتها وقوتها، وشكر الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة، وقال في نفسه أو للمقربين إليه: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي، أي من أجل أن أكون لربي ذاكرًا، والذكر يبعث على الشكر، ويبعث على التفاني في الخضوع والطاعة، فالحرف "عن" في الآية للتعليل؛ أي: أحببتها حبًّا ناشئًا

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد عبد الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٧٤.

عن ذكري لربي، فلولا الذكر ما أحببت الخيل ولا أعددتها؛ لأن هواي في طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله[١].

والمراد بالخير في الآية: الخيل؛ قال رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"[٢].

وظل سليمان ﷺ يستعرض الخيل حتى توارت الخيل بالحجاب، أي: استترت بظلمة الليل. وقيل: حتى توارت الشمس بالحجاب، وهو الليل الذي سترها عن الأبصار. وأيا كان فإن المآل واحد، ثم طلب سليمان ردها إليه مرة أخرى فطَفِق[٣] يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها إعجابًا بها وحُنُوًّا عليها، وإيماءً للجند بأنه قد وهبها لله ﷻ، ووقفها على الجهاد في سبيله[٤].

يقول الفخر الرازي في تفسيره: إن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ (ص). وإن الكفار لما بلغوا من السفاهة إلى هذا الحد قال ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ (ص). وذكر قصة داود ثم ذكر عقبها قصة سليمان، وهذا الكلام لا يكون لائقًا إلا بقولنا: إن سليمان ﷺ أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة، والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات، فلو كان المقصود من قصة سليمان ﷺ في هذه المواضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة، والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقًا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال بالرد والإفساد والإبطال، بل التفسير المطابق للحق ولألفاظ القرآن، والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم، كما أنه مندوب إليه في دين محمد ﷺ، فاحتاج إلى الغزو، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنه لا يحبها لأمر الدنيا ونصيب النفس، وإنما يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، ثم إنه ﷺ أمر بتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين أن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

- تشريفها وبيان عزتها لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو.
- أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك متطلع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.
- أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها، ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

فهذا التفسير الذي ذكرناه يتفق مع عصمة نبي الله سليمان ﷺ ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات

---

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد ماضي مع البر والفاجر (٢٦٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٣٤٨٠).

٣. طَفِق: أخذ.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٨٠، ٣٨١.

المحظورات إلى سليمان ، ثم قال الرازي: وأنا شديد التعجب من الناس! كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن النقل والعقل يردّها، وليس لهم فيها شبهة فضلًا عن حجة[1]؟!

وقد ذكرنا أن الجمهور اعتذر عن ترك سليمان صلاة العصر بالنسيان، ثم ذكرنا حقيقة هذا الأمر، ولقد اعتذر الجمهور مرةً أخرى عن ذبح سليمان للخيل بأنه كان قربانًا، وكان هذا مشروعًا في دينه. لكن لئن سلم للجمهور اعتذارهم عن ترك سليمان صلاة العصر بالنسيان، **فلا يسلم له ذبح الخيل لأمور:**

١. أن كونه شغل بها حتى نسي الصلاة، لا يدعو إلى التخلص منها بذبحها تقربًا أو غيره؛ لأن النسيان يرفع إثم التأخير.

٢. أن فيه تضييع عدته في جهاد أعداء الله، والحفاظ على دينه، وهذا لا يليق من النبي، إذ إن الخيل - وقتها - كانت عدة لا يُستهان بها في قتال الأعداء، وفي ذبحها إضعاف لقوة يحتاج إليها قطعًا في مواجهة أعدائه، وتمكين للعدو من نفسه.

٣. أنه لو كان المراد بمسحه بالسوق والأعناق تقطيعها الذي يتطلب جهدًا كبيرًا ومشقة شديدة، لكان يكفي سليمان أن يعهد إلى بعض رعيته بهذا، ولا يُحمِّل نفسه هذه المهمة الشاقة، أما مسحها بيده فأمر سهل، ويناسب أن يباشره بنفسه.

٤. من أين للجمهور دليلهم على أن تقريب القربان بالخيل كان مشروعًا في دينه؟ فإن قالوا بأن الدليل هو فعله ، فيرد عليهم بأن قول الله ﷻ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ (ص) ليس نصًّا صريحًا محددًا في الذبح، وإنما يحتمل المسح باليد، وهو الأظهر فلا يصلح دليلًا لهم.

٥. أن الأرجح في عود الضمير في "توارت" للخيل لا للشمس؛ لذكر الخيل صريحًا في "الصافنات الجياد"، ولأنها الأقرب إلى الضمير في الذكر، والأنسب في عود الضمير أن يكون إلى أقرب مذكور[2].

فقولهم: إنه ذبحها وفرق لحمها على الفقراء والمساكين؛ لأنها شغلته عن صلاة كان يصليها قبل غروب الشمس، فهو قول ساقط لا يقبله عقل؛ إذ كيف يقضي على هذه القوة الضاربة فيأخذها من مرابطها؛ ليضعها في بطون الجائعين؟ وما ذنب هذه الخيل؟ هل هي التي أنسته صلاته؟ وَهَبْهُ نسي صلاته، هل في النسيان ذنب يوجب ذبح الخيل كلها من أجل أن يكفر الله عنه ذنبه؟ ولِمَ ذلك والله ﷻ يغفر لمن استغفره من غير أن يتقرب بمثل هذا القربان الذي يترتب عليه إهدار قوة لا غنى للجيش عنها، وهي لا تقل عن الريح شأنًا من حيث إنها تلاحق العدو، وتتوسط جمعه، وتدخل الرعب في قلبه، وتصنع الأعاجيب في إحراز النصر بإذن الله ﷻ[3]؟!

يقول ابن حزم في الرد على هذه الشبهة: "وهذه

---

١. مفاتيح الغيب، الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، عند تفسيره الآية.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٠: ٣٨٢.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٤.

خرافة مكذوبة سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، والظاهر أنها من اختراع زنديق بلا شك؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه، لا على ذنبها، وهذا أمر لا يستجيزه صبي ابن سبع سنين، فكيف بنبي مرسل"[1]؟!

ولقد كان على أولئك المفسرين الذين شغفوا بالنقل عن أهل الكتاب أن يتحروا الدقة في هذا النقل، وأن يكونوا على حذر منه، وأن يعتمدوا على النص القرآني؛ فيأخذوا المعنى من كلماته وحروفه، ويربطوا بين سابقه ولاحقه، ويأخذوا في اعتبارهم الجو الذي يسبح النص في أجوائه، فبذلك يصلون إلى المعاني المرادة من كلامه بتوفيق الله وعونه، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

الخلاصة:

- لقد زعم بعض المتوهمين أن سليمان - قد شُغِلَ باستعراض الخيل حتى فاتته صلاة العصر، أو فاته ورد من الذكر كان له حتى غربت الشمس، فلما أحس بالذنب أمر بإحضار الخيل، وطفق يقطع أعناقها وسوقها بالسيف تقربًا إلى الله. والحقيقة أن ما ذهبوا إليه مجرد زعم لا دليل عليه، ولم يرد فيه حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.
- اعتذر جمهور العلماء بأنَّ ذبح الخيل كان قربانًا، وأن الغفلة عن صلاة العصر كانت نسيانًا، والصواب أن هذا أمر لا يليق بعصمة نبي الله سليمان -، ولا يتفق مع مصالح المملكة السليمانية، فسليمان قد طلب من جُنده أن يعرضوا عليه الخيل؛ ليرى مدى قوتها وكثرتها وقدرتها على العَدْوِ والثبات، فعرضت عليه فرآها وأُعْجِبَ بها وشكر الله عليها، ثم ذكر أن حبه لها حب ناشئ عن ذكره لربه؛ لأن هواه في طاعة الله والجهاد في سبيله، ثم أخذ سليمان - بعد أن مضت وتوارت عنه وطلب بردها عليه - يمسح بيده الشريفة على سوقها وأعناقها؛ إعجابًا وحُنُوًّا عليها.
- لا يصح أن يكون سليمان - قد قام بذبحها؛ لأنها ألهته عن ذكر ربه؛ إذ كيف يقضي على هذه القوة الضاربة؟ وما ذنب هذه الخيل؟ وهل هي التي ألهته عن الصلاة؟ وهل في النسيان ذنب يوجب ذبح الخيل كلها؟ ولِمَ ذاك والله ﷻ يغفر لمن استغفره؟!

الشبهة الحادية والسبعون

الزعم أن سليمان - قد فتن افتتانًا لا يليق بنبوته(*)

مضمون الشبهة:

زعم بعض المتوهمين أن سليمان - قد فُتِن وابتُلِي، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) ﴾ (ص). وقد نسبوا إلى سليمان - - في تفسير هذه الآية - ادعاءات شتى لا تليق بنبوته وعصمته، ومن أبرز ما قالوه في ذلك: إن

---

١. انظر: الفِصَل في المِلَل والنِّحَل، ابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت، ج٤، ص١٦.

(*) عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

الجسد الذي أُلقي على كرسيّ سليمان عليه السلام عبارة عن شيطان، تمثَّل له في صورة إنسان احتال عليه، وأخذ خاتمه الذي كان يصرِّف به ملكه، وقعد على كرسيه، ولم يعد سليمان عليه السلام إلا بعد أن عثر على خاتمه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) آراء بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة وأقوالهم المنقولة عن أهل الكتاب وغيرهم لا تصح ولا تليق بمقام النبوة، ولا يستسيغها عقل راشد.

٢) الادعاءات التي ذُكرت في حق سليمان عليه السلام لم يرد بها قرآن أو حديث صحيح، وهي ادعاءات يمجها العقل ويأباها، وقد ردَّها العلماء وفنَّدوها.

٣) وردت في السنة أحاديث قد تفسر هذه الفتنة تفسيرًا يلائم مع النص القرآني، ويليق بمقام النبوة، ويقبله العقل السليم.

التفصيل:

أولا. نقل بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالا لا تصح ولا تليق بمقام النبوة:

"بعد حديث سليمان عليه السلام مع الخيل كما ورد في سورة (ص) جاء حديث آخر ينبئ عن اختبار آخر وقع فيه ثم تاب منه وأناب، واستغفر الله وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله له وآتاه من خيْري الدنيا والآخرة ما قرَّت به عينه وسر به قلبه؛ لأنه تميز بصفة هي من أعظم صفات العبودية، وهي الأوبة إلى ربه في كل ما يفعل وما يذر.

قال الله عز وجل: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص: ٣٠)، والأوبة هي: التوبة والإنابة، وإظهار كمال الافتقار إلى الله تعالى في كل شأن وفي كل حال. وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) ﴾ (ص).

وقد تخبَّط بعض المفسرين في تأويل هذه الفتنة ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالًا لا تصح ولا تليق بمقام النبوة، ولا تجد لها في العقل صدًى ولا قبولًا"[1].

ولقد فصل د. محمد أبو النور الحديدي القول في ذلك؛ حيث قال: ونذكر الآن ما حكاه كثير من المفسرين عن ذنب سليمان عليه السلام وسبب وقوع هذا الذنب، المستقى من أقوال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وبعض التابعين وتابعيهم، ثم نحكم على ذلك الذنب بما يتفق ومسلمات العقل السليم والنقل الصحيح، وأخيرًا نذكر القول الصحيح في فتنة سليمان وأسباب اختياره.

القول الأول: أن الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان عليه السلام عبارة عن شيطان تمثَّل له في صورة إنسان، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذي كان يصرف به ملكه. وقعد ذلك الشيطان على كرسي سليمان، ولم يعد سليمان إلا بعد أن عثر على خاتمه. وقالوا في كيفية احتيال الشيطان على سليمان وأخذ خاتمه أقوالًا شتى؛ فمن قائل: إن سليمان سأل الشيطان "آصف" كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقائل:

---

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٥.

إن فتنة سليمان عليه السلام هي أخذ الشيطان خاتمه من تحت فراشه؛ لأن سليمان كان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان. وقائل آخر: إن سليمان أعطى خاتمه لزوجته، ودخل لحاجته فجاء الشيطان في صورته، وأخذ الخاتم، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يومًا، وساح سليمان أربعين يومًا، وكان يستطعم الناس ويقول: أنا سليمان فيدفعونه ويكذبونه، حتى أُعطي يومًا حوتًا أو سمكة يطيب بطنه فوجد خاتمه في بطنه، فتختم به، ثم جاء فأخذ بناصيته، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص)[١].

القول الثاني: أن سبب فتنة سليمان عليه السلام هو سجود إحدى زوجاته وجواريها لتمثال أبيها في بيته أربعين ليلة وهو لا يعلم، ويحكون في ذلك حكايات مصطنعة؛ أن سليمان بلغه خبر مدينة اسمها "صيدون" بجزيرة في البحر، فخرج إليها بجنوده تحمله الرياح فدخلها، وقتل ملكها وأخذ بنتًا له اسمها "جرادة" من أحسن الناس وجهًا، فاصطفاها لنفسه وأسلمت، فأحبها وكانت تبكي على أبيها أبدًا، فأمر سليمان فمثل لها صورة أبيها، فكستها بمثل كسوته، وكانت تذهب إلى هذه الصورة بكرة وعشيًّا مع جواريها يسجدون لها، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى خلاء، وفَرَش الرماد وجلس عليه تائبًا إلى الله تعالى[٢].

القول الثالث: أن سبب فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ولد فخاف عليه من الشياطين، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته، ولكن هذا الولد وقع ميتًا على كرسي سليمان، فاستغفر سليمان ربه؛ لأنه لم يعتمد عليه في حفظ ابنه[٣].

القول الرابع: أن فتنة سليمان عليه السلام هي مرضه الذي صار به على كرسيه من الضعف كأنه جسد بلا روح، ثم رجع إلى صحته، فقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه وأمرضناه، وألقيناه على كرسيه ضعيفًا كأنه جسد بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، ثم رجع إلى صحته.

القول الخامس: أن السبب في فتنة سليمان عليه السلام قتله الخيل ظلمًا؛ فسُلِبَ ملكه[٤].

إلى غير ذلك من الأقوال التي ذكروها في كتبهم، وهي أقوال لم يرد بها القرآن، ولا النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ ولا تدل على عقل ولا على حكمة، فهي حَرِيَّةٌ بالرد، وقد رد عليها العلماء بوجوه، وردها المحقِّقون من العلماء؛ كابن كثير، والرازي، والبيضاوي.. وغيرهم من العلماء.

ثانيًا. هذه الادعاءات في حق نبي الله سليمان عليه السلام لم يرد بها القرآن أو الحديث، ويمجها العقل ويأباها، وقد رد عليها العلماء وفندوها:

١. إن الله عز وجل لم يبين في كتابه الفتنة ما هي، ولا الجسد الملقى على كرسي سليمان عليه السلام ما هو.

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٥، ٣٨٦.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع ساق، ص٣٨٥.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٨٧.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٨٧، ٣٨٨.

• قال أبو حيان: نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد أقوالًا يجب براءة الأنبياء منها، يُوقَف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من وَضْع اليهود، أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان[1]. وكذلك لم يرد عن نبينا ﷺ حديث يبين ذلك على نحو ما جاء في تلك الأقوال، فما مستند أصحاب هذه الأقوال إذن فيما قالوه؟!

أغلب الظن أن مستندهم هو ما نسب إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره، وهو لا يكفي سندًا في هذا الموضوع الخطير، فقد ذكر بعض العلماء الأجلاء أن صحة نسبة الخبر إلى ابن عباس غير مسلَّم بها، كما جاء عن ابن عباس نفسه أن ذلك من أخبار كعب الأحبار التي رواها عن كتب اليهود، وهي زاخرة بالأباطيل.

• قال ابن كثير: والظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - رضي الله عنهما - إن صحَّ عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان ﷺ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، وقد رُوِيَتْ هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف؛ كسعيد بن المُسيِّب، وزيد بن أَسْلَم.. وجماعة آخرين، وكلها مُتلقَّاة من قصص أهل الكتاب[2].

• ويرى الألوسي: أن نسبة الخبر إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - لا تَسْلَم صحتها، وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده إليه، وإن قال بها من سمعت، وجاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - برواية عبد الرزَّاق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب، ومعلوم أن كعبًا يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يوثق بها[3].

٢. لما أقسم إبليس بعزة الله ليُغْوِينَّ الناس أجمعين، أجابه الحق بقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر). وقد شهد الله لسليمان ﷺ بمقام العبودية لله، فقال عنه: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (ص). فكيف تسلط الشيطان إذن على كرسي سليمان مع أنه لا سلطان له عليه[4].

٣. إن الشيطان لو قدر على التشبه في الصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وموسى وعيسى - عليهم الصلاة والسلام - ما كانوا أولئك، بل كانوا شياطين تشبَّهوا بهم في الصورة؛ لأجل إغواء الناس وإضلالهم، ولما كان ذلك باطلًا؛ لأنه يؤدي إلى إبطال الدين بالكلية - كان ما أدَّى إليه باطلًا بالكلية[5].

إن هذه الأقوال لو صحَّت لترتَّب عليها وقوع الممنوع عقلًا وشرعًا، وهو عدم الوثوق بالشرائع. وقد قامت الأدلة الصحيحة على صحة الشرائع والوثوق بها، وما يؤدي إلى الباطل ممنوع. والشيطان لا يتصور

---

١. المرجع السابق، ص٣٨٨.
٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦.
٣. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ج١٧، ص٣٤٢.
٤. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٢٩١.
٥. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٨٩: ٣٩١.

بصورة النبي ﷺ في الرؤيا المنامية، قال ﷺ: "مَنْ رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتخيَّل بي"[١]، وإذا كان الشيطان ممنوعًا من هذا في الرؤيا المنامية، فبالأولى هو ممنوع من التمثل بالنبي في حالة اليقظة، وما ثبت لنبي يثبت لغيره، إذ لا فرق، قال أبو حيان: ويستحيل عقلًا وجود بعض ما ذكروه، كتمثيل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المقصود هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية"[٢].

٤. لو قدر الشيطان على سليمان عليه السلام فعامله هذه المعاملة، لقدر على مثلها من العلماء والزهاد، ومزَّق كتبهم ومحاها وأثبت فيها شيئًا آخر، ولما كان المشاهد خلاف ذلك وأنه لم يقدر من أحد منهم على هذا، وجب أن يكون سليمان عليه السلام ممن لا يقدر عليهم بالأولى[٣].

٥. هذه الأقوال مبنية على أن ملك سليمان عليه السلام مرتبط بخاتمه، فما دام معه الخاتم فالملك ثابت مستقر له، وإن فقد الخاتم سلب منه الملك، وليس لهذا سند من العقل أو النقل، فالعقل يستبعد أن يرتبط ملك سليمان بخاتمه، كما أنه لم يرد عن الله عز وجل ولا عن نبيه ﷺ ما يدل على أن ملك سليمان عليه السلام مرتبط بخاتمه، ولو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون، لذكره الله عز وجل في كتابه[٤].

٦. إن اتخاذ التماثيل يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع، فقد كان الجن يصنعون لسليمان عليه السلام التماثيل: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ (سبأ: ١٣). أما السجود للتماثيل - على القول بأن سبب فتنة سليمان هو سجود إحدى زوجاته وجواريها لتمثال أبيها في بيته أربعين ليلة، وهو لا يعلم - فإنه لم يأذن فيه، لعدم علمه به، وعلى ذلك فلا ذنب عليه، بل الذنب على تلك المرأة، وكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه، ولم يأذن لغيره فيه؟!

٧. إن سياق الآيات شاهد على بطلان هذه الأقوال، فإن الآيات قبل ذكر الفتنة وإلقاء الجسد، والآيات بعده تدفع أن تكون الفتنة وإلقاء الجسد على نحو ما ورد في هذه الأقوال. فالآيات السابقة تحكي أمر الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ بالصبر على ما يقوله كفار قريش وغيرهم، أن يذكر من ابتُلي فصبر من إخوانه الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كداود وسليمان وأيوب - عليهم السلام - ليتأسى بهم، ولا يتأتى التأسي إلا وقد صدرت عنهم الأعمال الفاضلة لا الأعمال المشينة.

٨. والزعم بأن الفتنة هي خوف سليمان عليه السلام على ابنه من مضرة الشياطين، وأمره السحاب بحفظه وتغذيته.. فهذا قول تبدو عليه سمات الضعف من وجوه:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام (٦٥٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: "من رآني في المنام" (٦٠٥٦)، واللفظ له.

٢. انظر: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٩٠، ٣٩١.

٤. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٩١.

- يبعد أن يبلغ الخوف بنبي الله سليمان عليه السلام، من مضرة الشياطين لابنه، إلى حد أن يأمر السحاب بحفظه وتغذيته، وهل الشياطين يعجزها بلوغ السحاب؟!
- أنه لا يستند إلى حديث صحيح مرفوع إلى نبينا ﷺ حتى يقبل ويطمأن إليه.
- أن تسخير السحاب والريح كان بعد فتنة سليمان عليه السلام كما تدل الآيات.

٩. أما الزعم بأن فتنة سليمان عليه السلام هي مرضه الذي صار به على كرسيه من الضعف كأنه جسد بلا روح ثم رجع إلى صحته، فهو قول ظاهره الضعف لأمور:

- أنه لو كان المراد مرض سليمان عليه السلام لذكر المفعول، إذ ذكره يحدد المعنى، ولجاءت الآية هكذا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ (ص).
- قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ فإنه يدفعه؛ لأن الأنسب في لفظ الإنابة عقيب ذكر الفتنة أن يكون معناه: الرجوع إلى الله ﷻ.
- قول سليمان عليه السلام بعد ذلك: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ دالٌّ على أن الذي صدر منه من قبيل ترك الأفضل، وليس المرض من هذا القبيل[1].

ثالثًا. وردت في السنة أحاديث قد تفسر هذه الفتنة تفسيرًا ينسجم مع النص القرآني ويليق بمقام النبوة:

ولعل الأرجح في ذلك والصحيح الذي ينسجم مع النص القرآني، ويليق بمقام النبوة ولا ينكره العقل السليم، هو ما جاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "قال سليمان: لأَطوفَنَّ الليلة على تسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله. فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشِقِّ رَجُل، وايمُ الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون"[2].

صحيح أن هذا الحديث ليس فيه ما يدل على أنه تأويل لمعنى هذه الآية، والبخاري ومسلم لم يضعاه في كتاب التفسير، ولكنه يستأنس به على ما ذكره العدول من المفسرين من أن هذا الشق من المولود جاءت به القابلة على كرسيه، فكانت الفتنة فيه، وهي خيبة أمله فيما عزم عليه حين لم يقل: إن شاء الله[3].

فهذا الحديث قد يبين المراد بالفتنة في الآية، وأنها ترك الاستثناء، وكان نسيانًا، واستغفاره منها هو قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾؛ لأنه ترك الأَوْلَى، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يستغفرون من ترك الأولى؛ نظرًا لسمو مقامهم. والجسد على هذا هو شق الولد الذي ولد له، وإلقاؤه على كرسيه هو وضع القابلة له عليه ليراه. وهذا القول يرجَّح بأمرين:

الأول: أنه يستند إلى حديث صحيح مرفوع إلى نبينا محمد ﷺ، وأصح التفسير ما كان بالحديث المرفوع.

---

١. المرجع السابق، ص٣٩١: ٣٩٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦١٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الاستثناء (٣١٢٤)، واللفظ للبخاري.

٣. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٦.

الثاني: أن ما يلحق سليمان عليه السلام هو ترك الأولى، وترك الأولى لا يقدح في عصمة الأنبياء، ولا سيما أن الذنب المنسوب إلى سليمان عليه السلام كان نسيانًا - كما في رواية مسلم - ولا طعن على الأنبياء في صدور الصغائر غير الحسية عنهم سهوًا[1].

الخلاصة:

- لقد تخبط المفسرون في تأويل هذه الفتنة، ونقلوا عن أهل الكتاب وغيرهم أقوالًا لا تليق بمقام النبوة، ولا تجد لها في العقل صدى ولا قبولًا.
- هذه الأقوال والادعاءات في حق سليمان عليه السلام لم يرد شيء عنها في القرآن ولم ينص عليها، ولم ينقل عن النبي ﷺ حديث يبين الفتنة، ويثبت ما قد أورده هؤلاء على جهة القطع واليقين، ويترتب على صحة هذه الأقوال وقوع الممنوع عقلًا وشرعًا، وهو عدم الوثوق بالشرائع، وقد قامت الأدلة الصحيحة على صحة الشرائع والوثوق بها، وما يؤدي إلى الباطل فهو باطل.
- الحديث الذي ورد في صحيح البخاري، وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، يوضح أن المراد بالفتنة هي ترك الاستثناء والأولى، وكان ذلك نسيانًا، ثم إنه استغفر منه بعد ذلك، ويُرجح هذا المراد أنه يستند إلى حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأن ما يلحق بسليمان عليه السلام هو ترك الأولى، وترك الأولى لا يقدح في عصمة الأنبياء.

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٩٥، ٣٩٦.

الشبهة الثانية والسبعون

ادِّعاء كفر سليمان عليه السلام وعبادته الأصنام(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن نبي الله سليمان عليه السلام كفر في أُخريات حياته؛ إذ قادته زوجاته إلى عبادة الأصنام من دون الله تعالى.

وجوه إبطال الشبهة:

١) مصدر هذا الكلام هو الكتاب المقدس الذي أصابه التحريف والتغيير، فهو ليس ثقة، وفضلا عن هذا فمعلوم أن اليهود لا يتركون نقيصة صغيرة ولا كبيرة إلا ألصقوها بالأنبياء.

٢) الثابت عند العلماء أن القرآن مصدر ثقة غير محرف، فما ورد به فهو الصحيح الذي تُزكيه الأدلة التاريخية، والمنطق العقلي السليم.

٣) العقل يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن، فما بالنا بالنبي سليمان عليه السلام.

التفصيل:

أولا. مصدر هذا الكلام هو الكتاب المقدس، وهو غير ثقة فقد أصابه التحريف والتغيير:

إن افتراءات اليهود على الأنبياء لم تتوقف عند سليمان عليه السلام، فأنبياء التوراة كلهم لصوص ومجرمون

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مرجع سابق. الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

® في "نفي كفر سليمان" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والستين، من هذا الجزء.

وزناة ومفسدون في الأرض، فكيف يؤخذ من هذا الكتاب معلومة أو حكم؟ وكيف يكون مصدرًا لسير الأنبياء؟ وياليت الأمر وقف عند الأنبياء، بل إن الأدهى من ذلك أن نصوص الكتاب المقدس تصف الله - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - بالجهل والعجز والغفلة والنسيان، وتنعته بصفات النقص وأنه ﷻ يعتريه كل ما يعتري البشر من النقص، فهل هذا يصح أن يكون إلهًا؟!

ولقد شهد علماء الأديان والدراسات المقارنة ودائرة المعارف الأمريكية بأن نصوص الكتاب المقدس تمَّ تحريفها، وأن معظمها من وضع البشر النسَّاخ للكتاب المقدس، والنقلة له على مرِّ التاريخ، وهي مليئة بالأخطاء والتناقضات والاضطرابات[1].

والقرآن لم يذكر قصة كفر سليمان عليه السلام التي قادته إليه إحدى نسائه المزعومة، بل نفى عنه الكفر والسحر؛ لأن بعض بني إسرائيل اتهم سليمان بأنه كفر، ويقرر الحق عدم كفره في قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)، ويدلنا الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر، ونكتشف من ذلك أن سليمان عليه السلام لم يكن يعلم السحر، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن له علاقة بقضية سحر إنما هي مشيئة الحق سبحانه[2]، فإن نقل أحد من المفسرين مثل هذه الروايات الواهية المكذوبة على سليمان عليه السلام فالقرآن الكريم منها براء، ولا تنسب إلى القرآن ما دامت غير واردة به.

ثانيًا. الثابت عند العلماء أن القرآن مصدر موثوق به؛ لأنه غير محرَّف، فكل ما ورد به الصحيح:

ما أشد الفارق وأبعده بين ما جاء في القرآن الكريم عن سليمان عليه السلام وما جاء في التوراة المحرفة!! فالقرآن ثبتت حجته تاريخيًّا، والتوراة والإنجيل لم تثبت حجتهما.

فهو عليه السلام في القرآن الكريم من رسل الله ﷻ، أيده الله بالملك فآتاه الله مُلكًا لم يهبه لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ (ص)، وكان عليه السلام، يقابل هذه النعم العظيمة بالمزيد من الشكر لله تعالى، فقال الله عنه في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)﴾ (النمل).

وفي القرآن الكريم نفي صريح لكفر سليمان عليه السلام، وكأنه رد مباشر على من اتهمه بهذا الجرم الشنيع من أهل الكتاب؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وكيف يتفق الكفر وعبادة الأوثان مع نبي ورسول كرَّس كل حياته للدين، ولدعوة التوحيد، ومقاومة الوثنيات؟! وقصته مع ملكة سبأ وقومها في دعوتهم إلى الله تعالى، وعقيدة التوحيد مشهورة؛ حيث كانوا يعبدون الشمس من دون الله، فدعاهم إلى التوحيد،

---

١. رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ج١، ص٩٤.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٨٤.

وأخرجهم من هذه العبادة الوثنية إلى عبادة الله تعالى، والقصة واردة في سورة النمل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (النمل).

ثالثًا. العقل يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن فما بالنا بالنبي سليمان عليه السلام:

كيف يليق بمن وصفتموه بالحكمة، والعلم، والفلسفة، والشعر عندكم في كتابكم، وهو عن سائر الأنبياء مُفضَّل عندكم بكل صفات الكمال البشري، كيف بمن هذه صفته أن يسقط في عبادة الأصنام، ويترك التوحيد؛ استجابة لرغبة نسائه، وانسياقًا وراء شهواته؟! فهل بقيت بعد ذلك حكمة؟ ومَن مِن العقلاء يصدق أن رجلًا واحدًا يتزوج في وقت واحد بمئات الزوجات بالإضافة إلى الجواري؟! ومتى يتفرغ من هذا شأنه - لو صدقنا جدلًا - لشئون الحكم؟

وإذا كانت هذه تصرفات أحكم ملك في تاريخ بني إسرائيل، فكيف تكون تصرفات ملوكهم من دونه؟ وكيف تكون تصرفات عامتهم؟!

الخلاصة:

- إن ما ورد في التوراة بشأن عبادة سليمان عليه السلام للأصنام وكفره بالله استجابة لرغبة نسائه - باطل ولا يوثق به؛ لأن مصدره محرَّف ومغيَّر، لعبت فيه أيدي العابثين والمفسدين من اليهود.
- الصحيح ما ورد في القرآن الكريم؛ لأنه كتاب مجمع على صحته وأنه غير محرف، وثابت الحجة، وقد ذكر القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢).
- العقل الصحيح يستنكر أن يفعل ذلك إنسان مؤمن فكيف يقبل أن يصدر ذلك عن سليمان عليه السلام؟!

الشبهة الثالثة والسبعون

الزعم أن سيدنا سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بنى حائط المبكى(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى حائط المَبْكَى، وأن السور الذي بناه سليمان القانوني - السلطان العثماني - من بناء سيدنا سليمان بن داود عليه السلام، ويهدفون من وراء ذلك إلى قلب الحقائق؛ من أجل إيجاد مكان لهم في التاريخ، وخاصة بفلسطين.

وجها إبطال الشبهة:

١) لا وجود لما يسمى بحائط المبكى في كتب

(*) بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مرجع سابق.

اليهود المقدسة، ولا في كتبهم التاريخية، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة، وهو دليل على زَيْف هذه الدعوى، بل أثبتت المعلومات التاريخية الموثقة أنه حائط البراق.

٢) إن تاريخ ظهور مشكلة الحائط بين العرب واليهود، تاريخ حديث يعود لسنة ١٩٢٩م عندما ظهرت انتفاضة البراق، وصدر حكم اللجنة الدولية بملكية المسلمين له، غير أن هزيمة العرب سنة ١٩٤٨م سمحت بتجديد هذه الصيحة.

التفصيل:

أولا. لا وجود لما يسمى بـ "حائط المبكى" في كُتب اليهود المقدسة ولا في كتبهم التاريخية وتراثهم، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة، ولكنه حائط البُراق:

إذا كانت اليهودية قائمة على أساطير في شعائرها وشرائعها؛ وطمس شرائع أنبيائها الحقة؛ فإن أسطورة الأساطير ما يسمونه بـ "حائط المبكى"، فلا وجود لهذا الحائط ولا أثر للبكاء عنده في كتبهم المقدسة مع تحريفها واختلاقها من عند أنفسهم، وهم يزعمون أن حائط المبكى هو جزء من الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، وآخر أثر من آثار هيكل سليمان عليه السلام ولا أساس لهذا الزعم من الدين، ولا من التاريخ، ولا من القانون، أما دينهم فعلى الرغم من تحريفه فليس في طقوسهم البكاء عند حائط يسمى حائط المبكى.

وأما التاريخ فمن المعروف أن الهيكل المزعوم تعرَّض للهدم أربع مرات، آخرها على يد الرومان عام ٧٠م، فما الذي يمكن أن يبقى من أطلاله بعد أن يُهدم ويُبنى أربع مرات؟!

أما الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف فالجميع يعرفه بأنه حائط البراق، فمنذ حادثة الإسراء عرف أهل القدس سواء بالتواتر أم بالتوارث أنه يوجد مكان في الحائط الغربي في الحرم القدسي يسمى البراق، وتعود هذه التسمية إلى ما ذكرته مصادر إسلامية من أن رسول الله ﷺ حين أسري به إلى المسجد الأقصى عن طريق دابَّة تسمى البراق، فلما وصل المسجد الأقصى ربط البراق في مكان بالحائط الغربي في الحلقة التي يربط فيها الأنبياء من قبل، ثم صلَّى بالأنبياء، ثم عرج به من هناك إلى السماوات العُلَا.

ومن يتابع التاريخ العثماني فسوف يجد عددًا من السلاطين العثمانيين أحسنوا معاملة اليهود قبل ظهور أهدافهم الصهيونية، فقد سمح لهم السلطان محمد الفاتح (٨٥٥: ٨٨٦هـ/ ١٤٥١: ١٤٨١م) بالاستقرار في إستانبول، وعندما طُرِدَ اليهود من إسبانيا عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م أصدر السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦: ٩١٨هـ/ ١٤٨١: ١٥١٢م) أمرًا يقضي بحُسْن معاملتهم.

وهكذا أصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر ملجأ لليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال، أو الهاربين من أوربا.

وخلال حكم السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦: ٩٧٤هـ/ ١٥١٩: ١٥٦٦م) شهدت الدولة العثمانية صحوة حضارية كبيرة، واستفادت مدينة القدس ـ وبيت المقدس بصفة خاصة ـ من جهوده الإصلاحية، فقد أمر بإعادة بناء أسوار المدينة، وبلغ طول السور الذي ما زال قائمًا حتى اليوم ميلين،

وارتفاعه حوالي أربعين قدمًا، ودعا السلطان رعاياه إلى الإقامة في بيت المقدس خاصة اللاجئين اليهود، وقد صدر منذ سنوات كتاب هام عن القدس لمؤلفة أمريكية تذكر فيه أن اليهود لم يُظهِرُوا في الماضي أي اهتمام بذلك الجزء من الحائط، وأن المكان في عهد هيرودوس - بعد أن أعيد بناء الهيكل للمرة الثانية - كان جزءًا من مركز تجاري، ولم تكن له أهمية دينية، وأن اليهود كانوا يتجمعون للصلاة على جبل الزيتون، وعند بوابات الحرم، وأنهم عندما منعوا من دخول المدينة في أثناء الحروب الصليبية كانوا يصلُّون عند الحائط الشرقي للحرم، وتضيف المؤلفة الأمريكية أن سليمان القانوني هو الذي أصدر فرمانًا يسمح بمكان لليهود للصلاة عند الحائط الغربي، ويقال: إن سنان باشا مهندس البلاط الكبير هو الذي قام بتخطيط الموقع وبالحفر؛ كي يبيح للحائط انتفاعًا أكبر، وقام ببناء حائط مُوازٍ له يفصل مصلى لليهود عن حي المغاربة الذي يعتبر وقفًا إسلاميًّا من آخر القرن ١٣م، وسرعان ما أصبحت المنطقة مركز الحياة الدينية ليهود القدس، ويضيف المصدر أنه لم تكن تقام هناك بعد طقوس رسمية للعبادة، غير أن اليهود كانوا يحبون قضاء فترة ما بعد الظهيرة هناك، يقرءون المزامير، ويقبلون الأحجار، وسرعان ما اكتنف الحائط الغربي أساطير كثيرة، فقد تمَّ ربط الحائط بأقاويل من التلمود تخص الحائط الغربي للهيكل - يلاحظ أن هيكل سليمان تمَّ بناؤه وهدمه أربع مرات، وأنهم التقطوا اسم سليمان القانوني، الذي أعاد بناء السور لينسبوه إلى الملك سليمان عليه السلام - وهكذا أصبح الهيكل رمزًا لليهود، وأصبحوا يشرعون بتواصلهم مع الأجيال الماضية، وبمجدهم الذي ولَّى.

ومن الواضح أن ما ذكرته المؤلفة الأمريكية من أن سليمان القانوني هو الذي سمح لليهود بمكان للصلاة عند الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف قد حدث فعلًا، حيث ورد في بحث مُقدَّم من روحي الخطيب - أمين القدس السابق - إلى مؤتمر حماية المقدسات والتراث الإسلامي في فلسطين نص أخذه من الموسوعة اليهودية الصادرة في القدس عام ١٩٧١م، يقول هذا النص: "إن الحائط الغربي أصبح جزءًا من التقاليد الدينية اليهودية حوالى سنة ١٥٣٠م؛ نتيجة الهجرة اليهودية من إسبانيا وبعد الفتح العثماني سنة ١٥٧١م".

ويعني ما ورد في المرجعين الأمريكي واليهودي أن العثمانيين - في عهد السلطان سليمان القانوني - هم الذين منحوا اليهود حق التعبد والصلاة عند حائط البراق أو الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف من قبيل التسامح الديني مع اليهود، بعد طردهم من إسبانيا بعد الفتح العثماني للقدس سنة ١٥٧١م. ويدعم هذه الحقيقة نص ورد في تقرير اللجنة الدولية لتحديد الحقوق والادعاءات، حيث ذكر أنه وردت إشارة لأحد الباحثين في سنة ١٦٣٥م تتحدث عن إقامة صلوات منظمة عند الحائط لأول مرة. وخلال الحكم المصري للشام (١٨٣١: ١٨٤٠م) كان يسمح لليهود بالاقتراب من الحائط والبكاء عنده مقابل ٣٠ جنيهًا إنجليزيًّا، كانوا يسددونها سنويًّا لوكيل وَقْف أبي مدين. وهو أرض مجاورة للحائط الغربي من المسجد الأقصى، وقفها الملك الأفضل بن صلاح الدين عام ١١٩٣م على الحُجَّاج المغاربة، حيث تمَّ بناء منازل لهم

فيها عرفت باسم "حيّ المغاربة"، ثم أطلق عليها فيما بعد اسم "أبي مدين الغوث"، وتمَّ توثيق الوقفية عام ١٦٣٠م.

لكن إبراهيم باشا أصدر مرسومًا في مايو ١٨٤٠م حظر فيه على اليهود تبليط الممر الكائن أمام الحائط، وسمح لهم بزيارته فقط على الوجه القديم.

ورغم موقف السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦: ١٩٠٩م) من عدم الموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، فإنه بالنسبة لليهود المقيمين في فلسطين أصدر ـ عام ١٨٨٩م ـ فرمانًا يمنع فيه التعرض للأماكن التي يؤدي فيها اليهود طقوسهم في أثناء الزيارة؛ مما يعني التسامح مع اليهود الذين يتمتعون بالجنسية العثمانية[1].

وقد ورد في مؤلفات مختلفة معاصرة أن السُّيَّاح الذين زاروا الأرض المقدسة ـ خاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين ــ ذكروا أن اليهود استمر ذهابهم إلى الحائط وجواره؛ لتقديم تضرُّعاتهم.

أما بالنسبة لما تذكره المصادر اليهودية من علاقة اليهود بالحائط بعد هدمه، فتروي أن اليهود اعتادوا بعد خرابه للمرة الثانية الذهاب إلى أطلاله، لكنها لم تشر إلى البكاء عند الأطلال، كما يذكر عدد من المؤرخين اليهود في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين أن اليهود كانوا يذهبون إلى الحائط لإقامة شعائرهم الدينية خلال الحكم العربي، وأنه في الطور الأخير من احتلال القدس كان اليهود يقيمون صلاتهم الدائمة عند الحائط، فالمصادر اليهودية وحدها هي التي ذكرت ذلك، وليس هناك أدلة ولا شواهد على صدق قولها.

ثانيًا. كيف ظهرت مشكلة الحائط بين العرب واليهود؟ وكيف تطورت؟

عن ظهور مشكلة الحائط وتطورها أعد د. عادل حسن غنيم بحثًا شافيًا في ذلك؛ حيث قال: بدأت جذور المشكلة قبل الحرب العالمية الأولى عندما احتجَّ مُتولِّي أوقاف "أبي مدين الغوث" في ١٣ تشرين الثاني ١٣٣٧هـ/ ١٩١١م على أفراد الطائفة اليهودية الذين جرت عادتهم بزيارة الحائط وقوفًا، ثم أخذوا مؤخرًا يجلبون معهم الكراسي؛ للجلوس عليها أثناء الزيارة، وطلب متولي الأوقاف مَنْع القيام بذلك؛ تجنبًا لادعاء اليهود في المستقبل ملكيَّة المكان، وبناء على ذلك أصدر مجلس إدارة لواء القدس تعليمات تنظم زيارة اليهود للحائط، وتمنع جلب أي مقاعد أو ستائر عند الحائط.

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، واعتمادًا على تصريح بلفور الذي يعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ أخذ اليهود يسعون إلى تثبيت حقوق لهم واسعة في هذا المكان عن طريق تغيير الحالة الراهنة التي كان عليها الحائط قبل الحرب، حيث بدءوا تحركهم عام ١٩١٩م، بما قدموه من عرائض رسمية ونشروه من مقالات، ووصل الأمر إلى نشر صور لهيكل يهودي جديد مكان مسجد الصخرة، يعلوها العلم الصهيوني والكتابات العبرية، وأخذ اليهود يساومون على شراء المنطقة الوقفية الواسعة المحيطة

---

١. مؤتمر حماية المقدسات والتراث الإسلامي، روحي الخطيب، د. م، د. ت. الموسوعة اليهودية الصادرة في القدس، ١٩٧١م.

بالحائط، وعرضوا أرقامًا باهظة للشراء.

وعندما وقع صَكُّ الانتداب على فلسطين ـ الذي صُدِّق عليه من قِبَل عُصْبَة الأمم في ٢٤ يوليو ١٩٢٢م ـ تضمنت مواده ـ وعددها اثنتا عشرة مادة ـ عددًا من المواد المتعلقة بالأماكن المقدسة، كان أهمها المادة ١٤ التي تنصُّ على ما يأتي:

"تُؤلِّف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدَرْس وتحديد الحقوق والادعاءات المتعلقة بالأماكن المقدسة، والحقوق والادعاءات المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين، وتعرض طريقة اختيار هذه اللجنة وقوامها، ووظائفها على مجلس عصبة الأمم لإقرارها، ولا تُعيَّن اللجنة ولا تقوم بوظائفها دون موافقة المجلس المذكور"، لكن هذه اللجنة لم تُعَيَّن إلا عام ١٩٣٠م، بعد أن أوصت لجنة التحقيق في أسباب انتفاضة البراق عام ١٩٢٩م بسرعة تعيينها، وطوال السنوات ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨ كان هناك محاولات يهودية لجَلْب مقاعد عند الحائط، لكنهم في عام ١٩٣٨م، حاولوا استخدام خزانة، ومصابيح، وحُصْر، وستائر؛ للفصل بين الرجال والنساء، وأرسل مفتي فلسطين رسائل إلى حاكم القدس يُنَبِّهه إلى تلك المخالفات، وصدرت التعليمات من الإدارة المنتدبة في أكثر من موقف بمنع اليهود من جَلْب كراسي أو ستائر إلى الحائط، ولفترة تَقْرُب من العام اعتبارًا من سبتمبر ١٩٣٨ حتى أغسطس ١٩٣٩م، الذي حدثت فيه انتفاضة البراق، حيث حدثت مشادَّات واحتجاجات وتجاوزات كلامية وكتابية وسياسية بين العرب واليهود في فلسطين وخارجها، وشُكِّلت لجنتان: إحداهما عربية للدفاع عن البراق، والأخرى يهودية للدفاع عن المَبْكَى، ودعت لجنة الدفاع عن البراق لعقد مؤتمر إسلامي في أول نوفمبر ١٩٣٨م، حيث احتج المؤتمر على أية محاولات تزعم وجود أي حق لليهود في مكان البراق، وشكل المؤتمر جمعية عرفت باسم "جمعية الأماكن الإسلامية المقدسة".

واستقر في أذهان المسلمين في ذلك الوقت أن اليهود يطمعون في الأماكن المقدسة، وأنهم ينوون الاستيلاء على المسجد الأقصى، ورغم تكرار نفي ذلك من قبل السلطة البريطانية، والمنظمات اليهودية المسئولة في فلسطين، فإن المسلمين في فلسطين لم يصدقوا ذلك، خاصة وهم يرون محاولات مستمرة من اليهود لتغيير الأوضاع المستقرة عند الحائط، وفي هذا الجو المتوتر صدرت قرارات المؤتمر الصهيوني السادس عشر الذي عقد في زيورخ في ٢٨ يوليو إلى ١١ أغسطس ١٩٣٩م، والتي كان من أهمها المطالبة بفتح أبواب فلسطين على مصراعيها لليهود، وبذل الجهود لحمل الحكومة البريطانية على سحب كتابها الأبيض لعام ١٩٣٨م، الذي اعترف بحقوق المسلمين في الأماكن المقدسة، كما عقد فور انتهاء المؤتمر الصهيوني أول اجتماع للوكالة اليهودية التي جمعت الصهاينة واليهود، وتابعت لجنة الدفاع اليهودية عن المبكى نداءاتها المقلقة لإثارة يهود العالم إلى أن يعاد إليهم حائط المبكى.

وأما على الجانب الإسلامي فلم تكن جمعية حراسة الأماكن المقدسة هادئة، فقد كانت تصدر البيانات تباعًا، وكان لكل من الجمعية واللجنة دور مُهِمٌّ في تصاعد هذه الأحداث حتى انفجار الانتفاضة في ١٥ أغسطس ١٩٣٩م، واشتعلت انتفاضة البراق عام ١٩٣٩م، وخلال الشهر التالي للانتفاضة فكرت

السلطة المنتدبة في تطبيق المبادئ التي وردت في الكتاب الأبيض عام ١٩٣٨م، بشأن الحائط وأبلغت ذلك إلى رئاسة الحاخامات في ١١ أكتوبر ١٩٣٩م، غير أن هذه التعليمات لم ترض اليهود؛ لأنهم كانوا يحاولون الحصول على مزيد من الحقوق عند الحائط، ولم ترض العرب الذين كانت بعض هيئاتهم مثل جمعية حراس الأماكن المقدسة ترفض قبول المبادئ المقررة في الكتاب، والتي تقول: إن للطائفة اليهودية حق التوجه إلى الحائط في جميع الأوقات لإقامة الشعائر.

ونتيجة للضغوط اليهودية أصدرت الحكومة البريطانية بيانًا جديدًا في أكتوبر ١٩٣٩م يتضمن تراجعًا عما جاء في كتابها الأبيض، لكن تهديد العرب بالإضراب العام جعل الحكومة تجمد الوضع على ما هو عليه؛ حتى يعاد تنظيم قوة الشرطة، ويتم حماية المستعمرات اليهودية المكشوفة.

وفي ١٣ سبتمبر ١٩٢٩م عين وزير المستعمرات البريطانية لجنة عرفت باسم "لجنة شوا"؛ للتحقيق في الأسباب المباشرة للانتفاضة، ووضع التدابير لمنع تكرارها، وكان من توصيات تلك اللجنة: اقتراح على عصبة الأمم بتشكيل لجنة لتحديد الحقوق والادعاءات بشأن الحائط، ووافق مجلس عصبة الأمم على تشكيلها، وهي لجنة دولية محايدة على أعلى مستوى قضائي وتحكيمي، وبعد أكثر من خمسة أشهر من بدء جلسات اللجنة الدولية في القدس، وبعد أن استمعت إلى ممثلي العرب واليهود، واطلعت على كل الوثائق التي تقدم بها الطرفان، وزارت كل الأماكن المقدسة في فلسطين، عقدت اللجنة جلستها الختامية في باريس من ٢٨ نوفمبر إلى ١ ديسمبر ١٩٣٠م، حيث انتهت اللجنة إلى قرارها الذي استهلته بالفقرة التالية: "للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه؛ لكونه يؤلف جزءًا لا يتجزأ من مساحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضًا تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط، وأمام المنطقة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط؛ لكونه موقوفًا حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير".

إن أدوات العبادة وغيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط، لا يجوز بحال من الأحوال السماح بها أو أن يكون من شأنها إنشاء أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له.

ومن قرارات اللجنة: "منع جلب المقاعد، والحُصْر، والكراسي، والستائر، والحواجز، والخيام، وعدم السماح لليهود بنفخ البوق قرب الحائط".

وقد وضعت أحكام هذا الأمر موضع التنفيذ اعتبارًا من ٨ يونيو ١٩٣١م، وأصدرت الحكومة البريطانية كتابًا أبيض عن الموضوع اعترف بملكية المسلمين للمكان وتصرفهم فيه.

وقد حمل كل من الحُكم الدولي والكتاب الأبيض اليهود على التزام حدودهم، ولم يلبث أن خَفَتَ صوت اليهود ظاهريًّا إزاء مشكلة الحائط. وعلى كلٍّ، فقد كانت قضية النزاع حول الحائط مقدمة للنزاع الكبير على ملكية فلسطين؛ إذ إن اليهود يطالبون بهذه البلاد لتجديد مملكتهم القديمة فيها، ويبنون حقوقهم في مشروع الوطن القومي على هذه الحجة، وهذا الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف هو في اعتقادهم جزء

من هيكل سليمان الذي كان أقدس مكان بتلك المملكة.

فإذا كانوا قد خسروا دعواهم باعتبار أن الملكيات القديمة لا تلغي ملكية جديدة مشروعة مكتسبة بالحق، وبالطرق القانونية التي مر عليها مئات السنين؛ فلا شك في بطلان دعواهم استعادة امتلاك البلاد من الناحية القانونية.

وإذا كان هذا الحكم الدولي الصادر من لجنة محايدة شكلت على أعلى المستويات التحكيمية في العالم، فهو كافٍ من الناحية القانونية لأن نقول: إن الحائط الغربي للمسجد الأقصى هو حائط البراق، وليس حائط المبكى، وإنه مِلْك للمسلمين[1].

وفي هذا السياق يقول د. عادل حسن غنيم: لا أكتفي بهذا الحكم، بل أقدم عددًا من الشواهد والأدلة والقرائن على أن هذا الحائط هو حائط البراق، وليس حائط المبكى:

١. تذكر اللجنة الدولية في تقريرها أن الحجارة الضخمة الكبيرة الكائنة في أسفل الحائط، وعلى الأخص المداميك الستة المنحوتة يرجع عهدها حسب رأي أغلب علماء الآثار إلى زمن الهيكل الثاني الذي أعيد بناؤه، وأنه يعلوها ثلاثة مداميك من الحجارة غير المنحوتة يرجح أنها من بقايا العصر الروماني، ويعني ما ذكرته اللجنة ـ اعتمادًا على علماء الآثار ـ أنه ليس هناك في الحائط الغربي للحرم الشريف أي أثر من بقايا هيكل سليمان عليه السلام.

٢. يؤكد مَرْجِع أَثَرِيٌّ هامٌّ مؤلفه عالم أمريكي كبير ـ كان مدير الهيئة المدرسية الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس، ورئيسًا لعدة بعثات أثرية، وعضوًا في عدة أكاديميات عالمية ـ أن أبنية هيرودوس في أورشليم قد مَحَتْ محوًا تامًّا كل أثر للمباني السابقة لها، لدرجة لم يستطع معها الأثريون العثور على معالم مؤكدة من هيكل سليمان عليه السلام.

ويضيف هذا العالم الأمريكي أنه من المؤكد أن هيكل سليمان عليه السلام لم يصمم ليكون مركزًا لحج حشود من الناس، وأنه لم يكن هناك داعٍ في عهد سليمان عليه السلام لإقامة مبنى ضخم كما هو الحال في عهد هيرودوس، حيث إن بنَّائي هيرودوس قد نزلوا حتى الصخر الطبيعي؛ ليكون لهم الأساس الذي يتحمل ثقلًا جبَّارًا.

ولعل هذا يفسر لنا أنه رغم قيام سلطات الاحتلال منذ عام ١٩٦٧م بالحفر في مناطق مختلفة أسفل ساحة الحرم ومساجدها واستمروا في الحفر حتى الآن، لم يجدوا أية إشارة واضحة إلى وجود أساسات لهيكل سليمان.

٣. إن اليهود لم يدَّعوا أمام اللجنة الدولية ملكية الحائط، ولا ملكية الرصيف الكائن أمامه، لكن اللجنة هي التي رأت أن من واجبها التحقيق في مسألة الملكية قانونًا.

إن كل ما طالب به ممثلو اليهود أمام اللجنة هو الاعتراف بحقهم في الدعاء أمام الحائط، وحقهم في السلوك إليه وفقًا لطقوسهم وشعائرهم الدينية دون مداخلة أو ممانعة، وأن يكون من حق رئاستهم الدينية في فلسطين وضع أية أنظمة ضرورية للقيام بهذه

---

١. انظر: حائط البراق وليس حائط المبكى، د. عادل حسن غنيم، مجلة رؤية، السلطة الفلسطينية، د. ت.

التضرعات والصلوات.

٤. بمراجعة وثيقتين أساسيتين معاصرتين عن الحركة الصهيونية لم أجد كلمة واحدة عن حائط المبكى؛ الأولى: هي كتاب "الدولة اليهودية" لتيودور هرتزل الذي يتحدث فيه بالتفصيل عن الدولة اليهودية المرتقبة، والثانية: نص يتعلق بفلسطين والصهيونية في تقرير لجنة كنج كرين الأمريكية المؤرخ في ٢٨ أغسطس ١٩١٩م، وهي اللجنة التي أرسلتها الحكومة الأمريكية للتعرف على حقائق تدور في المشرق العربي قبل اتخاذ قرار بشأن مستقبل المنطقة، وقد استمعت اللجنة لمطالب المسلمين واليهود؛ حيث تحدث اليهود بشكل مفصل عن برنامجهم الصهيوني.

فإذا كان الصهاينة لم يتحدثوا في أي من الوثيقتين عن حائط المبكى أو يطالبوا بملكيته، فكيف نسمح لأنفسنا بترديد عبارة لم يذكروها في وثائقهم؟ ولو كان الأمر أساسيًّا بالنسبة لهم ما فاتتهم الإشارة إلى هذا الحائط ضمن خططهم وبرامجهم.

٥. في محاولة من د. عادل حسن غنيم لتقصي الأمر، ومحاولة العثور على شواهد وأدلة تساعدنا على الوصول للحقيقة، قام بمناقشة أستاذين كبيرين من أساتذة اللغة العبرية وهما: د. رشاد الشامي، د. إبراهيم البحراوي حول استخدام عبارة "حائط المبكى" في المراجع العبرية، فأكدا أن اليهود لا يستخدمون في مراجعهم هذه العبارة، وإنما يستخدمون عبارة "الحائط الغربي" - هاكونيل همعرافي - باعتبارها أكثر دلالة على حائط المبكى؛ لأنها تعني بالنسبة لهم أن جزءًا من الحائط هو بقايا هيكلهم، واهتمامًا منهما ببحث الموضوع تمَّ الرجوع إلى الموسوعة العبرية الموجودة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس، حيث تبين أن الموسوعة تشير أيضًا إلى "الحائط الغربي" ولم تشر إلى عبارة "حائط المبكى"، وأضافت الموسوعة أنه بمرور السنين استخدم اليهود ذلك الجزء من السور مكانًا للصلاة، وأصبح مقدسًا في وعي الأمة كمكان للتوحد الديني مع ذكر مجد إسرائيل من جهة، وذكرى خراب الهيكل من ناحية أخرى، وبالرجوع إلى القاموس العربي العبري الذي أصدرته وزارة الدفاع الإسرائيلية عام ١٩٧٧م، ط٥، تبين أنه كُتب أمام العبارة العبرية "كوتيل هدماعوت" عبارة: "حائط الدموع" باللغة العربية، ولم يستخدم القاموس عبارة "حائط المبكى".

فإذا كانت اللجنة الدولية قد أصدرت حكمًا بملكية المسلمين للحائط. وإذا كان معظم علماء الآثار قد أكدوا أنه ليس في الحائط الغربي للحرم الشريف أي آثار أو حجارة من بقايا هيكل سليمان، وإذا كان اليهود لم يدَّعوا أمام اللجنة الدولية ملكيتهم للحائط، وإذا كانت بعض الوثائق الأمريكية واليهودية المهمة لم تشر بكلمة واحدة إلى حائط المبكى، وإذا كان أساتذة العبريات يؤكدون أن اليهود لا يستخدمون في مراجعهم المعاصرة "حائط المبكى"، بل يسمونه الحائط الغربي؛ فمن أين أتى الإعلام الغربي بعبارة "حائط المبكى"؟!

إن هذه العبارة لم نجد استخدامًا لها إلا في عام ١٩٢٩م، قبل انتفاضة البراق وخلالها بواسطة البيانات التي كانت تذيعها لجنة الدفاع اليهودية عن المبكى، ثم توقف استخدام تلك العبارة بعد انتهاء انتفاضة البراق، وصدر حكم اللجنة الدولية بملكية

المسلمين للحائط، ولم أجد استخدامًا لهذه الكلمة منذ انتفاضة البراق حتى الهزيمة العربية عام ١٩٦٧م، حيث شاع منذ ذلك الحين استخدام هذه العبارة حتى الآن، فما مصدر هذا الاستخدام؟

يُعتقد أن مُخطِّطي الإعلام الغربي والصهيوني قد نجحوا في إدخال مثل هذه العبارات في عقولنا وألسنتنا عن طريق ما ترسله وكالات الأنباء من أخبار وصور، كما أن استخدام هذه العبارات على لسان بعض الكتاب العرب، الذين زاروا القدس والحائط منذ أواخر السبعينات قد ساعد على إشاعة هذه العبارة بين فصائل الرأي العام العربي. وإذا كان من حق اليهود أن يطلقوا على الحائط ما يشاءون من أسماء، وأن يذرفوا ما يشاءون من دموع، أليس من حق العرب والمسلمين أن يطلقوا على الحائط عبارة حائط البراق؟! وهي التسمية التي يؤيدها التاريخ، والتراث، والقانون الدولي.

وإذا كان الصهاينة والإعلام الغربي ــ الذي يساندهم ـ قد نجحا في نقل مصطلحاتها إلى عقل المواطن العربي، ألا يجعلنا ذلك نزداد تتبعًا ووعيًا وإدراكًا لما يحيط بنا من تحديات؟!

إن القضية ليست مجرد شكليات أو ألفاظ عابرة، لكنها أعمق من ذلك بكثير؛ لأن اهتمام اليهود بهذا الحائط ليس سوى ذريعة لتدعيم مزاعمهم، فهم يتخذونه غطاءً دينيًّا لاغتصاب القدس العربية الإسلامية، ومبررًا لاستثارة مشاعر اليهود وعواطفهم[1].

الخلاصة:

- لا وجود لما يسمى بحائط المبكى في كتب اليهود المقدسة، ولا في كتبهم التاريخية وتراثهم، ولا حتى في مراجعهم المعاصرة.
- لم يبق لهيكل سليمان عليه السلام الذي يزعمون أن حائط المبكى جزء منه وجود ولا أثر، بعد أن هدم أربع مرات آخرها عام ٧٠م.
- أثبتت المصادر والوثائق اليهودية والأمريكية عدم وجود أي أثر لهيكل سليمان عليه السلام، وبالتالي لما يسمى بحائط المبكى.
- قضت المحكمة الدولية التي شكلتها عصبة الأمم بملكية المسلمين لحائط البراق وما حوله، وما جاوره من أوقاف.
- لم يدَّع اليهود أنفسهم وهم يقدمون دعواهم لهذه اللجنة ملكية هذا الحائط، وإنما طالبوا بتمكينهم من إقامة طقوسهم عنده.
- الحائط الغربي الذي يضم حائط البراق وليس حائط المبكى جُدِّد على يد سليمان القانوني العثماني، ومنذ العهد العثماني سُمِحَ لليهود بأداء بعض شعائرهم عند الحائط الغربي.
- بدأت فكرة حائط المبكى والبكاء عنده منذ انتفاضة البراق عام ١٩٢٩م، واختفت عقب صدور حكم اللجنة الدولية بملكية المسلمين له، وتقرير اللجنة الأمريكية، ومرسوم ملكي بريطاني بذلك، وجُدِّدت هذه الصيحة بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧م.
- نجاح الإعلام الغربي في نقل المصطلحات

١. المرجع السابق.

الصهيونية واليهودية إلى المواطن العربي، والسيطرة على ثقافته الإعلامية عن قضية الحائط، ومن هنا يجب علينا التمسك بتراثنا المقدس، ومصطلحاتنا العربية والإسلامية.

الشبهة الرابعة والسبعون

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر قصة وفاة سليمان عليه السلام (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين خطأ القرآن في ذكر قصة وفاة سليمان عليه السلام، ويتساءلون: كيف يموت سليمان الملك ولا يعلم أحد من رعيته - أو حتى نسائه - لمدة سنة، وهو قائم على عصاه دون صلاة أو طعام أو نوم؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن لم يحدد مدة مَكْث سليمان عليه السلام ميتًا، بل هي نُقول المفسرين عن أهل الكتاب.

٢) صحة هذه الروايات أو عدم صحتها أمر لا علاقة للقرآن به، وجلُّ هذه الروايات منقول عن أهل الكتاب والمشكوك في صحتها.

التفصيل:

أولا. القرآن لم يحدد مدة مكث سليمان ميتًا، بل هي نقول المفسرين عن أهل الكتاب:

عرض القرآن الكريم قصة سليمان عليه السلام في أكثر من موضع، بَيْد أنه في عرضه للقصة لم يذكر تفاصيل قصة الوفاة، فقط أشار إلى أشياء فيها؛ حيث قال الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤) ﴾ (سبأ). فلم يذكر في الآية القرآنية مدة مكث سليمان ميتًا متكئًا على عصاه، وكل ما ورد في هذا الشأن إنما هي نقول للمفسرين استندوا فيها إلى الإسرائيليات وأخبار أهل الكتاب، دون التثبت من صحتها.

والآية الكريمة تكتفي بالحديث عن عدم علم الجن الغيب؛ بدليل أنهم مكثوا في العمل الشاق: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وهم لا يدرون أن سليمان عليه السلام قد مات لولا رؤيتهم دابة الأرض قد أكلت العصا، وتكتفي الآية بذلك دون تحديد تفاصيل عن المدة التي مكثها وهو ميت.

وقد استبعد الشيخ عبد الوهاب النجار هذه الأقوال، ورجَّح أن يكون سليمان عليه السلام قد مات ميتة معتادة، وأن الجن قد وجدوا عصاه قد أكلتها الأَرَضَة، فعرفوا من خلال ذلك أنه قد مات. وعليه فأنت تجد أن هذه الأقوال التي دفعت المشككين إلى الاعتراض على القرآن الكريم، ليست حجة على القرآن الكريم. فالمقصود والظاهر من الآية الكريمة هو تكذيب دعوى الجن التي كانوا يدعونها للناس من أنهم يعلمون الغيب.

ويعلق الصابوني على الآية قائلًا: "وهنا إشارة لطيفة، وهي أن الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب، فلما مات سليمان ولم يعلموا بموته، وهم في

(*) موقع الكلمة

أعمالهم الشاقة التي كلفهم بها سليمان؛ اتضح الأمر بكذب دعواهم"[١].

ثانيًا. صحة هذه الروايات أو عدم صحتها أمر لا علاقة للقرآن به:

ذكرنا أن القرآن لم يتعرض للتفاصيل الواردة في قصة وفاة سليمان عليه السلام، وإنما كان مقصوده التنبيه على عدم معرفة الجن للغيب وكشف كذبهم للناس، ولكن هل هذه الروايات تستساغ عقلًا أو لا؟

يستبعد بعض المفسرين أن يمكث سليمان ميتًا متكئًا على عصاه سنة كاملة قائلًا: إنه من غير المعقول أن يمكث مدة طويلة تمر فيها الأعياد ولا يقوم بالطقوس الدينية، كما أنه من غير المعقول أن يمكث هذه المدة الطويلة ولا يعلم أحد به، خاصة أنه كان ملكًا، فعليه مسئولية إقامة العدل بين الناس، ومقابلة الوفود من الملوك، ومطالعة العرفاء والرؤساء في مشكلاتهم[٢].

في حين يرى بعضهم أنه لا مانع من أن يموت سليمان عليه السلام ويظل متكئًا على عصاه سنة كاملة على هيئة المصلي، والجن تعمل بين يديه خوفًا منه؛ لأن القرآن قال: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤)، فلا بد أنهم مكثوا في العذاب مدة طويلة، ويرون أنه لا مانع من أن تمر الأعياد والطقوس الدينية وتأتي سليمان زوجته في العيد فتراه واقفًا على عصاه بهيئة المصلي فترجع، ولم لا يجوز أن تكون عادة سليمان أن يتعبد وحده عبادة خاصة به، وفي حال قيامه بها لا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يقرب من مكانه؟ وكذلك ما المانع أن يكون له عرفاء ورؤساء ينوبون عنه في مقابلة الوفود، وفي أداء هذه المهمات، وأن يكون هناك قضاة من قبله يفصلون في الخصومات كما هو الحاصل اليوم[٣].

وبالنظر إلى وجهتي النظر يتضح لنا أن الوجه الأول هو المقبول، والذي يرجحه العقل والمنطق؛ إذ إنه يتطابق مع الهدف الأساسي من الآية، وهو تكذيب دعوى الجن التي كانوا يدعونها للناس من حيث إنهم يعلمون الغيب، وما حدث من موت سليمان عليه السلام بالكيفية التي وقع عليها حسبما أراد الله، وعدم معرفتهم بذلك ـ خير دليل على كذب دعواهم.

الخلاصة:

- القرآن الكريم لم يحدد مدة مكث سليمان عليه السلام ميتًا، والروايات التي تحدد مدة موته عليه السلام ـ سواء قبلها البعض أم لم يقبلها ـ ليست حجة على القرآن الكريم.
- ما ذهب إليه بعض المفسرين من كلام أهل الكتاب تحريف بيِّن، لكن القرآن الكريم صريح في

---

١. انظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٩٩: ٤١٤. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ، ص٣٩٥، ٣٩٦.

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤١١.

٣. المرجع السابق، ص٤٠١: ٤٠٨. وانظر: موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص١٠٦١ وما بعدها.

الإتيان بها يوافق العقل والمنطق.

الشبهة الخامسة والسبعون

ادِّعاء أن العُزَيْر عليه السلام ابن الله(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن العزير ابن الله، مستدلين على ادعائهم هذا بأنه كَتَبَ التوراة بعد ضياعها من صدور اليهود؛ ولذلك قالت اليهود: والله ما أوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن اتخاذ الولد من قبل البشر للضعف المستحكم فيهم، فهم يتخذون الولد لإيجاد المعين، وتخليد الذكر بعد الوفاة، وإلى غير ذلك من الأسباب، والله عز وجل مستغن عن كل هذه الأسباب.

٢) إن أدلة النقل والعقل تنفي عن الله عز وجل اتخاذ الولد، وتثبت أنه محض افتراء.

التفصيل:

أولا. اتخاذ الأولاد يكون له أسباب، وليس هناك سبب لأن يتخذ الله ولدًا:

إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى وكمال عظمته، ذلك أن متخذ الولد ضعيف يحتاج إلى معين، وقد تعددت الأسباب التي من أجلها اتخذ الإنسان الولد، وحُصرت فيما يأتي:

- أنه يريد أن يُبْقي ذكره في الدنيا بعد أن يرحل، والله تعالى هو الحي الذي لا يموت.
- أنه يريد إعانة ابنه له عندما يكبر ويضعف، والله تعالى هو القوي.
- أنه يريد أن يرث ماله وما يملك، والله تعالى يرث الأرض ومن عليها.
- أنه يريد أن تكون له عزة ومنعة باستكثار الولد، والله عز وجل عزيز بلا ولد ولا عشيرة.

وكما هو ملاحظ فإن هذه الأسباب تتلبس بالضعيف المفتقر إليها، لا القوي الغني عنها، إذ كيف يستقيم القول عقلًا بأن الله عز وجل المنزَّه عن كل نقص يتخذ ولدًا، واتخاذُ الولد نقصٌ يطعن في كمال ألوهيته وربوبيته؟! وهذه آية جلية تدل على أن هذه العقيدة عقيدة باطلة افتراها قلب غير سليم، أنزل الإله من مقام الألوهية إلى مقام البشرية، ثم كيف لرسول معصوم موحى إليه أن ينقل عن ربه كلامًا ينتقص من كمال صفاته؟! تعالى الله عما يقولون [1].

ثانيًا. الأدلة النقلية والعقلية تنفي بنوة العزير عليه السلام لله عز وجل:

١. الأدلة النقلية:

لقد رد الله عز وجل على اليهود زعمهم حيث يقول: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ

(*) العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مرجع سابق.

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٣٩٦ بتصرف.

﴿اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ (التوبة)، أي يشابهون في قولهم: "إن عزيرًا ابن الله" قول الأمم الوثنية القديمة التي كانت تقول بتعدد الآلهة، وهو محض زعم لا دليل عليه، بل هو تقليد أعمى، وحقد دفين من قبل اليهود لرب العزة، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (الإخلاص)، وهي سورة صريحة في نفي الولد، والوالد، والصاحبة عن الله ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ (مريم)، وقال الله ﷻ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ (المؤمنون).

إن هذه الآيات وغيرها تضافرت لتأكيد حقيقة نفي الولد عن الله ﷻ، فآية البقرة السالفة تنزهه ﷻ عن ذلك وتستشكل حصوله، ولسان مقالها وحالها، كيف يتخذ الولد؟! وقد ملك السماوات والأرض وما فيهما. وكأنها تشير إلى سبب رئيسي في اتخاذ الولد، وهو ابتغاء المعين والمساعد، والله منزَّه عن ذلك؛ لأنه أغنى الأغنياء، وفي آية سورة مريم نلحظ أن القرآن الكريم قد تدرج في ذكر الأدلة الداحضة، فالسماوات تمور، والأرض تتصدع، والجبال تندك؛ لهول هذا الادعاء وشدته، وهي آية كونية عظيمة تفيد أن الكون برُمَّته عبد ذليل لله ﷻ، وقد أحصاهم الله تعالى على كثرتهم - كما تؤكد الآية - وسيبعثهم يوم القيامة فرادى. ويستمر القرآن في عرض أدلته الداحضة في آية سورة المؤمنين، وهي تشتمل على دليل أقوى من سابقيه، ذلك أن الله ﷻ خاطب العقلاء ممن يتخذون لله الولد بما مُفاده أنه لو اتخذ الولد - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - لطمحت نفس الولد إلى الألوهية وزاحمته عليها، أو شاركته فيها، والمشاركة مظنة التنازع والتنافس والخصام لبغى أحد الشريكين على الآخر، ولو أجزنا لله ذلك - وحاشاه تعالى - لفسد الكون، وضاعت مصالح العباد، وتبدّدت الحكمة التي من أجلها خلق الله الناس في الأرض واستعمرهم فيها، ألا وهي العبادة.

٢. الأدلة العقلية:

- **الشبهة تتنافى مع العقل والمنطق السليمين:**

السبب الذي جعل اليهود يزعمون أن عزيرًا ابن الله، هو أن عزيرًا قد كتب التوراة بعد ضياعها من صدور اليهود؛ ولذلك قالت اليهود: والله ما أوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا؛ فالله ﷻ ليس بحاجة إلى أحد من خلقه حتى

يتخذ له ولدًا، فالذي يبحث عن الولد ويتخذه لا بد أن يكون نتيجة شعوره بالحاجة، وحاجته بالفعل تتمثل في حاجته للوقوف بجانبه عند كبره، وحاجته لإبقاء ذكره من بعده.. وما إلى غير ذلك من صنوف الحاجات البشرية، لكن الغني مطلقًا ما حاجته إلى الولد؟

والذي يتخذ له ولدًا من الطبيعي أن يكون بينه وبين ولده تجانس وتشابه، فإذا كان الوالد إنسانًا كان الولد كذلك، وإذا كان الوالد حيوانًا كان الولد كذلك، وهكذا لو صح كلامهم لكان عزير إلهًا! ولو سلمنا بذلك الزعم، فهل يصح أن يكون للكون إلهان؟!

إن هذا ما لم يكن ولن يكون، إن ما في الكون من سنن ثابتة، وقوانين مطردة، ونظام محكم يدل على وحدانية الإله الخالق لهذا الكون؛ لأنه لو اشترك في الخلق أكثر من إله لفسد الوجود؛ لأن من شأن الإله أن يكون تام العلم، نافذ الأمر،مطلق الإرادة، كامل القدرة؛ فإذا كان كل واحد منهما متصفًا بهذه الصفات فلا بد أن تظهر آثارها في الوجود، وعندئذٍ يقع التنازع والاختلاف الذي يؤدي إلى الفساد، ويتفق هذا مع ما استقر في فطرة البشر من أن تعدد الرئاسة للشيء الواحد يؤدي إلى تضارب الآراء واختلاف الأهواء، فإذا كان هذا من صفات البشر الذين يتصور انقياد بعضهم لبعض، فكيف يكون الأمر بالنسبة للألوهية التي تقتضي الكبرياء والعلو والهيمنة والعظمة؟

وهكذا نجد أن التعدد يؤدي إلى الفساد، ولما كان الكون بريئًا من الاختلاف منزَّهًا عن الفساد، فإن ذلك دليل على وحدة خالقه وصانعه، وهو الله ﷻ، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(الأنبياء)، وإذا كانت النتائج الملموسة في الواقع تصدِّق صحة الفرض، كان ذلك دليلًا على أن الفرض صحيح، أما إذا كانت نتائجه فاسدة فإن ذلك يكون دليلًا على فساد الفرض، وتسمى هذه الطريقة في المنطق بطريقة التفنيد، وقد بَيَّنَ القرآن أن افتراض تعدد الآلهة يؤدي إلى فساد الوجود، لكن الوجود غير فاسد، إذن فهذا الافتراض فاسد، والقول بوحدانية الإله هو الصحيح؛ ويسمى الدليل الذي استخلصه المتكلمون من الآية الأولى هنا دليل التمانع.. ومما قالوه في هذا الدليل: إننا إذا افترضنا وجود إلهين، وأراد أحدهما شيئًا فإما أن يستطيع الآخر إرادة ضده أولا يستطيع، وكلا الأمرين محال، لما يترتب عليهما؛ لأنه إذا أراد أحدهما حركة شيء وأراد الثاني سكونه، فإما أن يقع الأمران معًا، وهذا غير ممكن؛ لأن الشيء لا يكون متحركًا ساكنًا في وقت واحد باعتبار واحد، وإما أن يتخلف الأمران معًا فيكون الشيء لا ساكنًا ولا متحركًا وهذا باطل أيضًا؛ لأن الشيء لا بد أن يوصف بواحد منهما فيكون متحركًا أو ساكنًا، فيلزم وصف الإلهين - على هذا الفرض - بالعجز؛ لعدم نفاذ إرادتهما، فإذا تحقق مراد أحدهما دون الآخر، فالذي تحقق مراده يكون هو الإله، أما العاجز فلا يوصف بالألوهية.

- **التوحيد والفطرة الإنسانية:**

أوضح القرآن أن الإيمان بإله واحد هو الذي يستقيم مع الفطرة الإنسانية؛ لأن مثل هذا الاعتقاد

يؤدي إلى استقامة الشعور، ووحدة الاتجاه، ووحدة الولاء؛ لأن صاحب هذه العقيدة يرجع الأمر كله لله: خلقًا، ورزقًا، وإحياءً، وإماتةً، وتصريفًا، وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، ورفعًا وخفضًا، فإذا آمن الإنسان بهذا إيمانًا راسخًا ثابتًا في القلب والضمير، فإنه لن يتوجه بقلبه ومشاعره وعبادته إلا لهذا الإله وحده، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، لا يتوكل إلا عليه ولا يلجأ إلا إليه، ولا يطلب حوائجه إلا منه، تقرُّ عينه بعبادته، ويهفو قلبه إلى قربه ومحبته، يصبر على بلائه، ويرضى بقضائه، يشكو إليه ضره، ويرجو منه خيره، فيزداد لله شكرًا وطاعةً وقربًا، فإذا كان المؤمن ـ على هذا الحال ـ استقامت نفسه، واطمأن قلبه وتوحدت مشاعره، وتحددت قبلته: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ (هود)، وأيقن أن لا إله للكون إلا إله واحد.

وعلى هذا فلا نستطيع أن نصف عزيرًا بأنه "ابن الله" لدليل واهٍ لم يثبت أمام الأدلة النقلية والعقلية التي أوردناها، فضلًا عن أن اليهود لهم هوًى في إسباغ خِصال البشرية على الذات الإلهية، والمطلع على التوراة يقف على صحة هذا الكلام.

الخلاصة:

- لقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على استحالة أن يكون لله ﷻ شريك أو ولد، وهو ليس بحاجة إلى أحد من خلقه حتى يتخذ ولدًا، فالذي يبحث عن الولد ويتخذه لا بد أن يكون هذا نتيجةً لشعوره بالحاجة، ولكن الغَنِيّ غِنًى مطلقًا لا يحتاج أحدًا؟!
- ثم إن الكون ليس له إلا إله واحد وهو الله رب العالمين، ولو كان ما يقولونه صحيحًا لثبت أن يكون عزير أيضًا إلهًا، وهذا ما لا يستقيم عقلًا: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء).
- إن اليهود لهم هوى في إنزال الإله من مقامه العظيم إلى مقام البشرية الناقص، فهم لا يتركون أية مناسبة لإلصاق وصف الألوهية بعظمائهم بدون بينة.

الشبهة السادسة والسبعون

ادِّعاء خطأ القرآن في ذكر أسماء لا وجود لها؛ مثل: عزير (*)

مضمون الشبهة:

يُنكر بعض المتوهمين وجود رجل يُدْعَى "عزير"؛ لعدم وروده في الكتاب المقدس، ويدَّعون أن القرآن أخطأ في قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣٠).

وجها إبطال الشبهة:

١) إن كلمة "عزير" الواردة في القرآن وردت في الكتاب المقدس بلفظ "عزرا" دون تصغير في سفر كامل، ومن ثم فلا وجه لوصم القرآن بالخطأ.

٢) الأحداث التاريخية وشهادات المؤرخين يثبتان وجود "عزير" أو "عِزْرَا"، واليهود يُقدِّسونه ويطلقون عليه لقب "ابن الله".

(*) قناة الحياة الفضائية، زكريا بطرس، برنامج "أسئلة الإيمان"، الحلقة ٨٢.

التفصيل:

أولا. كلمة "عزير" الواردة في القرآن وردت في الكتاب المقدس بلفظ "عزرا" في سفر كامل:

إن الذي سماه القرآن الكريم "عزيرًا"، والذي قال في حقه اليهود - كما حكى الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(التوبة) هو الذي يسميه أهل الكتاب "عزرا"، وله سفر في العهد القديم باسمه، وهو مكون من عشرة إصحاحات، والظاهر أن يهود العرب صغَّروه بالصيغة العربية للتحبيب، وصرفوه، واستخدم القرآن هذه الصيغة؛ والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى - معروف عند جميع الأمم[1].

يقول الطاهر ابن عاشور: وعزير: اسم حَبْر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية عِزرا - بكسر العين المهملة - بن سرايا من سِبْط اللاويين، كان حافظًا للتوراة، وقد تفضل عليه كورش ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل.. فأعاد شريعة التوراة من حفظه، فكان اليهود يعظمونه إلى حد أن ادَّعى عامتهم أن عزرا ابن الله غلوًّا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم عامتهم، وأحسب أن الداعي لهم إلى هذا القول أن لا يكونوا أخلياء من نسبة أحد عظمائهم إلى بنوة الله تعالى... كما قال متقدموهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)[2].

ثانيًا. الأحداث التاريخية وشهادات المؤرخين يثبتان وجود عزرا:

ذكر الشيخ سيد قطب أن الشيخ رشيد رضا قد أورد في الجزء العاشر من "تفسير المنار" أخبارًا مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود، وعلَّق عليها كذلك تعليقًا مفيدًا ننقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالًا. قال: جاء في "دائرة المعارف اليهودية" أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ المِلِّي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره، وعَبَق شذا وَرْده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة لو لم يكن جاء بها موسى فقد كانت نُسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحياها، ولولا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات - المعجزات - كما رأوها في عهد موسى.. وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الآشورية - وكان يضع علامة على الكلمات التي يشك فيها - وأن مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده.

وقال د. جورج بوست في "قاموس الكتاب المقدس": عزرا - عون - كاهن يهودي، وكاتب شهير سكن بابل مدة ارتحستا الطويل الباع؛ وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عددًا وافرًا من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق. م، وكانت مدة السفر أربعة أشهر، وفي تقليد اليهود يشغل عزرا

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج١٠، ص٢٨٣.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج٦، ج١٠، ص١٦٨.

موضعًا يقابل بموضع موسى وإيليا؛ ويقولون: إنه أسَّس المجمع الكبير، وإنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضًا عن العبرانية القديمة، وأنه ألف أسفار " الأيام" و " عزرا" و"نحميا".

ويُعلِّق الشيخ سيد قطب فيقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم - حتى أهل الكتاب منهم - أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام؛ فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كُتبت فيهما الوصايا العشر[1]، كما تراه في سفر الملوك الأول، وأن عزرا هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها.

ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله.. وهذا ما لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن، حتى من تآليفهم، كـ "ذخيرة الألباب" للكاثوليك، وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى. ومنها قوله: جاء في سفر عزرا - ٤ف ١٤ عدد ٢١ - أن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد نبوخذ نصر، حيث قال: "إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ما صنعت!"[2] ويزيد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، وعضده فيها كتبة خمسة معاصرون، هم القديس ثرثوليانوس، والقديس إيريناوس، والقديس إبرونيموس، والقديس يوحنا الذهبي، والقديس باسيليوس، وغيرهم يدعون عزرا: مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود.

نكتفي بهذا البيان هنا، ولنا فيه غرضان:

أحدهما: أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم.

وثانيهما: أن هذا المستند واهي البنيان متداعي الأركان. وهذا هو الذي حققه علماء أوربا.

فقد جاء في ترجمة عزرا من "دائرة المعارف البريطانية" بعد ذكر ما في سفره، وسفر نحميا من كتابته للشريعة: أنه جاء في روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت قد أتلفت، وأعاد سبعين سفرًا غير قانونية، ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقًا.

وجملة القول: أن اليهود كانوا - وما يزالون - يقدسون عزيرًا هذا، حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب

١. جاء في القرآن الكريم عن هذه الواقعة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

٢. ونحن نقول: إن قول القرآن أصدق، وقد قرر أنه كان هناك بقية.

"ابن الله"، ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بمعنى قريب من فلسفة وَثَنِيِّي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى؟! وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم[1] [2].

الخلاصة:

- ليس هناك خطأ في القرآن كما يدعي بعض المغرضين؛ فالذي سمّاه القرآن الكريم "عُزَيرًا"، هو الذي يسميه أهل الكتاب "عِزْرا"، وهذا أمر طبيعي؛ لاختلاف اللغات واللهجات.
- أسفار التوراة وما نسب إلى عزرا تثبت وجود هذا الرجل، وكذلك تثبت الشهادات التاريخية من قبل المؤرخين اليهود والنصارى وجوده.
- إن بعض اليهود ما زالوا يُقدِّسون عزيرًا، ويطلقون عليه لقب "ابن الله"، فلماذا ينكرون هذه التسمية إذن، ولا سيما أن له في كتابهم المقدس سفرًا باسمه ؟!

---

١. ونحن نرى أنه لا مجال لهذا التردد، فإن النص القرآني يلهم أن قول اليهود: "عزير ابن الله" هو كقول النصارى: "المسيح ابن الله"، كلاهما مقصود به ما يضاهي قول الذين كفروا من قبل! فهو من إسناد البنوة التي تخرج قائلها من دين الحق، وتلحقه بالكافرين والمشركين.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٦٣٦، ١٦٣٧ بتصرف.

الشبهة السابعة والسبعون

ادِّعاء خلط القرآن بين هاجر أم إسماعيل، ومريم أم عيسى (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم خلط بين هاجر أمِّ إسماعيل، ومريم أم عيسى، ويستدلون على دعواهم بقوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ (مريم)، فيزعمون أن هاجر هَرَبت إلى البَرِّيَّة بإسماعيل، ولما عطشت هيَّأ الله لها عين ماء فشربت منها، أمَّا مريم العذراء فلم تهرب إلى برية، ولا احتاجت إلى الماء، ولا كانت تحت نخلة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس في القرآن خلط بين هاجر أم إسماعيل ومريم أم عيسى، إنما الخلط في عقول هؤلاء المدَّعين وأفهامهم المنحرفة.

٢) كان خروج هاجر وولدها بأمر من الله ﷻ لإبراهيم ﷺ بأخذهما إلى تلك الأرض، ليُعَمِّر بهما ذلك الوادي.

٣) هناك العديد من أوجه الاختلاف بين قصة خروج هاجر ومريم، التي تنفي وقوع خلطٍ أو تشابه، يؤدي إلى الخلط بين القصتين.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islamiyat.com

التفصيل:

أولا. ليس في القرآن خلطٌ بين هاجر أم إسماعيل ومريم أم عيسى عليهم السلام:

للمسيح عيسى عليه السلام ولأمه البتول مريم ابنة عمران مكانة سامية في قلوب المسلمين وفي كتابهم، يؤكد ذلك وجود سورة كاملة في القرآن الكريم باسم مريم، على حين لا تجد في الإنجيل سفرًا واحدًا باسمها.

إن القرآن الكريم تناول قصة المسيح عيسى عليه السلام وأمه في أكثر من موضع، تناول القرآن ميلاد أمه، وكفالة زكريا عليه السلام لها، كما تناول عبادتها في بيت المقدس، وتناول أيضًا قصة حملها بعيسى عليه السلام، وقصة وضعه، ومعجزاته، وعرض القرآن دعوته إلى التوحيد وعبوديته لله، كما أفرد أيضًا مشهد محاكمة المسيح عيسى عليه السلام وهو واقفٌ بين يدي الله يوم القيامة وعرضه بدقة، وتحدث القرآن عن نبوته، وعن موته عليه السلام، وتناول عقيدة النصارى فيه.

إن عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام وأمه ـ شأن سائر جوانب اعتقادهم ـ منضبطة ودقيقة، وخالية من التَّخبُّط والخلط، على عكس ما هو موجود عند غيرهم كالنصارى واليهود، ولم لا والقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الخاتم المهيمن، المصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، لايستطيع أحدٌ أن يشكك في حفظه ونقله ودقته، فلا يوجد فيه خطأ واحدٌ على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولم لا والله عز وجل حفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر)، ونفى أن يدخله أو يداخله باطل؛ فقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت: ٤٢)، وهو بذلك لا يقارن بكتاب سماوي آخر قد حُرِّف، وتدخلت فيه أيدي البشر؛ فالكتاب المقدس مثلًا بشهادة طائفة من علماء الغرب المنصفين يشمل على نحو خمسن ألف خطأ[1].

إن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبق من كتب، وهو الذي ارتضاه الله كتابًا خاتمًا تستنير منه وبه الأجيال المتتابعة من لدن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، ومن الغريب أن يأتي بعد ذلك جاهل متخبط ليقول: إن القرآن به خطأ وتخبط؛ لأنه ذكر أن مريم ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ (مريم)، وهي لم تخرج إلى الصحراء، ولم تلد تحت نخلة،ولم تأكل وتشرب؛ لأنها لم تكن في حاجة إلى الماء، وإننا سنلخص ردنا عليه بما يلي:

مريم قبل حملها بعيسى عليه السلام:

إن مريم جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وإن زوج أختها أو خالتها ـ نبي ذلك الزمان ـ زكريا عليه السلام كفلها، واتخذ لها محرابًا، وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحدٌ عليها سواه[2].

إذن كانت مريم تقطن بيت المقدس، فأين ولدت المسيح إذن؟ هل ولدته ببيت المقدس؟!

قصة ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت في سورة مريم:

يقول الطبري في تفسيره لقوله تبارك وتعالى:

١. انظر: مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة. الحوار دائمًا، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧٠.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٠ بتصرف.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ (مريم): فاعتزلت بالذي حملته - وهو عيسى - وتنحَّت به عن الناس مكانًا قصيًّا. يقول: مكانًا نائيًا قاصيًا عن الناس، يقال: هو بمكانٍ قاصٍ وقَصِيّ بمعنى واحد، كما قال الراجز:

لَتَقْعُدِنَّ مَقْعَدَ القَصِيِّ

مِنِّي ذِي القَاذُورَةِ المَقْلِيِّ

يقال منه: قصا المكان يقصو قصوًا، وإذا تباعد. وأقصيت الشيء: إذا أبعدته وأخرته[1].

وعن السدِّي قال: لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه فأتت أقصاه. وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣): ألجأها المخاض إلى جذع النخلة[2].

هذه هي قصة ميلاد المسيح كما رواها الإمام الطبري - رحمه الله - وجميع المفسرين من بعده، والعجيب أن أحدًا منهم لم يقل: إن هذه الآيات هي قصة هاجر أم إسماعيل وليست مريم أم عيسى!

قال الحافظ ابن كثير: "قال محمد بن اسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل - يعني مريم - فما دخل على أهل بيتٍ ما دخل على آل بيت زكريا. قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، وانتبذت مكانًا قصيًّا".

وقوله عز وجل: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾: فألجأها واضطرها الطَّلْق إلى جِذْع النخلة، وهو - بنصِّ الحديث الذي رواه النسائي بإسنادٍ لا بأس به عن أنس مرفوعًا، والبيهقي بإسناده عن شداد بن أوس مرفوعًا أيضًا - ببيت لحم[3].

هذا هو ابن إسحاق، وهو رأس علماء المسلمين في السيرة يروي قصة ميلاد المسيح عليه السلام كما رواها الإمام الطبري صاحب التفسير، والعجيب أنه لم يأت أحدٌ من علماء السيرة بقول جديد يخالف قول ابن إسحاق، أو يدعي أن هذه القصة ليست قصة ميلاد المسيح عليه السلام.

رواية العلماء عن أهل الكتاب لقصة ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

رُوِي عن الحَبْر الذي أسلم وَهْب بن مُنَبِّه - كان أحد أعلم الناس بأخبار أهل الكتاب في زمانه - أنه قال: لما حضر ولادها - يعني مريم - ووجدت ما تجد المرأة من الطلق خرجت من المدينة مغربة من إيلياء حتى تدركها الولادة إلى قرية من إيلياء على ستة أميال يُقال لها "بيت لحم"، فأجاءها المخاض إلى أصل نخلة إليها مِذْوَد بقرة[4] تحتها ربيعٌ من الماء فوضعته عندها[5].

سبب انتباذ مريم بالمسيح عيسى عليه السلام مكانًا قصيًّا:

وربما سأل سائلٌ فقال: إذا كان الانتباذ هو

---

١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٨، ص١٦٦، ١٦٧.

٢. المرجع السابق، ج١٨، ص١٦٨.

٣. انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٣٩٠.

٤. المِذْوَد: المكان الذي يُوضع فيه العَلَف للدابة.

٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ج١٨، ص١٧٠.

الاعتزال فلماذا انتبذت به الناس واعتزلتهم؟

يقول الإمام الزمخشري: لعل ذلك يرجع إلى ما لحقها من فرط الحياء والتستُّر من الناس على حكم العادة البشرية، ولا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها؛ إذ بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام؛ لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام، أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح، وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبًا يعاب به، ويعنف بسببه[(١)].

ويقول المراغي: إنما اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها، وهي من سلائل بيت النبوة؛ ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت ألا تراهم وألا يروها[(٢)].

المكان الذي ولدت فيه مريم المسيح عليه السلام:

يقول د. عبد الوهاب النجار: ولما حان انفصال جنين مريم ألجأها المخاض إلى جذع نخلة هناك في الموضع الذي فيه مدينة بيت لحم وهي على بضعة من الكيلو مترات من بيت المقدس[(٣)].

موقع بيت لحم مهد المسيح عليه السلام:

يقول ياقوت الحموي: بيت لحم: بالفتح وسكون الحاء المهملة. بُلَيدة قرب بيت المقدس... مكان مَهْد عيسى ابن مريم.[(٤)] وبيت لحم مدينة فلسطينية تقع جنوب الضفة الغربية تقع على بعد حوالي ١٠ كم جنوب القدس الشرقية[(٥)].

وهكذا يتبين لنا أن السيدة مريم هربت من قومها - ببيت المقدس - حتى أتت بيت لحم - مكانًا قصيًّا - وهناك عند النخلة التي يجري بالقرب منها نهر صغير ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ (مريم) ولدت مريم ابنة عمران المسيح عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

هذه هي القصة كما وردت في القرآن وكتب التفسير والسيرة، وقصص الأنبياء، وكلها تقرر أن الآيات الواردة في سورة مريم تتكلم عن قصة ولادة مريم المسيح عليه السلام، وأنها ليست هاجر أم إسماعيل عليه السلام؛ لأن هاجر خرجت بولدها إلى مكة وليس إلى بيت لحم، ولأنها خرجت بعد أن ولدت إسماعيل، في حين تتكلم آيات سورة مريم عن قصة مريم حين ولادة المسيح ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٣).

ومن المعروف أن المخاض هو ألم الولادة أو ما يعرف بـ "الطلق"، ومن حقنا الآن أن نتوجه إلى هذا المتوهم والمغالط بعدد من الأسئلة قائلين له: إذا كنت تنكر أن مريم هربت إلى البرية - لأسباب عدَّة - وأنها حملته: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ (مريم) ألم تكن مريم تقيم مع قومها وأهلها في بيت المقدس، فلماذا إذن ولدت المسيح في بيت لحم التي تبعد عن بيت المقدس بـ ١٠ كم؟

---

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص٥٠٦.

٢. المرجع السابق، ص٤٥٨.

٣. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٥٢. انظر: قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٣ وما بعدها.

٤. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

٥. موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

ليس أمام المدعي إلا أن يجيب بإحدى إجابتين، إما أن ينفي ميلاد المسيح عليه السلام ببيت لحم، وفي هذه الحالة يقع في الطعن في نصوص الإنجيل، ويكذِّب بما ورد فيه، ففي إنجيل متى: "ولما وُلِد يسوع في بيت لحم اليهودية، في أيام هيرودس الملك، إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود مَلِك اليهود؟ فإننا رأينا نَجْمه في المشرق وأتينا لنَسْجُد له". (متى ٢: ١، ٢)، وإما أن يجيب بأن مريم انتبذت به مكانًا قصيًّا على نحو ما أخبر القرآن فولدته في بيت لحم، وبهذا الجواب يكون قد أقام الحجة على نفسه[1].

أما الطعن في قوله عز وجل: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم: ٢٦) بحجة أن مريم لم تكن في حاجة إلى الماء؛ لأنها لم تكن عطشى فهو طعن مردود على صاحبه، يدفعه ما سقناه وأثبتناه سلفًا - بلا خلافٍ بين أهل العلم من المسلمين وأهل الكتاب، وبلا خلاف بين القرآن والإنجيل في شأن مكان ميلاد المسيح عليه السلام حيث أثبتنا أنه ولد ببيت لحم في حين كان مقام أمه مريم ابنة عمران ببيت المقدس، وعليه فهل من المعقول أن تسير امرأة حامل بها آلام المخاض مسافة ١٠ كم دون أن تأكل أو تشرب، ثم تكون بعد ذلك في غير حاجة للطعام أو للماء؟!

يبقى أن نسأل المدَّعي في النهاية: ما سند دعواه وما أدلته على ذلك؟ ومن قال بقوله طوال أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان هي مدة وجود القرآن في الأرض أيًّا كانت ديانة القائل وأيًّا كان اتجاهه؟ ولماذا اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم، مع العلم أنهم كانوا يستقبلون بيت المقدس في زمن عيسى عليه السلام، وما استقبلوا الشرق إلا بعد رفعه عليه السلام[2] ولم يكن استقبالهم للشرق بنص من الكتاب المقدس أو تشريع من الله؟

يجيب عن هذا السؤال الإمام الزمخشري فيقول: "إنَّ النصارى اتخذت الشرق قبلةً؛ لانتباذ مريم مكانًا شرقيًّا"[3].

ثانيًا. كان خروج هاجر وولدها بأمر من الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بأخذهما إلى تلك الأرض ليعمر بهما ذلك الوادي:

لم يأت في القرآن الكريم تفصيل لقصة هاجر وإسماعيل عليه السلام، وإنما جاء ذلك في السنة النبوية المطهرة، وإغفال هذه التفاصيل حجة للقرآن، وليست حجة عليه.

وقد ورد في السُّنَة - التي ما هي إلا وَحْي يُوحى - أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يخرج بهاجر وولدها إلى مكة ويتركها هناك؛ وذلك ليعمر الله بها هذا الوادي المبارك، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دَوحَة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعها هنالك ووضع عندهما

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ٨، ج١٦، ص٨٤.

٢. عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، ترجمة: يوسف قزما خوري، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٤٧.

٣. الكشاف، الزمخشري، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٥.

جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قَفَّى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق الخليل إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم).

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال نبي الله ﷺ: "فلذلك سعى الناس بينهما". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ ـ تريد نفسها ـ، ثم تَسَمَّعتْ فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إنْ كان عندك غُواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرِف من الماء في سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينًا معينًا". قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ها هنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله"[1][2].

ثالثًا. هناك العديد من أوجه الاختلاف بين قصة هاجر ومريم:

إن كان هناك وجه تشابه بين قصة هاجر ومريم وهو خروج كلتيهما من بلديهما إلى مكان آخر، فإن هناك أوجه اختلاف بين القصتين محصلتها استحالة وقوع خلطٍ أو لبسٍ بينهما.

أوجه الاختلاف والتباين بين قصة هاجر ومريم:

١. إن في القرآن سورة تسمى سورة مريم، تعرض قصة حمل مريم وخروجها ووضعها المسيح عيسى ﷺ بكل تفاصيلها، في حين لا توجد سورة في القرآن باسم هاجر، ولم يتعرض القرآن لقصة خروجها إلى مكة إجمالًا ولا تفصيلًا، اللهم إلا آية في سورة إبراهيم، ولم يرد فيها ذكر هاجر ولا قصتها، وإنما وردت قصة هاجر في السنة النبوية المطهرة.

٢. إن مريم حملت بلا زوج، في حين حملت هاجر

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ (الصافات) (٣١٨٤).

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص١٢٠.

بإسماعيل عليه السلام من إبراهيم عليه السلام.

٣. إن مريم خرجت إلى بيت لحم، في حين خرجت هاجر إلى مكة.

٤. إن مريم عندما خرجت كانت حاملًا بعيسى عليه السلام في حين خرجت هاجر بإسماعيل عليه السلام وهو رضيع.

٥. إن مريم نزلت بمكان فيه نخلة ـ أي زرع ـ وماء، في حين نزلت هاجر بوادٍ غير ذي زرعٍ ولا ماء.

٦. إن هاجر خرجت بأمر زوجها ـ وبوحي من الله ـ وكان برفقتها، في حين أخرج مريم خوفها من أهلها وآلام المخاض، ولم يكن برفقتها أحد.

٧. إن مريم اتجهت للشرق، أما هاجر فللجنوب.

بهذه الأوجه يتبين لنا أن الخلط بين القصتين ضرب من الوهم وطمسٌ للحقيقة.

الخلاصة:

- لم يخلط القرآن الكريم بين هاجر ومريم، بل أفرد لمريم ـ أم المسيح عليه السلام ـ سورة تحدث فيها عن قصة حملها وولادتها.
- لا يوجد من أهل العلم طوال أربعة عشر قرنًا من ينكر على القرآن إقراره بانتباذ مريم مكانًا قصيًّا عن بيت المقدس، بل أكد العلماء من أهل الكتاب ذلك.
- خرجت مريم بحملها؛ خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمس بسوء، ولبى الله حاجتها إلى الطعام والشراب وهي في حاجة إليهما.
- إن عدم ذكر القرآن لتفاصيل قصة هاجر وعدم وجود اسمها به حجةٌ له وليس حجة عليه.
- هناك من أوجه الاختلاف بين هاجر ومريم ما يدفع وقوع خلطٍ أو تشابهٍ يؤدي إلى الخلط بينهما.

الشبهة الثامنة والسبعون

توهم خطأ القرآن في تسمية مريم "أخت هارون" (*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن خلط بين مريم أم المسيح ومريم أخرى كانت أختًا لهارون وموسى. وأنه خلط لم يقع مثله في الكتاب المقدس، مع مخالفة القرآن للأناجيل الأربعة فيما أورده عن مريم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأخوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ (مريم: ٢٨) هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب.

٢) القرآن هو وحي الله عز وجل المنزل، المحفوظ، بشهادة المخالفين قبل المسلمين، أما الكتاب المقدس فهو كتابات بشرية لم تسلم من التحريف والخطأ بقصد أو بدون قصد، فلا وجه للمفاضلة بينهما.

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

® في "المراد بـ "أخت هارون" في القرآن الكريم" طالع أيضًا: الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

التفصيل:

أولا. الأخوة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ ﴾ هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب:

ويتضح ذلك من السياق الذي وردت فيه هذه التسمية، فقد وردت في موقف تعجب، واستنكار، وتوبيخ ثقيل عوتبت فيه مريم بهذا الأسلوب، كأنما أراد قومها أن يقولوا لها: يا مريم، يا من كنا نراك أختًا لهارون في إيمانه، وصفاته وأخلاقه، أيجوز منك أن تصنعي ما صنعت؟!

والمسلمون بوصفهم عربًا ورثوا من أعراف لغتهم وبيئتهم ما ينفي وقوع لبس في المعنى، حيث كانوا يؤاخون بين أصحاب الصفات المشتركة، فقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ لاشتراكهم في الإيمان، وأيد القرآن الكريم هذا المعنى بإقراره أخوة الدين في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (١٠) ﴾ (الحجرات).

وبهذا البيان يتضح أن أخوة مريم لهارون بهذا العرف لا تعنى أخوة النسب، وإنما تعنى الاشتراك في الصفات الإيمانية والخلقية، التي يستبعد معها إتيان مريم لما توهموا من الفعلة القبيحة.

ويذكر أنَّ أبا مريم هو: عمران بن ياشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يهفا شاط بن إيشاين إيان بن رحبعام ابن سليمان بن داود، وكان أكثر أجدادها من الأحبار، فهي نسل طيب من نسل طيب، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٣) ﴾ (آل عمران)[1].

ومعنى آل عمران: مريم وعيسى عليه السلام.

ثانيًا. القرآن الكريم هو وحي الله تعالى المنزل الثابت المحفوظ، أما الكتاب المقدس فهو شهادات بشرية لم تسلم من التحريف والخطأ بقصد أو بدون قصد:

ثبت أن القرآن وحي من الله ﷻ، وليس بكلام بشر، ولا مقتبس من أي مصدر بشري، ونكتفي هنا بشهادة د. موريس بوكاي عن القرآن بعد مقارنته بين الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، فهو يقول: "وهناك فرق آخر جوهري بين المسيحية والإسلام، فالإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معًا؛ فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه المؤمنون ويتلونه عند الصلاة، وخاصة في شهر رمضان، وقد رُتِّب في سور بأمر من محمد ﷺ نفسه، وجُمِعت هذه السور فَوْر موت النبي ﷺ، وفي خلافة عثمان ـ من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ ـ ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم.

أما الكتاب المقدس، فإنه يختلف بشكل بَيِّن عما حدث بالنسبة للقرآن؛ فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك ـ مثلًا ـ أي شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى، وهذا خلافًا لما يتصوره الكثير من المسيحيين"[2].

١. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دائرة المعارف الأمريكية، القاهرة، د. ت، ص٧٨، ٧٩، ٢١٠.

وبناءً على ما تقدم فالقرآن الكريم هو الصدق الذي بقي، وإن من خالف القرآن فإن مخالفته للقرآن كافية في إقامة الحُجَّة على كذبه وتكذيبه، أما محاولة جمع أسماء: عمران، وهارون، ومريم، لإثبات تناقض التاريخ القرآني لأخبار مريم، فهذا هو الباطل والتزييف بعينه، فلم يقل القرآن: إن هارون موسى هو هارون مريم، ولم يقل القرآن: إن عمران والد مريم هو عمران والد موسى، ولا مانع ـ عقلًا ـ أن تتعدد الأسماء في الأمة الواحدة، خاصة إذا كانت أسماء مشهورة لمشاهير كأنبياء أو صالحين، ولا مانع أن يكون في أمة اليهود أكثر من شخص يُسمَّى هارون، ومريم، وعمران.

ومن الثابت تاريخيًّا أن أصحاب الأناجيل دوَّنوا أناجيلهم من أفواه الناس، ولم يأخذوها من وحي الله تعالى لهم، ولا يجدي ـ بعد ذلك ـ أن يقولوا: هي بوحي الله.

وبمعرفة هذه الحقيقة التاريخية لا يحق للمتوهمين أن يحتجوا بصحة الأناجيل، أو يدَّعوا أنها المعيار الذي يُقاس عليه صحة أية أخبار وردت في غيرها[1].

الخلاصة:

- الأُخوة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ عن السيدة مريم هي أخوة الدين والصفة، وليست أخوة النسب، فأخوة مريم لهارون ـ بما تعارف عليه العرب ـ أخوة مبنيَّة على الصفات المشتركة بينهما، كما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ لاشتراكهم في صفة الإيمان تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات).

- ثبت أن القرآن الكريم وحي من الله ﷻ وليس كلام بشر، ولا مقتبسًا من أي مصدر بشري بكل وسائل الإثبات، ولم يقل القرآن الكريم إن هارون موسى هو هارون مريم، ولم يذكر أن عمران والد مريم هو عمران والد موسى.

- إن أصحاب الأناجيل دونوا أناجيلهم من أفواه الناس ولم يأخذوها من وحي الله لهم، ولا يجدي بعد ذلك أن يقولوا: هي من وحيه ﷻ، فقد وقع الاختلاف فيما بينها بما يتنافى مع صحتها، وبما يمنع جعلها معيارًا يقاس عليه صحة أية أخبار وردت في غيرها.

الشبهة التاسعة والسبعون

ادعاء خطأ القرآن في عدم ذكر سبب انتباذ مريم العذراء(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن أخطأ؛ لأنه لم يذكر السبب في انتباذ مريم مكانًا شرقيًّا، واتخاذها حجابًا من دون أهلها. ويتساءلون: هل تشاجرت مريم مع أهلها، وهم المشهورون بالتقوى؟ كما أن القرآن يقول:

1. انظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٦٦ وما بعدها.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islamiyat.com

إنها كانت في المحراب في كفالة زكريا في حين يقول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه الدعوى لا أساس لها من الصحة؛ لأن المتأمل في القرآن الكريم، يجد أن هذه القصة سيقت لبيان سبب انتباذ مريم عليها السلام.

وكان هذا الانتباذ مرتين:

- الأولى: مكانًا شرقيًّا للعبادة والتنسك.
- الثانية: مكانًا قصيًّا أي بعيدًا، وذلك بعدما أحست بحملها خوفًا من رميها بالمنكر، أو أن تمس بسوء.

٢) قول الأناجيل: إن مريم كانت في الناصرة - إن صح ذلك - فقد يكون في بعض تنقلاتها، فقد ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

التفصيل:

أولا. كيف يدعي هؤلاء أن القرآن لم يذكر سبب انتباذ مريم عليها السلام، والقصة كلها مَسُوقة من أجل هذا الغرض:

إن هذا يدل على أن القوم حينما قرءوا القصة في القرآن الكريم لم يعقلوا منها شيئًا؛ حيث إنهم لم يفهموا الغرض الواضح الذي من أجله سِيقت هذه القصة.

لقد انتبذت مريم من أهلها مرتين:

الأولى: انتبذت مكانًا شرقيًّا للعبادة والتنسك.

الثانية: انتبذت مكانًا قصيًّا بعيدًا، وذلك بعدما أحسَّت بحملها؛ خوفًا من رميها بالمنكر، أو أن تُمَسَّ بسوء من قبل أهلها.

والمقصود بالانتباذ هنا التنحي والتباعد، وانتبذت: أي تنحت وتباعدت، والانتباذ هو الاعتزال والانفراد[1].

أما عن المرة الأولى وهي الواردة في بداية القصة في سورة مريم قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم). والسبب في هذا الانتباذ إذا لم يكن مفهومًا هنا، هو عبادة الله تعالى والخلوة بمناجاته، فإنه قد ذكر صراحة في: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ (آل عمران).

وبذلك يتبين لنا أن مريم - عليها السلام - كانت وقفًا على سِدانة المَعْبَد وخدمته والعبادة فيه، فتنحَّت عن الناس لذلك، ودخلت المسجد إلى جانب المحراب من جهته الشرقية لتخلو للعبادة فيه، فدخل عليها جبريل عليه السلام، فقوله: "مكانًا شرقيًّا" أي: مكانًا من جانب الشرق، والشرق بسكون الراء: المكان الذي تشرق فيه الشمس، والشرق بفتح الراء: الشمس، وإنما خصَّ المكان بالشرق؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون جهة المشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها[2].

إذن لم يكن اعتزال السيدة مريم بسبب مشاجرة مع أهلها، كما يفترض هؤلاء هذا الافتراض السخيف

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١١، ص٩٠.

٢. المرجع السابق، ص٩٠.

الذي لا يخطر ببال عاقل يتابع ويفهم ما جاء في القرآن الكريم عن مريم - عليها السلام - ونشأتها وأبويها، وقد تعودنا ونحن نقرأ قصص القرآن أن نلاحظ أن كثيرًا من التفاصيل تطوى ولا تُذكر، خاصة إذا كانت تفهم من سياق القصة ولا حاجة لذكرها ولا جدوى منه.

والذي يفهم من حال مريم أنها اتخذت مكانًا شرقي بيت المقدس بمعزل عن الناس؛ إمعانًا في عبادة الله، والأنس به وحده، وحتى لا يشغلها شاغل من البشر عن عبادة ربها[1].

وليس بلازم أن يكون المكان الذي "انتبذته" مكانًا بعيدًا جدًّا يُخْشَى عليها فيه الخطر بسبب بُعْدِه، ولكنه يكفي لأن يكون بعيدًا عن الاختلاط بالناس.

جاء في رسالة يعقوب: أن مريم وهي في سن الثالثة ذهبت بها أمها بصُحْبة أبيها إلى أورشليم، وسلَّماها إلى كهنة هيكل سليمان، وكانت علامات السرور تبدو عليها، ثم تركاها ورجعا إلى أورشليم، وعاشت مع الراهبات المنذورات إلى أن حبلت.

وإن نظرنا في خريطة فلسطين، نجد حبرون أسفل أورشليم، وقريبة منها، ونجد الناصرة على الخط نفسه وبعيدة عن أورشليم؛ فتكون أورشليم غرب الناصرة، وشرق حبرون.

أما المرة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم بشأن انتباذ مريم فكانت بعدما أحسَّت بحملها، فخافت أن يرميها قومها بالمنكر، قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ (مريم).

إذن كان خروج مريم - عليها السلام - في هذه المرة خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمَسَّ بسوء، وقيل: "انتبذت مكانًا قصيًّا" أي: اعتزلت بحَمْلها وتنحَّت به عن الناس مكانًا نائيًا.[2] وقيل في "زوائد الزهد" عن نوفل: إن جبريل نفخ في جيبها فحملت حتى أثقلت، وآلمها ما يؤلم النساء، وكانت في بيت نبوة فاستحيت وهربت؛ حياءً من قومها، فأخذت نحو المشرق[3] [4]. وكان من فيض كرم الله عليها أنه هيأ لها الطعام والشراب والمأوى.

ولما حملت مريم - عليها السلام - ضاقت بحملها ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيتكلمون في حقها، وهذا ما حدث، حيث تعجب "يوسف بن يعقوب النجار" وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا؛ وذلك لما يعلم من ديانتها، ونزاهتها وعبادتها.

بل وصل الأمر إلى أكبر من ذلك حيث اتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم، واعتزلتهم، وانتبذت مكانًا قصيًّا، وألجأها المَخاض واضطرها إلى جذع النخلة الذي كان يابسًا، ولكن الله ﷻ لبَّى حاجتها إلى الطعام والشراب، حيث قال ﷻ:

1. انظر: تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2003م، ج7، ص94 وما بعدها.

2. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، مرجع سابق، عند تفسير الآية.
3. أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (6/ 51).
4. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ (مريم)، وقول الله ﷻ: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ (مريم: ٢٦)[1].

ثانيًا. إن صح قول الأناجيل بأن مريم كانت في الناصرة، فإنما كان ذلك في بعض تنقلاتها:

لما كبرت السيدة مريم - عليها السلام - تفرَّغت للعبادة، وأوغلت فيها باعتزالها، فكانت البُشرى بعيسى في قمة عبادتها لربها وأنسها به، وأما قول الإنجيل: إن مريم كانت في الناصرة، فعلى فرض صحته، فإن ذلك يكون في بعض تنقلاتها، فقد ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

وقد تبين أن الناصرة من نصيب سبط زبولون - وهو من أسباط السامريين - وهي من سبط يهوذا - على حدِّ زعمهم - فكيف تكون من سكان الناصرة؟! وإذا كانت من سكان الناصرة، فلماذا أتت إلى أورشليم لتعد مع سكانها، وسكان أورشليم من سبطي يهوذا وبنيامين؟ فالحق ما قاله القرآن إنها كانت هارونية، ومعلوم أن زكريا وامرأته، ويوحنا المعمدان كانوا من التابعين لأهل أورشليم[2].

الخلاصة:

- لم يكن اعتزال السيدة مريم - عليها السلام - بسبب مشاجرة مع أهلها كما يفترض بعض المتوهمين، بل كان اعتزالًا للناس، وخلوة لعبادة الله، كما أن هناك كثيرًا من التفاصيل لا تذكر في القرآن؛ لأنها تفهم من سياق الكلام، ولا حاجة لذكرها.
- الانتباذ لا يدل على مشاجرة، أو كراهية، ولكنه هنا بمعنى الابتعاد والاعتزال، كما حدث مع موسى وهو طفل، ثم إن خروج مريم - عليها السلام - كان خوفًا من القيل والقال، وحتى لا تُمَسَّ بسوء، وقد حفظها الله ﷻ ورزقها المأوى والطعام والشراب.
- الإعجاز في ولادة مريم هو الذي أثار تعجب اليهود، وظنوا بها أسوأ الظنون بعد أن غابت عنهم لبعض الوقت.
- إذا سلمنا جدلًا بقول الأناجيل: إن مريم كانت في الناصرة، فإن ذلك يكون في بعض تنقلاتها، حيث ذكروا أيضًا أنها جاءت إلى مصر.

الشبهة الثمانون

التشكيك في صيام مريم العذراء(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المتوهمين في صيام مريم العذراء، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ (مريم: ٢٦)، قائلين: كيف يتفق هذا مع قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا

١. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٢: ٤٢٤.
٢. انظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٧٥. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، ترجمة: عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٣٩٠.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islamiyat.com

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (مريم: ٢٦). ويتساءلون: كيف يستقيم قول مريم إذا مرَّ بها أحدٌ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، وهي الآكلة الشاربة، فأين هذا الصوم إذن؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الصيام المقصود في كلام مريم، هو صيامها عن التَّحدث مع قومها؛ إذ حُمل الصوم على المعنى اللغوي لا الشرعي.

٢) المراد بقوله ﷻ: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: قولي ذلك بالإشارة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام.

التفصيل:

أولا. الصوم في الآية هو الصوم عن الكلام، وليس عن الطعام والشراب:

فالمقصود بالصوم في الآية ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ هو الصوم بمعناه اللغوي، وهو الإمساك عن أي فعل أو قول كان، وكل مُمْسِكٍ عن طعام، أو كلام، أو سير فهو صائم[1]. فالله ﷻ يقول لمريم: إنك إذا رأيت أحدًا ستدخلين معه في جدل؛ لأن المسألة التي أنت عليها لن تستطيعي أن تأتي بمبررات لها؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسها رجل كلام غير مقبول عند الناس، ولن يصدقوه، وسيتكلمون معك بسفاهة وجهل، فعليك بالصمت، وإذا رأيت أحدًا من البشر، وسألك عما أنت فيه فقولي: إني نذرت لله صومًا عن الكلام، فلن أكلم أحدًا[2].

ويؤيد هذا المعنى قولها مؤكدة نذرها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ (مريم)، وقد ظهرت براءتها، وأُعلنت على لسان وليدها ، فإن كانت هي قد أمسكت عن الكلام بأمر الله ﷻ، فقد أنطق الله ابنها ليبرئها ربها ﷻ.

ثانيًا. المراد بقول الله ﷻ: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: قولي ذلك بالإشارة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام:

هناك العديد من الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام؛ فمن ذلك ما سمع في كلام العرب من إطلاق الكلام على الإشارة؛ كقول أحد الشعراء:

إذا كَلَّمَتْنِي بالعُيونِ الفَواتِرِ

رَدَدْتُ عليها بالدّموعِ البَوادِرِ

ومن الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام أيضًا، قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: "أين الله"؟ فأشارت إلى السماء، فقال ﷺ لسيدها: "أعتقها فإنها مؤمنة"[3]. فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الديانات؛ وهو الذي يعصم به الدم والمال، وتستحق به الجنة، وينجي من النار. ومن ذلك

١. مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، مادة: صوم. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م، مادة: صوم.

٢. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٦.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (١٢٢٧).

ما جاء في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب بيديه فقال: "الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا - ثم عقد إبهامه في الثالثة - فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن أُغْمِي عليكم فاقدروا له ثلاثين"[1]، فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ نزل إشارته بأصابعه إلى أن الشهر قد يكون تسعة وعشرين يومًا، وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على هذا الحديث: وفي هذا الحديث جواز اعتماد الإشارة المفهمة في مثل ذلك[2].

يجوز أن هذه الكلمة (فقولي) هي التي تقطع بها مريم الكلام مع القوم، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمها، ولذلك فالأخرس حين يكون في بيئة تفهمه يستطيع أن يتفاهم مع الناس، ويفهم الناس منه ما يريد قوله عن طريق الإشارات[3].

الخلاصة:

- المراد بالصوم المذكور في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ (مريم) الصوم بمعناه اللغوي، وهو "الإمساك عن أي فعل، أو قول كان، وكل ممسك عن طعام، أو كلام، أو سير فهو صائم"، وليس المقصود الصوم عن الطعام والشراب، وصيام مريم كان عن الكلام مع قومها؛ لعدم قدرتها على إقناعهم، ولأن ذلك أمر سيطول الجدال فيه.

- المراد بقوله ﷻ: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، أي: قولي ذلك بالإشارة المفهمة، فالإشارة تنزل منزلة الكلام، ومن ذلك ما سمع في كلام العرب من إطلاق الكلام على الإشارة كثيرًا، وما ورد في السنة النبوية الشريفة، مما يؤيد هذا المعنى المراد.

الشبهة الحادية والثمانون

التشكيك في مادة خَلْق المسيح عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المغرضين في حديث القرآن عن مادة خَلْق عيسى عليه السلام، ويستدلون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ (آلعمران: ٤٥) وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١)، ويتساءلون: هل خلق المسيح من تراب، أو هو كلمة الله وروحه؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) كل مخلوق خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾، فآدم

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (٢٥٥١).

٢. أضواء البيان، الشنقيطي، مرجع سابق، ص٢٧٥: ٢٧٨.

٣. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٢٦.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

خُلق بها، وعيسى خلق بها، فهي أمر الله كما أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس)، ولا يتنافى ذلك مع مادة أصل خلق عيسى عليه السلام التي هي التراب.

٢) المراد بالآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أن الله خلق عيسى ابن مريم بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فعيسى قد نشأ عن الكلمة التي قالها له "كن" فكان.

التفصيل:

أولا. كل مخلوق خلق بكلمة "كن" فآدم خلق بها، وعيسى خلق بها:

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران)، ولقد أثارت ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب شبهات عند النصارى جعلتهم يقولون: إنه ابن الله، تعالى الله عما يشركون.

فإن ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب تعد معجزة دالة على طلاقة قدرة الله التي لا تحدها حدود، ولا يقف أمامها مانع ليظهر للناس أنه عز وجل على كل شيء قدير، وقد أوضحت مريم - عليها السلام - هذه الحقيقة بقولها لابن عمها: فمن خلق الإنسان الأول؟ ومعنى هذا أن الله سبحانه قد خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثى، وكانت مادة خلقه الأولى التراب قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ (ص)، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١)، وخلق نبيه عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى، وفي ذلك يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

وهذا دليل على أن الله عز وجل لا يعجزه شيء، وأن قانون الأسباب والمسببات مِنْ وضعه عز وجل، يجريه كيف شاء ومتى شاء، ويلغيه كذلك وفق مشيئته وإرادته، وقد أثارت هذه الشبهة وفد نصارى نجران عندما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: من أبو عيسى؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

وواضح أن الآية قد ردت عليهم بأمر قد سلموا له سابقًا، بأنه لو لزم من وجود عيسى من أم بلا أب أن يكون ابنًا لله تبارك و تعالى، للزم أن يكون آدم ابنًا لله بطريق الأولى، فإنه وجد من غير أم ولا أب، ثم إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب، فلِمَ لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟! وهذا الدليل ملزم لهم، إذ لم يقولوا بألوهية آدم ولا بنوته لله - تعالى الله عما يفترون - وبهذا الإلزام قطع القرآن الجدال بعد إقامة الحجة[1].

وبذلك يتضح أن كل مخلوق خُلق بكلمة الله ﴿كُن﴾، فآدم عليه السلام خلق بها، وعيسى عليه السلام خلق بها، فأمر الله كما أخبر عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٣٠، ٣٣١.

﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ (يس).

فلا يُعقل أن يدعي أحد عدم اتساق هذه الآية مع حال عيسى ابن مريم، فقد شاء الله وجوده، فأرسل المَلَك ليبشر أمه، فلما استعظمت أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر قال لها الملك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ (مريم).

وقد قال صاحب "الظلال" في تعليقه على هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران) ما يلي: "إن ولادة عيسى لعجيبة حقًّا بالقياس إلى مألوف البشر، ولكن أي غرابة فيها حين تُقاس بخلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنسانًا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا كلمة "كن" تنشئ ما يُراد له النشأة فيكون"[1].

ويُعلق د. عبد المنعم فؤاد على ذلك قائلًا: وهنا نلمس أن القرآن الكريم تحدث عن شيء لدى العقل معلوم، ولم يبدأ ببرهانه من مجهول، وهذا ما يرضاه المنطق السليم. وإذا كان الله ﷻ أوجد هذه الأكوان الرهيبة بعجائبها وعظائمها من العدم؛ أي: من لا شيء؛ فإنه أوجد آدم من شيء وهو التراب، والتراب لا روح فيه فهو جماد، ومع ذلك خلق منه آدم ونفخ فيه الروح، وإذا أوجد آدم من جماد لا حياة فيه؛ فإنه أوجد عيسى من امرأة ذات حياة وروح، وهي مريم - عليهما السلام - فأمر عيسى أمر سهل إدراكه على العقل البشري إذا تطرق إلى خلق الأشياء في الكون، ومن ثم لا يصح على أصحاب العقول النيرة أن يذهبوا بعيسى بسبب ميلاده إلى مرتبة الألوهية، ولا يصح أن يكون ميلاده هو مفتاح بنوته لله تعالى، بل هو مفتاح التفكر في كمال قدرة الله ﷻ.

ويقول أبو عُبيدة الخَزْرَجي: أليس من الواضح عند ذوي العقول أنه لا يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم عليه السلام أن يكون ابنًا لله؟ ولَمَّا لَمْ يُستبعد خلق آدم من التراب، لم يُستبعد خلق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أمه.

نعم إن الذي خلق الرحم، وجعل الدم يسير فيه هو الذي يجعل الوليد يتحرك في أحشائه، وينفخ فيه من روحه، حتى وإن خالف ذلك مألوف البشر؛ لأن قدرته تفوق عقولهم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يعلن عن قدرته متى شاء، وكيف شاء، ولمن شاء، ويوم أن تنتبه العقول أمام حدث غريب - كميلاد المسيح - تظهر نداءات الله للمؤمنين قائلة: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٤٩).

وعن المثليَّة بين آدم والمسيح، يقول ابن تيمية: إن

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٤، ٤٠٥ بتصرف.

الله خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم أعجب من هذا وذاك، وهو أصل خلق حواء، فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلقه.

وهذا التشابه بين آدم والمسيح الذي أثاره القرآن يمكن حصره في أمرين:

أولهما: النفخ من روح الحق تبارك وتعالى، وهذا كان لآدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص).

وثانيهما: في كلمة ﴿كُن﴾. وهذان الأمران نجدهما في المسيح، فهو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم وهي "كن" وروح منه، وهي النفخة عن طريق الملاك، وهذا قياس واضح على مثلية الخلق بينهما[1].

والمماثلة بين المشبه والمشبه به تكون في بعض الأوصاف، وليس بلازم أن تكون في كل الأوصاف، كمن يشبه الجندي بالأسد في الشجاعة فقط، والذي يفهم من الجملتين من وجه شبه هو أن عيسى شُبِّه بآدم في أنه وجد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران؛ ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشُبِّه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران).

ثانيًا. المراد بالكلمة في قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أنه عليه السلام قد نشأ عن الكلمة التي قالها الله ﷻ له "كن" فكان بإذنه تعالى:

وإذا عدنا إلى الآيات القرآنية التي تتحدث عن كون عيسى عليه السلام هو كلمة الله تعالى مثل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥) نجد أنه من الثابت عقلًا أن الله قديم، لا يجوز عليه الحدوث، كما ثبت أنه ﷻ واحد في ذاته، وصفاته، وأفعاله، فذاته ليست مركبة من أجزاء كما يزعم النصارى، ولا تقبل الانقسام. وإن القول بأن الكلمة جزء من الذات يوصل إلى القول بالتركيب، وهو من صفات الحوادث، وبناء على ذلك فلا يجوز تفسير أن عيسى كلمة الله بمعنى أنه جزء من ذات الله، وأن الله خلق عيسى ابن مريم بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى بإذن الله، فعيسى عليه السلام ناشئ عن الكلمة التي قالها له ﴿كُن﴾ فكان. وقال شاذُّ بن يحيى: "ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى"[2].

وقد تكون الكلمة بمعنى: الآية، وفي هذا الإطار يكون معنى أن "عيسى كلمة الله" هو آية دالة على قدرة الله، ويؤيد هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٥٩، ٦٠.

٢. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٤٥٣) برقم (٦٣٤٣).

﴿ءَايَةً﴾ (المؤمنون:٥٠)، وقوله ﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾(مريم: ٢١)[1].

وعلى ضوء هذا الفهم الصحيح لهذه الآيات يتضح لنا، ولكل ذي عقل وبصيرة أنه لا تناقض بين الآيات؛ فهي تتحدث عن نفاذ كلمة الله تعالى نفاذًا بلا سبب مألوف، ناسبة إطلاق الكلمة على عيسى إطلاقًا غير مألوف، وفي النهاية كل الخلق أثر لنفاذ كلمة الله تعالى®.

الخلاصة:

- كل مخلوق خلق بكلمة الله تبارك وتعالى ﴿كُن﴾ فآدم خلق بها، وعيسى خلق بها، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران). فآدم خلق من طين جماد بلا روح، وعيسى خلق من مريم، وفيها روح؛ فلذلك شبهه الله تعالى بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح؛ فلا عجب من خلق المسيح بهذه الطريقة.

- المراد بالآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(النساء: ١٧١) أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى بإذن الله، فعيسى عليه السلام ناشئ عن الكلمة ﴿كُن﴾ فكان.

- ومن سياق الآيات ومعانيها الصحيحة والمراد بها يتضح جليًّا أنه لا تناقض ولا تعارض بين الآيات، بل هناك تشابه ومماثلة بين خلق آدم عليه السلام وعيسى عليه السلام فكلاهما خلق بكلمة ﴿كُن﴾ الدالة على قدرة الله ﷻ.

---

1. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، مرجع سابق، ص٣٣١، ٣٣٢.

® في "**المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه**" طالع: الشبهة الثانية والثمانين. والوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين؛ من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

الشبهة الثانية والثمانون

دعوى تناقض القرآن حول تصوره للمسيح عليه السلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن بالقرآن تناقضًا حول تصوره للمسيح عليه السلام، فتارة يذكر أنه عبد، وتارة أخرى يشير إلى أن طبيعته تشبه الطبائع الإلهية. كما أن القرآن يُعطي المسيح من الألقاب العِظام ما لم يعطه لغيره من الأنبياء، فهو "كلمة الله"، و "روح الله"، و: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (آل عمران: ٤٥)... إلى غير ذلك. ويتساءلون: إذا كان الذي ذكره القرآن عن المسيح عليه السلام يفوق ما ذكره عن سائر البشر بمن فيهم محمد ﷺ، ألا يشير هذا إلى تَميُّز المسيح عليه السلام عن سائر البشر، وهذا ما يُقرُّه الإنجيل عن لاهوت المسيح؟!

وجه إبطال الشبهة:

لا تناقض بين الآيات التي تعرضت لذكر المسيح عليه السلام فهي تصفه بأنه بشر خَصَّه الله ببعض الخصائص التي

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات.
www.Islameyat.com

تَمَيَّز بها عن بقية الرسل، وهذه الخصائص والمزايا، مِنح من الله تعالى له، وليست ذاتية فيه.

التفصيل:

لا تناقض بين الآيات التي تعرضت لذكر المسيح عليه السلام فهي تصفه بأنه بشر خصه الله ببعض الخصائص التي تميز بها عن بقية الرسل؛ مثل تسميته بـ"كلمة الله"، و "روح الله"، وولادته بالروح القدس من عذراء، وقدرته على إتيان المعجزات، ورفعه إلى السماء، وكونه وجيهًا في الدنيا والآخرة، ووصفه بأنه المخلص، وأنه قُدُّوس بلا شر، وهذه الخصائص والمزايا منح من الله عز وجل له، وليست ذاتية فيه؛ ولو كان القرآن الكريم ينسب للمسيح شيئًا بمعزل عن إرادة الله وإذنه، لكان لهؤلاء المغالطين حق في أن يستدلوا بهذه الخصائص على ألوهيته.

أما وإنها منح من الله عز وجل له، فإنها تدل على عبوديته لله، لا على ألوهيته، كما قال الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ (الزخرف).

ولو كانوا موضوعيين، يبحثون عن الحقيقة المجردة، لاعترفوا بفضل القرآن، وأنه كلام الله، وبفضل رسول الله محمد ﷺ، وأنه مبلغ عن الله كلامه، وبفضل الأمة الإسلامية، وأنها نقلت ما بلغه رسول الله لها نقلًا أمينًا، ولم تُبادلهم بغضاء ببغضاء، ولم تُبَدِّل كلام الله.

بل نقلت ما قاله الله في نبيه عيسى عليه السلام دون تبديل أو تحريف، ولم تُبادلهم تشويهًا بتشويه، فكم حاولوا - زورًا - تشويه صورة الإسلام ونبيه ﷺ!!

أما البيان التفصيلي لما قيل عن لاهوت عيسى عليه السلام في القرآن فهو كالتالي:

١. **وصفه بأنه كلمة الله، أو كلمة منه**، أي: أنه نفاذ كلمته ﴿كُن﴾ وإن كان الخلق جميعًا نفاذ كلمته، وأثرًا لها، إلا أن عيسى جاء على نسق غير مألوف للناس لكونه ولد من غير أب، ومن هنا وصف بهذا الوصف.

و"من" في قوله عز وجل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٤٥) ليست للتبعيض حتى لا يُفهم أنه جزء من الله انفصل منه كما يتوهم النصارى، وإنما هي للابتداء، مثل "من" في قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، وإذا كان المسيح هو ذات كلمة الله كما يزعم النصارى، وما دامت كلمة الله تعالى قابلة لأن تنفصل منه، وتتحول إلى مخلوق أو إنسان، فلِمَ لا يكون الخلق أو الإنسانية كلها كذلك؟! إن تحوُّل الصفة إلى ذات هو غاية في الشناعة، وإغراق في الاستحالة العقلية.

ووصفه بأنه "روح منه" لا يعني أنه ابن الله كما زعموا، ولا يعني أنه انفصل من الله، وإلا كان آدم أحق بذلك فقد قال الله تعالى في حقه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (ص: ٧٢)، وكان البشر كلهم كذلك؛ فالنبي ﷺ قال في الحديث: "إن أحدكم يجمع خلقه.. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح"[1]، وضم الحديث مع الآيات في شأن آدم وعيسى يُقدِّم لنا الحقيقة ناصعة، وهي أن جميع البشر - بمن فيهم عيسى عليه السلام - نُفخت فيهم

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٨٩٣).

الروح بتكليف المَلَك المُخصَّص بنفخ الروح، وبنفخ الروح تحلُّ الحياة في الجسد[1].

فقد قال تعالى في حق مريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١) ، كما قال عن آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، لكن التعبير عن عيسى بأنه "روح" أو "روح منه" لكونه جاء على غير الإلف، فكأنه هو الروح، ومشكلة النصارى أنهم حولوا التعبيرات المجازية في كتابهم ككلمة الأب، إلى تعبيرات حقيقية.

٢. ولادته بالروح القدس من عذراء: يتخذ بعض المغالطين من هذا التمييز لعيسى عن سائر الأنبياء دليلًا على أنه إله وابن إله، ويصرحون بأنه ابن، وأمه مريم وأبوه الله - حاشا لله - أما السبب في هذا التميز عندنا - نحن المسلمين - فهو لكي يظهر الله تعالى لنا آية على طلاقة قدرته، وأنه يخلق الشيء وضده، لا يعجزه شيء، فكما خلق الإنسان من أبوين، أعطانا آية على أنه يخلق من غير أب، كما خلق آدم بلا أب ولا أم، وكما خلق حواء من آدم، فقدم لنا الاحتمالات المفترضة كلها، وأنه ﷻ لم يعجزه واحد منها.

كما قدم الاحتمالات الأربعة في قوله ﷻ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ (الشورى)، وأنه ينفذها كلها.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٢٠: ٢٥ بتصرف. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٨١٤: ٨٢٣ بتصرف. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م، ج٢، ص١٣٠، ١٣١ بتصرف.

ولو كان المقصود بقول الله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أنه جزء من الله انفصل منه، وأنه ابن الإله، ما عَقَّب الله تعالى على هذه الآية بإثبات الوحدانية له ﷻ، ونفي الولد وإبطال التثليث، وأكد أن المسيح عبد الله ورسوله، وأن المسيح لا يستنكف أن يكون عبدًا لله، بل إن مقصود الآية في المقام الأول هو نهي النصارى عن الغلو في المسيح بتأليهه، قال ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ (النساء).

معاني كلمة "روح الله" في الكتاب المقدس[2]:

إن الله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، ولم يقل أحد: إن آدم إله، ثم إن روح الله تأتي عندكم - في المسيحية - على عدة أوجه:

٢. المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩٩ وما بعدها.

- **القدرة**: "ولكن في الناس روحًا، ونَسَمَة القدير تُعلِّقُهم". (أيوب ٣٢: ٨).
- **الرأي**: "الحكمة تنادي في الخارج. في الشوارع تعطي صوتها. تدعو في رءوس الأسواق، في مداخل الأبواب. في المدينة تبدي كلامها قائلة: «إلى متى أيها الجُهَّال تحبون الجهل، والمستهزئون يسرون بالاستهزاء، والحَمْقى يبغضون العلم؟ ارجعوا عند توبيخي. هأنذا أفيض لكم روحي. أعلمكم كلماتي". (الأمثال١: ٢٠ _ ٢٣).
- **نفس الإنسان**: "فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها". (الجامعة ١٢: ٧).
- **الإلهام**: "وحلَّ عليَّ روح الرب، وقال لي: قل هكذا الرب". (حزقيال ١١: ٥).
- **قوة الله وقدرته**: "وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنًا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكن فيكم". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ١١).
- **الخلق والإحياء**: "روح الله صَنَعَني، ونَسَمَة القدير أَحْيَتْني". (أيوب ٣٣: ٤).
- **مُنزِل الوحي على رسل الله**: "لم تَأْتِ نبوَّة قطُّ بمشيئة إنسان، بل تَكلَّم أناسُ الله القِدِّيسون، مَسوقين من الروح القدس". (رسالة بطرس الرسول الثانية ١: ٢١).

وهل من الممكن أن تكون الكلمة الصادرة عن الرب هي الرب نفسه؟ فأنتم تقولون بذلك في بداية إنجيل يوحنا، بَيْد أن العقل السَّويّ يأبى ذلك، ويناقض معتقداتكم. فليس معنى أنه كلمة الله أنه هو الله نفسه؛ فالكلمة هنا تعني أمر الله تعالى إلى أمه مريم. وفي هذا إجلال لمريم؛ إذ يصفها الله تعالى بأنها أطاعت كلمته وأمره بمجرد تأكدها أنها صادرة من عند الله تعالى.

معاني كلمة "كلمة الله" في الكتاب المقدس[1]:

- **كتاب الله وكلامه وتعاليمه**: "وهؤلاء هم الذين زرعوا بين الشوك: هؤلاء هم الذين يسمعون الكلمة، وهموم هذا العالم، وغرور الغني، وشهوات سائر الأشياء تدخل وتَخْنُق الكلمة فتصير بلا ثمر". (مرقس ٤: ١٨، ١٩).
- **الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله**: "وإذا كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله". (لوقا ٥: ١)، وأيضًا: "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله والذين على الطريق هم الذين يسمعون ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم لئلَّا يؤمنوا فيخلصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).
- **الكلمة العادية أو الأمر الموجه لشخص ما، والتي قد تكون سبب سعادة أو حزن**: "قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك، وأَعْطِ الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعالَ اتبعني، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينًا؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة". (متى ١٩: ٢١، ٢٢).
- **النطق والكلام العادي**: "ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التُّخوم صرخت إليه قائلة:

١. المرجع السابق، ص١٠٠ وما بعدها.

"ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدًّا"، فلم يُجِبْها بكلمة". (متى ١٥: ٢١ ـ ٢٣).

- **دليل أو إثبات:** "وإن لم يسمع فخُذْ معك أيضًا واحدًا أو اثنين؛ لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة". (متى ١٨: ١٦).
- **السؤال:** "فأجاب يسوع: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضًا بأي سلطان أفعل هذا: مَعْمُودِيَّة يُوحنَّا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس؟". (متى ٢١: ٢٤، ٢٥).
- **التَّجْدِيف:** " لذلك أقول لكم: كل خطيَّة وتجديف يُغْفَر للناس، وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي". (متى ١٢: ٣١، ٣٢).
- **السَّب واللَّعن والتَّهجُّم على الآخرين:** "ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلَّم بها الناس سوف يُعْطَون عنها حسابًا يوم الدين". (متى ١٢: ٣٦).
- **الخطأ، أو الإثم، أو العلة، أو سبب الإدانة:** "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة، حتى يسلموه إلى حُكْم الوالي وسلطانه. فسألوه قائلين: «يا معلم، نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم، ولا تقبل الوجوه، بل بالحق تعلم طريق الله. أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» فشعر بمكرهم، وقال لهم: لماذا تُجرِّبونني؟ أروني دينارًا. لمن الصورة والكتابة؟» فأجابوا وقالوا:«لقيصر». فقال لهم:«أعطوا إذا مالقيصر لقيصر وما لله لله». فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قُدَّام الشعب، وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠: ٢٠ ـ ٢٦).

وكما رأينا لم تأت "الكلمة" أبدًا بمعنى ذات الله ولا نفس الله، كما يحلوا لهم أن يفسروا على هواهم ما يثبت ألوهية يسوع؛ ومن ثم لا يمكن أن يكون الذي أوحى بكل معاني لفظ "الكلمة" قد أفاق أخيرًا؛ ليوحي في إنجيل يوحنا بأن الكلمة هي الإله نفسه، مع الأخذ في الاعتبار أن علماء اللاهوت يعلمون أن هذا الإنجيل كتب بعد عام ١٢٠ ميلادية، فلا يمكن أن يكون الرب المتجسد عندهم نسي أن يوحي بأنه الكلمة لباقي الإنجيليين، وتذكرها بعد ١٢٠ سنة من مولده!! ثم قالوا: "والذين قاموا بكتابة أسفار الكتاب المقدس هم أناس الله القِدِّيسون".

لقد خلت الأناجيل الأربعة، وما ألحقوه بها من رسائل، من بينة واحدة على أن عيسى ﷺ أشار إلى نفسه أنه الكلمة، كما أن الثلاثة أناجيل الأولى المتوازية لم تُشِر بها إليه قط على ألسنة كاتبيها أو حكاية عن غيرهم، وأشير إلى قول لوقا الشهير في بداية إنجيله: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المُتيَقَّنة عندنا، كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعايِنين وخُدَّاما للكلمة، رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوُفِيلُس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به". (لوقا ١: ١ ـ ٤).

فماذا تعني "الكلمة" هنا غير ما سوف نذكره؟ وما الذي يمنع أن يكون هذا المعنى هو الذي قصده يوحنا في بداية إنجيله هو أيضًا؟

معاني لفظ " كلمة" في إنجيل لوقا:

ورد هذا اللفظ في إنجيل لوقا، بالمعنى نفسه الوارد

في أسفار التوراة، أي: بمدلول الوحي، أو الأمر الإلهي، أو الرسالة النبوية عند أنبياء العهد القديم، ولم يتجاوز هذا الحد ولم يُبشر بها إلى مسيح الناصرة، أو حتى أي مسيح آخر. وهو نفس المدلول في سفر إرميا، ونصُّه: "اسمعوا الكلمة التي تكلَّم بها الرب عليكم يا بيت إسرائيل. هكذا قال الرب: ألا تتعلموا طريق الأمم، ومن آيات السماوات لا ترتعبوا؛ لأن الأمم ترتعب منها". (١٠: ١، ٢).

ومعنى "الكلمة" هنا واضح لا يحتاج إلى شرح، وبمثله قال لوقا عن يوحنَّا المِعْمِدان: "في أيام رئيس الكهنة حنَّان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البَرِّيَّة". (لوقا ٣: ٢)، فقد جاءت بعدة معانٍ؛ منها:

- **كتاب الله:** "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقَّنة عندنا كما سلَّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعايِنين وخُدَّامًا للكلمة". (لوقا ١: ١، ٢).
- **رضا الله:** "وقال له إبليس: إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا. فأجابه يسوع: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله". (لوقا ٤: ٣، ٤).
- **التوبيخ والنَّهْر:** "فوقعت دهشة على الجميع، وكانوا يخاطبون بعضهم بعضًا قائلين: ما هذه الكلمة؛ لأنه بسلطان وقوة يأمر الأرواح النَّجِسة فتخرج". (لوقا ٤: ٣٦).
- **أوامر الله ونواهيه:** "وإذ كان الجمع يزدحم عليه ليسمع كلمة الله كان واقفًا عند بحيرة جَنِّيسارَت". (لوقا ٥: ١).
- **الإيمان وجهاد النفس لطاعة الله:** "وهذا هو المثل: الزرع هو كلام الله، والذين على الطريق هم الذين يسمعون، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم؛ لئلَّا يؤمنوا فيَخْلُصوا". (لوقا ٨: ١١، ١٢).
- **العمل بكتاب الله:** "والذي في الأرض الجيدة هم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح ويثمرون بالصبر... وجاء إليه أمه وإخوته ولم يقدروا أن يصلوا إليه لسبب الجمع. فأخبروه: أمك وإخوتك واقفون خارجًا يريدون أن يروك، فأجاب: أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها". (لوقا ٨: ١٥ـ ٢١).
- **التَّجْدِيف:** "وكلُّ من قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له، وأما من جَدَّف على الروح القُدُس فلا يغفر له". (لوقا ١٢: ١٠).
- **السؤال:** "فأجاب: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي: مَعْمُودية يوحنَّا من السماء كانت أم من الناس؟". (لوقا ٢٠: ٣).
- **الخطأ أو الإثم:** "فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار؛ لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكم الوالي وسلطانه.. فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قُدَّام الشعب وتعجبوا من جوابه وسكتوا". (لوقا ٢٠: ٢٠ ـ ٢٦).

ومن هذا نستنتج بوضوح أن الكلمة عند لوقا هي: التعليم، والوحي، والأمر الإلهي الصادر عن الله ﷻ والمبلَّغ عن طريق نبي من عباده. فهل شذَّ من كَتَب إنجيل يوحنا واستخدم الكلمة "اللوجوس" في وصف

عيسى عليه السلام مخالفًا سياق الأناجيل الأخرى والرسائل مستسقيًا مصادر أجنبية، وهي الفلسفة اليونانية في جانبها الوثني؛ ليدسه في النصرانية؛ لأن المضمون عند فلاسفة اليونان مثل هيراقليطس: أن "اللوجوس" أو الكلمة هو العقل الإلهي الضابط لحركة الموجودات والمهيمن على الكون، وهذا ما التقطه كاتب إنجيل يوحنا كفكرة فلسفية ليس لها أي أصل ديني صحيح، بل هو تصور وثني أضافه كاتب هذا الإنجيل؛ ليزيد الأمور تعقيدًا عند النصارى.

والملاحظ أنه عز وجل قال عن عيسى وأمه: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٩١)، ولم يقل: "رحمة للعالمين" كما فهم الكاتب، ولكنه قال: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ (مريم: ٢١) إشارة إلى أنه من حيث كونه آية، فهو آية للعالمين على طلاقة قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته بلا حدود، أما من حيث كونه رحمة، فهو رحمة لأناس بعينهم، وهم قومه من بني إسرائيل، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف). وكما جاء في الإنجيل على لسانه: "إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة"، فهو آية للعالمين، وليس رحمة للعالمين؛ لأن رسالته ليست عالمية. أما صاحب الرسالة العالمية فهو محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء).

إن الله عز وجل غني عن أن يكون له ابن، أو زوجة تلد له ابنًا، وهو تعالى لا يشبه خلقه، فالتوالد نتيجة التجانس والتشابه، وهو عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، وكل المخلوقات خلقه وملكه، فلا حاجة لاختصاص أحد من الخلق ببنوة، ولهذا كانت الحجج في القرآن الكريم تتوالى لإبطال الولد: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ٦٨)®.

أمَّا أن القرآن لقب المسيح بأنه قُدُّوس بلا شر:

وهذا افتراء على كتاب الله تعالى؛ فالله تعالى لم يسم أحدًا من خلقه باسم القدوس، وإنما هو سبحانه وحده القدوس، قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ (الحشر: ٢٣)، ومعنى القدوس: المنزَّه عن كل وصف يدركه حس، أو خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير[1].

وكون المسيح ذُكر في القرآن الكريم من غير أن يُذكر له خطيئة لا يعني أنه إله، أو ابن إله، فهو بشر، عبد الله، عصمه الله من الوقوع في المعصية، ولم يمسه الشيطان عند ولادته كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يُولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب".[2] وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود يولد إلا نَخَسَه الشيطان؛ فيستهل صارخًا من نَخْسَة الشيطان

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين، من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت، ص٥٥.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١١٢).

الرجيم إلا ابن مريم وأمه"، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾(آل عمران)".[1] لا لأنه إله ابن إله، ولكن تحقيقًا لدعوة المرأة الصالحة امرأة عمران عندما لجأت إلى الله ﷻ أن يُعيذ مريم وذُرِّيَّتها من الشيطان الرجيم.

أما ما يستدل به بعضهم على ألوهية المسيح، وهو:

- **قدرته على إتيان المعجزات:**

والمعجزة أمر خارق للعادة يُجريه الله ﷻ على يد نبي؛ تصديقًا له في دعوى النبوة، فهي فعل من الله أظهره الله على أيدي أنبيائه، ولم يختص عيسى عليه السلام دون سائر الأنبياء بالمعجزات؛ فلكل نبي معجزاته التي أظهرها لقومه؛ ليثبت لهم صدقه، ولا تدل المعجزة على ألوهية من جرت على يديه، وإلا كان الأنبياء جميعًا آلهة، وكما قال الله تبارك وتعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ قال على لسان نبيه يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ (يوسف: ٣٧).

والإحاطة الكاملة بالغيب كله ليست إلا لله ﷻ علمًا كاملًا ليس مستمدًّا من غيره ﷻ، وهذا لا يمنع أن يعلم بعض خلقه ما تقتضيه الحكمة، كإطلاع رسله على بعض الغيب، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ (الجن).

وما جاء في القرآن الكريم من نسبة الخلق لعيسى في قول الله ﷻ: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ﴾ (المائدة: ١١٠).

فعيسى لم يدَّعِ أنه يتفرد بالخلق، ولكنه لا يفعل شيئًا إلا بإذن الله، ومن معاني الخلق التقدير، قال الشاعر:

فَلَأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ
ضُ القَوم يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي

فالخلق الذي نُسب له هو التقدير، لذلك جاء في الآيتين أنه يخلق ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ ولم يرد أنه يخلق الطير، فهو لا يوجد الطير ويخلقه، ولكنه يعمل من الطين شكل الطائر، كما يصنع ذلك أي إنسان، لكن الله تعالى أعطاه آية، بأن ينفخ فيما شكلّه فيكون طائرًا بإذن الله ﷻ، فهو الذي يوجد الحياة عقب نفخ عيسى عليه السلام في الطين المشكل طيرًا، وكذلك الأمر في إحياء الموتى فإنه بإذن الله تستجيب الأموات لندائه، فإذا بهم أحياء، وليس عيسى عليه السلام أول من أظهر الله على يديه هذه المعجزة، فقد أجرى الله تعالى على يد الخليل إبراهيم عليه السلام إحياء الطير بعد تقطيعها أشلاء، وخلط بعضها ببعض، قال ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٢٦٠﴾ (البقرة)، وعلى يد نبي الله موسى عليه السلام جاءت معجزة إحياء القتيل عندما ضربوه

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٦٢٨٢).

ببعض البقرة المذبوحة، قال الله ﷻ: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (البقرة).

وإبراء الأكمه والأبرص معجزة كغيرها من معجزات الأنبياء، والله ﷻ هو الذي شفاهما على الحقيقة، ولكن نسبة الإبراء إلى عيسى عليه السلام بإذن الله لما باشر السبب بأن مسح عليهما فشفيا بإذنه تعالى، والفعل يُنسب إلى السبب المباشر كما ينسب إلى الفاعل الحقيقي، وذلك كثير في القرآن وفي اللغة، تقول: شفى الله المريض، وشفى الطبيب المريض، وقال الله: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ (النساء: ٥)، مع أن الله سبحانه هو الرزاق[®].

- **رَفْعه إلى السماء:**

لا يدل ذلك على ألوهيته، بل يدل على ما خصه الله ﷻ به لتكتمل خصائصه، وليكون آية للعالمين في بدء حياته، وفي خاتمتها، وفي أثنائها، أما أن يتخذ البعض من رفعه دليلًا على خلوده، ويجعل ذلك اعترافًا من القرآن بخلوده، فهذا ما يكذبه القرآن نفسه؛ فالقرآن الكريم يذكر على لسان عيسى عليه السلام أنه يموت كغيره من البشر، قال ﷻ: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (مريم)، وقال ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ (النساء: ١٥٩)، والآية التي استدل بها الكاتب على موت النبي ﷺ؛ ليقارن بين موت محمد، وخلود عيسى - عليهما الصلاة السلام - تدل على موت عيسى ولو بعد حين، فالآية تقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤)، وعيسى من بين البشر الذين كانوا قبل محمد ﷺ.

- **وجيهًا في الدنيا والآخرة:**

نعم جاء ذلك عن عيسى عليه السلام بمعنى أنه ذو جاه ومنزلة في الدنيا والآخرة، وكونه ذا جاه ومنزلة لا ينفي أن يكون غيره كذلك، وقد قال الله تعالى في حق الكافرين: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المدثر: ٤٨)، فيفهم من هذا أن غير الكافرين من أهل الإيمان تنفعهم الشفاعة، وأنها شفاعة شافعين كثيرين، وليست شفاعة واحد فقط، فعيسى عليه السلام يشفع لمن أذن الله له بأن يشفع له، وغيره من ذوي الجاه من الأنبياء والملائكة والصالحين كذلك، ولو أكمل الكاتب الآية ووقف عندها، ما تطاول على كتاب الله، فالله ﷻ يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٥)، فهو واحد من المقربين إلى الله، لكنه يفرض عقائده الباطلة فرضًا على آيات كتاب الله؛ ليقول عن المسيح عليه السلام: "إنه ابن الله المتجسد، والوسيط الوحيد بين الله والناس".

- **المُخلِّص:**

يتخذ بعض الكُتَّاب من إطلاق القرآن الكريم على المسيح اسمه المتداول؛ أي: عيسى، ولقبه المعروف؛ أي: المسيح، وإطلاق القرآن الكريم اسم "الإنجيل" على كتابهم - اعترافًا من القرآن بعقائدهم، فعيسى هو الإطلاق العربي لاسم يسوع عندهم، ويسوع بمعنى المخلص، ويزعمون أن هذا اعتراف من القرآن الكريم بأن يسوع مخلص العالم من الخطيئة الموروثة، ومخلص

® في "تهافت الاستدلال بمعجزات عيسى على ألوهيته" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والثمانين، من هذا الجزء.

المؤمنين به، كما أن إطلاق المسيح في القرآن الكريم اعتراف منه بأنه معين ملكًا ونبيًّا وكاهنًا، لتعيينه مخلصًا للجنس البشري، كما أن الإنجيل بمعنى: الخبر المُفْرِح.

ونقول ردًّا على هذه المزاعم: إن استخدام القرآن الكريم لهذه الإطلاقات: "عيسى، المسيح، الإنجيل" لا يعني الاعتراف بعقائدهم الفاسدة، ولا يعني حتى الاعتراف بما تحمله من معان، فإن كانت هذه الكلمات في أصل اشتقاقها تحمل المعاني المذكورة، فإنها أصبحت أسماء لمسميات، فأصبح عيسى عليه السلام علمًا على النبي المرسل، وكذلك المسيح أصبح لقبًا له، وأصبح الإنجيل علمًا على الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى عليه.

وحتى لو كان معنى كل اسم من هذه الأسماء مقصودًا، فليس على عقيدتهم الوثنية، ولكن عيسى عليه السلام مخلص للمؤمنين به من عذاب الله لكونه سببًا في هدايتهم، والمسيح معين ليكون نبيًّا وقد كان، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، لا ما بأيديهم مما افتروه على الله، فيه بشرى للمؤمنين، وهذا الفهم لا ينكره القرآن، بل يقرر أن المرسلين مبشرون ومنذرون: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (الأنعام: ٤٨) ، أما كثرة ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام في القرآن الكريم فليس اعترافًا بألوهيته؛ ولكن لأنه لم يقل أحد قولًا عظيمًا في حق مخلوق مثلما قيل في المسيح عليه السلام، فكان تكرار ذكره تأكيدًا على أنه بشر ابن بشر ـ ابن مريم ـ ونفيًا لألوهيته، ولو كانوا صادقين في الإيمان بعيسى عليه السلام وفي حبه، لآمنوا بالكتاب الذي اعترفوا بأنه أشاد به، ووضعه في المكانة اللائقة به، ولأخذوا بكل ماجاء فيه عن المسيح وعن غيره، لا أن يُزيِّفوا الحقائق ويَقْلِبوها، ويُحرِّفوا آيات القرآن ويستنطقوها ضلالاتهم.

الخلاصة:

- المسيح عليه السلام كلمة الله وروح منه، أي: أنه نفاذ لكلمته "كن"، ونتيجة نفخ الروح في أمه، لكونه خلقًا غير معتاد، ما خص الله تعالى به عيسى عليه السلام من معجزات لا يدل على ألوهيته، ولكنها تصديق لنبوته، يشاركه في ذلك بقية الرسل، فهم مؤيدون بالمعجزات، وما كان من أمر خلقه، ورفعه فذلك آية للناس تدل على طلاقة قدرة الله تعالى.
- تكرار ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم لا يدل على ألوهيته، بل لأنه أكثر من فُتن الناس به، واختلفوا فيه، ومنهم من عاداه من بني إسرائيل، حتى كفروا به وحاولوا قتله، ومنهم من أفرط في حبه ـ أو هكذا توهموا ـ حتى رفعوه إلى درجة الألوهية؛ فجاء القرآن ليحسم هذا الخلاف، وليضعه في منزلته اللائقة به.

الشبهة الثالثة والثمانون

إنكار تكلُّم المسيح عليه السلام في المهد(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يناقض التاريخ والكتب المقدسة، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (آل عمران)؛ حيث يذكر أن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم في المهد، وهو يخالف ما جاء في الكتاب المقدس والتاريخ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن ذِكْر الكتاب المقدس لتحدث المسيح عليه السلام في المهد أو ما يدل على هذا التحدث يقطع الألسنة المشككة في الخبر لا سيما من المسيحيين.

٢) كيف يقرون بأنه ولد ولادة غير طبيعية من أم فقط دون أب، ثم ينفون عنه أنه تكلم في المهد، فكيف يثبتون له الخارق، وينفون ما هو أقل من ذلك؟

٣) كان كلامه عليه السلام في المهد تبرئة لأمه ودرءًا لتُهْمَة الزنا عنها.

التفصيل:

أولا. في الكتاب المقدس ما يدل على تحدث المسيح عليه السلام في المهد:

إن القرآن الكريم لا يناقض التاريخ والكتب المقدسة في مسألة كلام عيسى عليه السلام في المهد، ففي كتابهم المقدس ما يدل على ذلك، حيث وردت هذه القصة عند لوقا ونُسبت إلى زكريا: "وأما أَلِيصابات فتمَّ زمانها لِتَلِد، فولدت ابنًا. وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظَّم رحمته لها، ففرحوا معها. وفي اليوم الثامن جاءوا لِيَخْتِنوا الصبي، وسمَّوه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت:«لا! بل يُسمَّى يوحنا». فقالوا لها:«ليس أحد في عشيرتك تَسَمَّى بهذا الاسم». ثم أَوْمَئوا إلى أبيه، ماذا يريد أن يُسمِّي. فطلب لوحًا وكتب قائلًا: «اسمه يوحنا». فتعجب الجميع. وفي الحال انفتح فمه ولسانه، وتكلَّم وبارك الله. فوقع خوف على كل جيرانهم. وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية، فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين:«أَتَرَى ماذا يكون هذا الصبي؟» وكانت يد الرب معه". (لوقا ١: ٥٧ ـ ٦٦).

فلو دققنا في هذه القصة التي تحكي عن صيام زكريا، ثم تكلمه، ثم تعجب السامعين من تكلمه لتعجبت أنت أيضًا. فهل لو أنا امتنعت عن الكلام، ثم تكلمت، فهل سيسبب هذا خوف السامعين أو شعورهم بمعجزة تستحق تسبيح الله؟ وهل لو تكلم الصائم يكون حديث البلدة كلها؟ لا، إن هذه الحادثة حدثت مع عيسى عليه السلام حيث تكلم في المهد؛ مبرئًا أمه، ومعلنًا أنه عبد الله ورسوله، والدليل على ذلك أن السامعين تعجبوا قائلين: "أَتَرَى ماذا يكون هذا الصبي؟ وكانت يد الربّ معه"، إذن فقد كان التعجب من عمل قام به الصبي.

وإلا أخبرني كيف بَرَّأَتْ مريم نفسها من تهمة الزنا؟ فتبعًا للتوراة فإن ابنة الكاهن إذا زنت تُحْرَق

(*) موقع ابن مريم. www.ebnMarayam.com .

® في "تفرد القرآن بذكر كلام المسيح في مهده" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

حية، وبما أن اليهود لم يحرقوها فلا بد أن تكون قد أتت بدليل براءتها: "إذا تَدَنَّست ابنة كاهن بالزنا فقد دنَّست أباها. بالنار تُحرَق". (اللاويين ٢١: ٩).

وحتى يطمئن قلبك إلى صدق هذه المعلومة؛ فإن إنجيل الطفولة - وهو أحد الأناجيل الذي ترفضه الكنيسة - يحكي أن عيسى عليه السلام قد تكلَّم في المَهْد[1].

وهذا هو كتابكم يذكر أن عيسى عليه السلام قد تكلم في المهد، فلماذا التكذيب إذن؟ ومحاولة رفضه حتى في كتابكم؟ فمرة ترفضون إنجيل الطفولة، ومرة تحاولون لَيّ عُنُق النص عند لوقا حتى يتفق مع هواكم، وإلا فما قولكم في كتابكم الذي تؤمنون به؟! هل ستكفرون بهذه الفقرة أو تلك حتى تخرجوا من هذا المأزق؟!

ثانيًا. كيف ينكرون كلامه في المهد مع أنهم يقرون بأنه وُلد ولادةً غير طبيعية، وبأنه ولد من غير أب، أليس الذي خلقه الله من غير أبٍ قادرًا على أن ينطقه في المهد؟!

كيف تثبتون له الأعلى وتنفون عنه الأدنى؟! لا يأتي هذا التفكير إلا من عقول جاهلة بحقيقة الأمور، وقلوب تعمل على الكفر بكل ما جاء به القرآن الكريم، ثم إنهم غالوا وشطحوا حتى أثبتوا له أشياء عظيمة جدًّا وصدقوا أنفسهم فيها، وفي بداية الأمر لا يستطيعون تصديق أنه عليه السلام تكلم في المهد، فلماذا لا يتكلم نبي في المهد ليدافع عن نفسه، وعن أمه، كرامة من الله عز وجل له في حين أننا نرى كل يوم، ونسمع عن أطفال عاديين ليسوا بأنبياء، ولكن الله حباهم بأشياء عظام، فهذا طفل في سن الخامسة، ولكن الله حباه ذاكرة يحملها رجل أعيته المذاكرة، وأضناه العمل في هذا المجال، ونحن نصدق هذا الأمر ونراه، فلماذا نكذب كون عيسى عليه السلام تكلم في المهد ليبرئ نفسه وأمه أمام مجتمعه؟

ومما يؤكد هذا أن جماعة من النصارى سألوا الإمام عليًّا رضي الله عنه فقالوا له: إن من كرامات نبينا عيسى عليه السلام أنه نطق في المهد.. فهل نطق نبيكم وهو في المهد؟ فقال علي رضي الله عنه: "إن نبيكم عيسى عليه السلام كان في حاجة إلى النطق في المهد، لأنه ولد ولادة غير عادية من غير أب فخاف من التهمة، فأنطقه الله معجزة له من أجل نبوته ورسالته، ليدرأ التهمة عن نفسه وعن أمه أمام مجتمعه والأجيال القادمة.. أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فكان في غير حاجة إلى النطق وقت ولادته؛ لأنه وُلد ولادة طبيعية من أم وأب معروفين"[2].

إذن، كانت العلة من نطق عيسى عليه السلام ضرورية ومُلحَّة؛ حتى يبرئ نفسه وأمه مما قد يلحق بهما من صفات لا تليق بهما. هذا وقد جاء الحديث الشريف ليؤكد هذا الكلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لم يتكلَّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج..."[3] وقد قال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبي ماشطة امرأة

---

١. عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسِّيَّا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٣٢، ١٣٣.

٢. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، مرجع سابق، ص٢٨٧ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم:١٦) (٣٢٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٦٦٧٣).

فرعون، وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الجبار، ولم يذكر صاحب الأخدود، وبه يكون المتكلمون سبعة[1].

ثالثًا. كان كلامه عليه السلام في المهد، تبرئة لأمه ودرءًا لتهمة الزنا عنها:

وإذا حققنا النظر في الذين تكلموا في المهد نجد أنهم قد تكلموا جميعًا لعلل ضرورية لا يمكن السكوت عنها، وإذا تم السكوت عنها فإنها تجلب مفاسد عظيمة، وهذا هو السبب الحقيقي لنطق عيسى عليه السلام في المهد.

فعلام ينكرون كلامه في المهد وقد حدث منهم ما كان يخشاه ويخافه؟!

وقد وضح القرآن الكريم مقالة هؤلاء السفهاء، ورد عليها ردًّا شافيًا مقنعًا؛ كما جاء على لسان سيدنا عيسى ابن مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَـٰنِيَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ (مريم)، هذا أول كلام تفوَّه به عيسى عليه السلام، فكان أول ما تكلم به أن اعترف لربه بالعبودية، وأن الله ربه، فنزَّه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله تعالى، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله عز وجل: ﴿ءَاتَـٰنِيَ الْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠).

فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا، لعنهم الله وقبحهم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ (النساء)، ذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض، لعنهم الله فبرأها الله من ذلك، وأخبر أنها صِدِّيقة، واتخذ ولدها نبيًّا مرسلًا أحد أولي العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزَّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة[2].

وهكذا كان حديث عيسى عليه السلام إليهم في المهد يرد على افتراءاتهم ومزاعمهم التي رموا بها أمه الصِّدِّيقة، وإلا كيف تنجو مريم من هذه التهمة؟! وكيف يثبت عيسى عليه السلام بشريته وعبادته لله الواحد القهار، وأنه نبي مرسل من عند الله عز وجل؛ جاء ليدعو الناس إلى وحدانية الله عز وجل؟!

وليخبرنا المنكرون الحاقدون كيف نَجَت مريم؟ وكيف أسكتت المجتمع عنها، وعن ولدها؟ وكيف أفلتت من الحرق لما عُلم أن ابنة الكاهن إذا زنت تُحرق حية، كما ورد في التوراة: "وإذا تدنَّست ابنة كاهن بالزنا، فقد دنَّست أباها، بالنار تحرق". (اللاويين ٢١: ٩)، فكيف برَّأت نفسها؟

فإنك لو دققت النظر لعلمت أنه لا بد لهذا الولد من معجزة تنجيه وأمه، وكرامة تنفي عنه وعن أمه هذه التهمة، وكانت هذه الكرامة هي كلامه عليه السلام في المهد.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤، ص٩١ بتصرف.

٢. قصص الأنبياء، ابن كثير، مرجع سابق، ص٤٢٦.

الخلاصة:

- اشتمل الكتاب المقدس على نصوص دالة على صدق القرآن فيما أخبر به من كلام عيسى عليه السلام في المهد، فرغم تحريفهم لهذه الواقعة، وتوجيهها إلى زكريا عليه السلام فإنها لا تصدق إلا على عيسى عليه السلام؛ لأنه أول من تكلم في المهد.
- إن أصحاب الكتاب المقدس يقرون بولادة عيسى عليه السلام بدون أب، وينكرون كلامه في المهد. ألا يدل ذلك على شدة جهلهم وتزييفهم للحقائق؛ لأن ميلاده بدون أب معجزة أكبر من كلامه في المهد.
- كان كلام عيسى عليه السلام في المهد معجزة جعلها الله عز وجل ليبرئ نفسه وأمه أمام الجميع من التهم التي قد تلحق بهما، وقد حدث ما يخشاه فرموا أمه بالزنا، وجعلوه إلهًا وابن إله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فكان كلامه لعلة واضحة هي تبرئة أمه مما رموها به من الزنا، وإثبات بشريته وعبوديته لله عز وجل.

الشبهة الرابعة والثمانون

الزعم أن القرآن ينصُّ على أن المسيح ابن الله(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يقرِّر أن المسيح هو روح الله تعالى، وروح الله غير مخلوقة، وإذا كانت روح الله مخلوقةً وكلمته مخلوقةً، فإن الله تعالى كان قبل خلقهن بلا روح ولا عقل، وهذا لا يمكن تصوره، ويستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ (مريم)، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ (الأنبياء). مستدلين بذلك على أن عيسى عليه السلام ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وجها إبطال الشبهة:

1) نسب المسيح عند النصارى يقرر بشريته، وأنه ليس ابن الله، ونصوص كتابهم المقدس تثبت ذلك، وقد ذكر القرآن ذلك صراحة.

2) أصل الإشكال عند النصارى في هذه القضية، هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم النص القرآني وفق ما يروق لهم، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

التفصيل:

أولا. نسب المسيح عند النصارى يقرر بشرية المسيح، وأنه ليس ابن الله.

إن زعم النصارى أن المسيح ابن الله، في نفس الوقت الذي ينسب فيه الكتاب المقدس عيسى عليه السلام إلى يوسف النجار، يدل على فساد هذا القول وعدم صحته؛ حيث ورد في إنجيل لوقا في نسب المسيح: "ولَمَّا ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سَنَةً، وهو على ما

(*) الرسول النكّاح والقمص المنكوح، إبراهيم عوض، مقال على شبكة الإنترنت.

® في "تنافي بُنُوَّة عيسى لله مع عقيدة التوحيد" طالع: الشبهة الخامسة والثمانين، من هذا الجزء.

كان يُظَنُّ ابن يوسف، بن هَالِي، بن مَتْثَاتَ، بن لاَوِي، بن مَلْكِي، بن يَنَّا، بن يوسف، بن مَتَّاثِيَا، بن عَامُوصَ، بن نَاحُومَ، بن حَسْلِي، بن نَجَّاي، بن مَآثَ، بن مَتَّاثِيَا، بن شِمْعِي، بن يُوسُفَ، بن يَهُوذَا، بن يُوحَنَّا، بن رِيسَا، بن زَرُبَّابِلَ، بن شَأَلْتِيئِيلَ، بن نِيرِي، بن مَلْكِي، بن أَدِّي، بن قُصَمَ، بن أَلْمُودَامَ، بن عِيرِ، بن يُوسِي، بن أَلِيعَازَرَ، بن يُورِيمَ، بن مَتْثَاتَ، بن لاَوِي، بن شِمْعُونَ، بن يَهُوذَا، بن يوسف، بن يُونَانَ، بن أَلِيَاقِيمَ، بن مَلَيَا، بن مَيْنَانَ، بن مَتَّاثَا، بن نَاثَانَ، بن دَاوُدَ، بن يَسَّى، بن عُوبِيدَ، بن بُوعَزَ، بن سَلْمُونَ، بن نَحْشُونَ، بن عَمِّينَادَابَ، بن أَرَامَ، بن حَصْرُونَ، بن فَارِصَ، بن يَهُوذَا، بن يَعْقُوبَ، بن إِسْحَاقَ، بن إِبْرَاهِيمَ، بن تَارَحَ، بن نَاحُورَ، بن سَرُوجَ، بن رَعُو، بن فَالَجَ، بن عَابِرَ، بن شَالَحَ، بن قِينَانَ، بن أَرْفَكْشَادَ، بن سَامِ، بن نُوحِ، بن لاَمَكَ، بن مَتُوشَالَحَ، بن أَخْنُوخَ، بن يَارِدَ، بن مَهْلَلْئِيلَ، بن قِينَانَ، بن أَنُوشَ، بن شِيتِ، بن آدم، ابن الله". (لوقا ٣: ٢٣ ـ ٣٨).

فالمسيح كما هو واضح من النص ـ على فرض صحته ـ لم يُنسب لله، بل الذي نُسب لله هو آدم، ويعني ذلك أن الكتاب المقدس نفسه يضع آدم في مكانة أعلى من المسيح. ويَذْكُر إنجيل مَتَّى نسب المسيح فيقول: "كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحق... ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يُدْعَى المسيح". (متى ١ ـ ١٦).

وفيه أيضًا: "فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم، وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل. هوذا العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا، فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته ولم يعرفها، حتى ولدت ابنها البكر، ودعا اسمه يسوع". (متى ١: ٢١ ـ ٢٥).

إذن فآدم ـ في زعمهم ـ هو ابن الله، وأما المسيح فهو أحد أبناء آدم كما في كتبهم. وأما نحن ـ المسلمين ـ فعقيدتنا واضحة فهو ابن مريم، وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم.

ومن الجدير بالذكر أن المسيح ﷺ لم يُدْعَ "عمانوئيل" رغم أن هذا الاسم يطلق على من ليسوا بأبناء الله، كما أن النص يقول: إنها ستسميه "يسوع"؛ لكي تتحقق النبوءة القديمة التي تقول: إنه سيُسمَّى "عمانوئيل"، ومن فمهم وبلسانهم أنفسهم يدانون! فقد كان الناس جميعًا يقولون بأن أبا عيسى هو يوسف النجار، لا نقول افتراءً عليهم ذلك، بل إن أناجيلهم هي التي تقول، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥).

"ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح". (متى ١: ٥٥).

"وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف"؟ (لوقا: ٤: ٢٢).

وكان عيسى ﷺ يسمع ذلك منهم فلا ينكره عليهم، بل إن لوقا نفسه قال عن مريم ويوسف: إنهما

"أبواه" أو "أبوه وأمه". ونصُّ ذلك: "وعندما دخل بالصبي يسوعَ أبواه، ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه على ذراعيه". (لوقا ٢: ٢٧). "وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد. وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم، ويوسف وأمه لم يعلما. وإذ ظنَّاه بين الرُّفْقَة، ذهبا مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف. ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه. وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل، جالسًا في وسط المعلمين، يسمعهم ويسألهم. وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته. فلما أبصراه اندهشا. وقالت له أمه: «يا بني، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك مُعذَّبَين!» فقال لهما: «لماذا كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي"؟ (لوقا ٢:٤١ ـ ٤٩)[1].

نصوص الكتاب المقدس أكبر دليل على أن المسيح ليس ابن الله:

إن الكتاب المقدس لم يقل: إن عيسى عليه السلام وحده هو ابن الله، بل لقد أطلقت هذه اللفظة على بشر كثيرين منذ أول الخليقة؛ حيث سمى آدم كما رأينا "ابن الله". وهذه شواهد على ما نقول، وهي أكبر برهان على أن كل ما يزعمه القوم كلام باطل بأدلة من كتابهم المقدس نفسه، لا من العقل والمنطق فحسب، ناهيك عن أدلة القرآن الكريم:

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة». كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم". (تكوين ٦: ١ ـ ٤)، "قدِّموا للربِّ يا أبناء الله، قدِّموا للرب مجدًا وعزًّا". (المزامير ٢٩: ١)، "من في السماء يعادل الرب، من يشبه الرب بين أبناء الله". (المزامير٨٩: ٦)، "طُوبَى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يُدْعَون". (متى ٥: ٩).

فلماذا يخصون عيسى عليه السلام وحده بهذه الصفة، فضلًا عن أن المسيح قد أخذه الشيطان ليجربه فوق الجبل، ويدفعه إلى السجود، وليس من المعقول أن يجرب الشيطان الله، ليرى أيمكن أن يسجد له الله أم لا، كما أنه ليس من المعقول أن يكون رد الله على الشيطان هنا هو "اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد". (لوقا ٤: ٨)، وهو ما يعني بكل جلاء أن عيسى كان ينظر لله على أنه "ربه" ومن الواجب عليه أن يسجد له لا على أنه هو نفسه ولا على أنه "أبوه"، كما أنه عليه السلام قد سمَّى نفسه أيضًا: "ابن الإنسان". (متى ١١: ١٩).

فهذا كتابهم المقدس يدلل على أن المسيح ليس ابن الله، وإلا لكان كل هؤلاء أيضًا أبناء الله ـ تعالى الله عما

---

١. انظر: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٦٥ وما بعدها. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٧٨ وما بعدها.

يقولون علوًّا كبيرًا ـ قال ﷻ: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص).

هناك دليل آخر من أفواههم، حيث يقول د. شارل نيبر ـ الذي نشأ مسيحيًّا من أب مسيحي، وأم مسيحية في بيئة مسيحية صحيحة ـ في كتاب "المسيحية: نشأتها وتطورها": والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه: إنه "ابن الله"، وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى اليهود سوى خطأ لغوي فاحش، وضَرْبٌ من ضُروب السَّفَه في الدين، كذلك لا يسمح لنا أي نص من نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير "ابن الله" على عيسى، فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين المتأثرين بالثقافة اليونانية، إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس منشئ الديانة المزعومة، والذي وقف وراء زعم ألوهية المسيح[1].

إن القرآن الكريم لم يذكر أن عيسى ابنُ الله، بل إن القرآن بيَّن أنه بشر:

لقد دعا القرآن إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده؛ مما يدل على جهل الكافرين الفاضح بحقيقة الأمور، حيث إنهم تركوا كل هذه الآيات التي تقرر بشرية المسيح، وما هذا إلا لجهلهم واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ومن الآيات القرآنية التي تبين بشرية المسيح ﷺ، وتدعو إلى التوحيد قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥ ﴾ (المائدة). وقال ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧ ﴾ (المائدة).

وردًّا على ما يقول النصارى من أن المسيح ابن الله تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا

١. أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٠٢، ٢٠٣.

﴿ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة).

فهذا هو القرآن الكريم ـ الذي تستدلون بكلامه ـ يدعو إلى التوحيد، بل إنه يصف من يقول: إن المسيح ابن الله بالكفر، ولكن إذا احتاج ضوء النهار إلى دليل فلا يثبت في الأذهان شيء: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٦)[1].

ثانيًا. أصل الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن:

يحاول النصارى الاستدلال بالقرآن الكريم على أن المسيح جزء من الإله، انفصل عن الكل، ولهم أن يعتقدوا من العقائد الباطلة ما يشاءون، أما أن يستدلوا على عقيدتهم الباطلة في أن عيسى ابن الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ـ بآيات القرآن الكريم التي تدعو إلى توحيد الله، وتحارب الوثنية بكل وسيلة، فهذا لا سبيل لهم إليه.

حيث إن الإشكال عند النصارى في هذه الآية هو عدم فهمهم، وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم للنص القرآني وفق ما يروق لهم؛ واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

ولو كان الاستدلال بالآية: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (الأنبياء: ٩١) صحيحًا، لكان هذا دليلًا على بنوة آدم لله ﷻ من باب أولى، وليس عيسى وحده، فالله ﷻ يقول: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (الحجر: ٢٩)، تمامًا مثلما جاء في الحديث عن عيسى وأمه.

بل ليس آدم وعيسى ـ عليهما السلام ـ وحدهما فقط يصيران ابني الله ﷻ إن صحت الآية دليلًا، بل كل أبناء آدم يصبحون أبناء الله ﷻ، فالله ﷻ يقول عن النوع الإنساني كله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (السجدة).

وأما استدلالهم هذا فغير صحيح، بل هو استدلال فاسد، فلو أننا تأملنا القرآن الكريم حيث يقول عن آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ مثلما يقول عن مريم: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ لوجدنا أن النفخ حسبما يقول، لم يتم في آدم وعيسى، بل في آدم ومريم.

إن الذي يترتب على ذلك أن يكون الخارج من آدم ومريم متشابهًا، أي: إن البشر جميعًا، وهم الذين خرجوا من صلب آدم، يشبهون عيسى الذي خرج من رحم مريم، وعلى هذا فإما أن نقول: إن الطرفين جميعًا ـ البشر من ناحية، وعيسى من الناحية الأخرى ـ آلهة إذا قلنا إن "الروح" تعني "الألوهية"، أو أن نقول: إنهم جميعًا بشر على أساس أن "الروح" تعني "الحياة، والوعي، والإرادة، وما إلى ذلك"، وعلى النصارى والزاعمين أن عيسى ابنُ الله أن يختاروا الطريق للتمييز بين عيسى ﷺ، وأبناء آدم، وليعلموا أن الطريق أمامهم مسدود، إذ هما شيء واحد، على حد زعمهم.

فلو كان إلهًا لكان البشر جميعًا آلهة، فأنت إله، وأنا

---

١. الرسول النكّاح والقمص المنكوح، د. إبراهيم عوض، مقال من شبكة الإنترنت.

إله، فإذا حكموا بذلك فلن تستقيم الحياة، ولن يكون لإرسال الرسل فائدة، وستكون الدنيا بأسرها عبثًا، ولن تكون هناك خطيئة، فلا بد إذن أن يكونوا بشرًا، فمن هنا نقول بأن عيسى عليه السلام بشر.

الخلاصة:

- المسيح ابن مريم عليه السلام عَبْدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وليس هو الله ولا ابن لله، ولا ثالث ثلاثة كما زعمت طوائف النصارى، وبشريته ثابتة في كتبهم، وعدم بنوته لله ثابتة في نسبه في كتبهم كما في (لوقا: ٣/ ٢٣ ـ ٣٨)، ذلك إن صحَّ السند في هذه النسبة، مع استبعاد أنه ابن يوسف النجار بالطبع.
- ومما يدحض قولهم ببنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل نصوص الكتاب المقدس التي تذكر أن عيسى عليه السلام ليس وحده ابن الله تعالى، بل أطلقت على كثير من البشر تلك الصفة، وهذا على فرض صحة هذه النصوص.
- الذي يستدل بالقرآن على بنوة المسيح لله عز وجل كيف غفل عن الآيات الواضحة ــ وهي كثيرة ـ في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإيمان به وحده، ودعوة الله تعالى على لسان المسيح نفسه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، بل وإنكار دعوى النصارى في التثليث وتكفيرهم بها؟! ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣).
- إن الإشكال عند النصارى في قول الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ هو عدم فهمهم وإدراكهم للنص القرآني، أو فهمهم للنص على وفق أهوائهم، واعتمادهم على منهج الانتقائية في الاستدلال بالقرآن الكريم.

الشبهة الخامسة والثمانون

ادعاء أن بُنوَّة المسيح عليه السلام لله تعالى لا تُنافي التوحيد(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن بُنوة عيسى لله عز وجل ليست بنوة جسدية تناسلية، وإنما هي بنوة روحية كبنوة الفكر للعقل، والأبوة عندهم لها معانٍ عدة؛ فهي قد تكون مجازية كقولك "أبو الخير"، وقد تكون شرعية كـ "التَّبنِّي" في زعمهم، وقد تكون جوهرية كـ "تولد النور من النار"، وقد تكون روحانية كـ "بنوة عيسى من الله"؛ ولذلك فإن بنوة المسيح لا تنافي التوحيد في زعمهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لو كانت بنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل بنوة روحانية ـ كما يزعمون ـ لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم عليه السلام، فهو أوّل من خلقه الله من البشر، ونفخ فيه من روحه.

(*) مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ.

® في "أكذوبة بُنُوَّة عيسى لله" طالع: الشبهة الرابعة والثمانين، من هذا الجزء.

٢) محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى عليه السلام مثل سائر الخلق في ذلك، هذا فضلًا عن أن نسبة الولد لله عز وجل إنقاص من كمال عظمته.

٣) إقرار عيسى عليه السلام ببشريته في الكتاب المقدس وبكونه عبدًا لله تأكيد منه على أن ادعاء البنوة لله ينافي التوحيد، فضلًا عن أنها ذريعة للإشراك بالله.

التفصيل:

أولا. إذا كانت بنوة عيسى عليه السلام لله عز وجل بنوة روحانية - كما يزعمون - لكان من الأولى أن تكون هذه البنوة لآدم عليه السلام، فهو أوّل من خلق الله من البشر، ونفخ فيه من روحه:

لماذا لم يدَّع المدَّعون البنوة الروحانية هذه لآدم عليه السلام؛ فمعجزة خلقه أعظم في النفوس البشرية من معجزة عيسى عليه السلام فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم، ثم نفخ فيه من روحه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحجر)، وأما المسيح عيسى عليه السلام فقد خلقه الله من أمٍّ بلا أب، فأي المعجزتين أكبر؟! آدم الذي خُلِقَ من غير أب ولا أم، أم المسيح الذي خُلِقَ من أم بلا أب؟! ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ (آل عمران). ثم إن البشر جميعًا نُفخت فيهم الروح.

وجاء في الحديث الصحيح: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة"[1].

إذن.. فكل إنسان لا بد أن يوكل به ملك فينفخ فيه الروح: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ (السجدة)، ومريم وُكِّلَ بها ملك نفخ فيها روح عيسى عليه السلام فجعله الله خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد اعترف النصارى أنفسهم ببشرية المسيح عليه السلام، وعدم تميزه في الطبيعة عن غيره من البشر، فهذا النجاشي - وكان نصرانيًا آنذاك - لما سأل جعفر بن أبي طالب قائلًا: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قال له جعفر: هو عبد الله ورسوله ﷺ، ورحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتول، فضرب النجاشي بيده في الأرض فأخذ عودًا، ثم قال: والله، ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فهذا ملك من ملوك النصارى، يعترف ببشرية المسيح، وصدَّق القرآن فيما أتى به عن عيسى عليه السلام.

والكتاب المقدس ذكر أن أبا عيسى هو يوسف

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) (٣١٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٦٨٩٣).

النجار، ومن ذلك: "وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة". (يوحنا ١: ٤٥).

"ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح". (متى ١: ٥٥).

"وكان الجميع يشهدون له، ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون: أليس هذا ابن يوسف"؟ (لوقا: ٤: ٢٢).

ثانيًا. محاولة تفسير البنوة بأنها بنوة روحية محاولة باطلة؛ لأن عيسى عليه السلام مثل سائر الخلق في ذلك:

الأبوة الروحية إن قُصد بها نفخ الروح، فالبشر جميعًا منفوخ فيهم الروح، فلا فرق في ذلك بين سائر البشر وبين المسيح عليه السلام، وإن قصد بها أنه مخلوق من أم بلا أب بشري، فإن آدم عليه السلام مخلوق من غير أب ولا أم، فأيهما أولى بالأبوة لو صحَّت؟!

وإن قصدتم بالأبوة الروحية أبوة الشيخ لمريديه، فهي أبوة روحية؛ لأنه يربي أرواحهم، وهم يتأثرون به في أخلاقهم، وصفاتهم المعنوية، لا أنهم يستمدون منه أسباب الحياة الجسدية، فلم يخرجوا من صلبه، ولكنهم نتاج عقله وتهذيبه، وتأثيره الروحي، إن قصد ذلك، فليس عيسى وحده ابنًا روحيًّا لله عز وجل بل كل المؤمنين الذين تهذبهم وتربيهم تعاليم الإله الواحد أبناء روحانيون لله عز وجل بهذا المعنى.

لكن وصف النصارى للأبوة بأنها أبوة روحية، يتعارض مع عقيدتهم في التجسيد، فإنهم يقولون: إن الكلمة تجسدت فصارت إلهًا، وابنًا لله، فكيف تكون روحية، وهي متجسدة، وصارت جسد إنسان؟

إن عقيدتهم في يسوع - بإقرارهم - تقضي بأن المسيح عليه السلام يجب أن يكون إما مجنونًا، أو سيئًا، أو إلهًا[1]، وتعالى الله أن يكون العبد المخلوق إلهًا.

والأب والابن من الأمور المتلازمة، فإذا وجد أب، وجد ابن، وإذا وجد ابن وجد أب، فلا وجود لأحدهما بدون الآخر، وذلك في غير آدم، وحواء، وعيسى. والبنوة نتاج زوجين متزوجين شرعًا، أو بطريقة مشروعة، أقرها الشرع وباركها، وقامت على شروط الشرع.

وأما البنوة بالتبني - كما زعموا - كبنوة زيد بن حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك عُرفٌ كان سائدًا، وهو عُرف فاسد باطل، وليس شريعة متبعة، وما عدا الأبوة الحقيقية التي ذكرناها - الأبوة الشرعية الناتجة عن زواج مشروع - فأبوة وبنوة مجازية، ومن ذلك قولنا: النور ابن النار، أو أبو الخير.

ثالثًا. إقرار عيسى عليه السلام ببشريته في الكتاب المقدس، وبكونه عبدًا لله:

يشير د. عبد المنعم فؤاد إلى أن الكتاب المقدس جاء فيه ما يقرر بشرية المسيح على لسان المسيح نفسه، وأنه ليس إلا عبدًا لله، أرسله برسالته ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولكن القوم ضلوا، فعبدوه من دون الله، والمسيح منهم براء، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

---

١. يعترف موريس وايلز - أستاذ الإلهيات، والكتاب المقدس في كلية المسيح، بأكسفورد - بأن القساوسة كانوا يعلمونه هذه العبارة في وصف التثبيت للخدمة الكهنوتية انظر: أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م، ص٣١.

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (116)﴾ (المائدة).

وقد جاء في سفر أعمال الرسل قول بطرس عن السيد المسيح: "أيها الرجال الإسرائيليون، اسمعوا هذه الأقوال، يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقُوَّات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم، كما أنتم أيضًا تعلمون". (أعمال الرسل ٢: ٢٢)، فلم يقل بطرس: إن المسيح إله، ولا ابن إله، وإنما قال: هو رجل أجرى الله على يده معجزات، وكذلك قال بطرس في السفر نفسه: "يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جال يصنع خيرًا، ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس، لأن الله كان معه". (أعمال الرسل ١٠: ٣٨)، فقال: إن الله كان معه، كما أن الله مع جميع المرسلين، ولم يقل: إنه إله ولا ابن إله"، وكل هذا يبين لنا أن المسيح عليه السلام إنسان بشر، وأنه رسول الله، وأنه ليس إلا نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل.

والمسيح دعا إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، فقد جاء في إنجيل لوقا أنه سأله رئيس المجمع قائلًا: "أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلَّا واحد وهو الله". (لوقا ١٨: ١٨، ١٩).

لقد كان المسيح حريصًا على نفي صفة الصلاح عن نفسه، وردها إلى الله وحده، فكيف يُقال بعد ذلك: إن المسيح إله، أو ابن إله، ولما جاء رجل من الكتبة، وسمعهم يتحاورون رأى حُسْن إجابة يسوع، فسأله: "أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد". (مرقس ١٢: ٢٨، ٢٩)، فلم يَدَّعِ أنه إله يُعبد، ولكن موقفه أمام الله كموقف كل أنبياء بني إسرائيل.

هذه هي اعترافات السيد المسيح عليه السلام من كتبهم، فهل بعد ذلك يثبتون للمسيح الألوهية، أو الربوبية أو حتى البنوة؟ سبحان القائل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (1) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (4)﴾ (الإخلاص)[1].

الخلاصة:

- إنه لو كان أحد يستحق البنوة الروحانية من الله عز وجل، لكان أحق الناس بذلك آدم عليه السلام؛ إذ إنه أول من خُلِقَ من البشر، وأوّل من نفخ فيه الروح من الله عز وجل.
- مثل عيسى عليه السلام في البنوة الروحية التي يزعمونها كمثل سائر البشر في ذلك، ولم يتميز عن أحد في ذلك؛ فالطبيعة البشرية طبيعة واحدة.
- أقر عيسى عليه السلام ببشريته، وذلك بإخبار الكتاب المقدس، وإقراره عليه السلام على نفسه من كتبهم، وهذا صريح في كتاب الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ

١. المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مرجع سابق، ص٨٦ وما بعدها.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة).

الشبهة السادسة والثمانون

الزعم أن المسلمين يُثبتون العصمة للمسيح وينفونها عن محمد ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن المسلمين يُقرُّون أن المسيح معصوم، وأنهم لم يثبتوا العصمة للنبي محمد ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) عقيدة المسلمين في جميع الأنبياء والرسل أنهم جميعًا معصومون، وليس المسيح عليه السلام وحده، ومن ادعى غير ذلك فهو جاحد لا عقل له.

٢) النبي محمد ﷺ معصوم في قوله، وفعله، وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلًا ونقلًا عند جميع المسلمين، ولم يخالف منهم في ذلك أحد.

التفصيل:

أولا. عقيدة المسلمين في جميع الأنبياء والرسل واحدة، وهي أنهم جميعًا معصومون:

والعصمة في اللغة تعني: المنع، تقول: اعتصمت بالله: إذا امتنعت بلطفه من المعصية[1]. أما العصمة في الاصطلاح الشرعي فلها تعريفات متعددة أوضحها، وأنسبها للمعنى اللغوي أنها: لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير، ويزجره عن الشر، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء[2].

وفي عصمة الأنبياء من المعاصي قبل النبوة يتردد سؤال هو: هل يُجَوِّز العقل صدور الذنب من الأنبياء قبل النبوة أو لا؟

وللجواب عن هذا السؤال نوضح أن الذنوب تنقسم قسمين:

الأول: يستقل العقل بإدراك أنه ذنبٌ فَيُنَفِّر صاحبه من ارتكابه كالزنا، والقتل العمد، ونحوهما، فهذا لا يُجَوِّز العقل صدوره منهم **لأمرين هما**:

١. أن عقل الإنسان العادي الصحيح ينفر عنه، والأنبياء أصح الناس عقولًا، فهم أولى بالامتناع والنفرة عنه.

٢. أن صدور هذا النوع من الذنوب منهم يكون وصمة عار تزعزع الثقة بهم - بعد النبوة - وتنفر الناس من اتباعهم.

والثاني: هو ما يتوقف معرفة أنه ذنب على الشرع، كالتعامل بالربا مثلًا، فهذا النوع لا مانع لدى العقل من فعله، ولا تشريع قبل البعثة يمنع منه، ولا يُنَفِّرُ أتباع الأنبياء بعد البعثة، ولم ينقل إلينا أن أحدًا من الأنبياء قد فعل شيئًا منه قبل بعثته.

ولما كان الله عز وجل لم يرسل إلى خلقه إلا من هو أعقل أهل زمانه، وأقواهم فطرة، وأحسنهم خُلُقًا وخَلْقًا؛ كان الأنبياء معصومين قبل النبوة وبعدها، ولم يقع

(*)الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

١. لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، مادة: عصم.

٢. نسيم الرياض، أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، د. ت، ج٤، ص٣٩.

ذنب من أحدهم قط.

والأنبياء في هذه العصمة من الذنوب سواء؛ لأنه لا فرق بين نبي وآخر في عصمة الله ﷻ لهم، وأما صدور الصغائر قبل البعثة منهم - عليهم السلام - فلا مانع من وقوعها عمدًا أو سهوًا؛ لعدم قيام دليل على المنع. ولا خلاف أن الأنبياء معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها، وتحط منزلته، وتسقط مروءته، وأما وقوع الصغائر من الأنبياء سهوًا، أو خطأً في الاجتهاد فيجوز، وعلى هذا يحمل ما نسب إلى بعضهم من ذنوب في القرآن الكريم، والحديث الشريف، عوتبوا عليها، وأشفقوا منها، واستغفروا، وتابوا[1].

فما ذكر في القرآن الكريم عن بعضهم يظهر منزلتهم برجوعهم إلى الله ﷻ، واعترافهم بتقصيرهم في جنب الله، فهذا يظهر مكانتهم ولا يزري بهم، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معصومون زمان النبوة عن الكبائر والصغائر. أما الخطأ على السهو فهو جائز في غير الوحي والتشريع[2]®.

ثانيًا. النبي محمد ﷺ معصوم في قوله وفعله وبلاغه عن الله، وهذا ثابت عقلا ونقلا عند جميع المسلمين:

اختار الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات من لدن آدم، وحواء إلى أبيه وأمه، وهذا من عناية الله ﷻ بنبيه ﷺ من قبل أن يولد. وبعد أن ولد حفظه الله ﷻ من الشيطان، فلم يجعل له سبيلًا إلى قلب محمد ﷺ؛ فقد شق صدره وقلبه وهو صغير، واستخرجت منه العلقة السوداء، التي هي حظ الشيطان من الإنسان، ثم غُسل قلبه حتى نُقِّيَ[3].

وحفظه ربه من قبائح الجاهلية ومساوئها، فلم يتدنس بدنسها، يدل على هذا ما جاء عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية - أي: ويفعلونه - إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله ﷻ منهما؛ قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها: أبصِرْ لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان قد تزوج بفلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الصوت، فغلبتني عيناي، فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك، فوالله ما هممت بشيء من ذلك - بعد - حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته"[4].

وثبت النبي ﷺ على هجر المآثم، فكان على الطريق المستقيم لم يعدل عنه، وأقسم الحق تبارك وتعالى أن نبيه ﷺ لم يعدل عن الطريق المستقيم، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا

1. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١١٨، ١١٩.
2. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق. ص٤١: ٤٧.

® في **"عصمة الأنبياء"** طالع: الشبهة الثانية بعد المائة، من هذا الجزء.

3. الطبقات الكبرى، ابن سعد، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د. ت، ج١، ص١٣١.
4. حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه صحيح ابن حبان.

يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ (النجم).

قال البيضاوي في معنى الآية: ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، وما اعتقد باطلًا ـ والمراد نفي ما ينسبون إليه ـ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى[1]، قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (آل عمران).

ويضيف ابن كثير إلى معنى الآية: "لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم؛ ليتمكنوا من مخاطبته، وسؤاله، ومجالسته، والانتفاع به، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته، ومراجعته في فهم الكلام عنه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يعني: القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: القرآن والسنة النبوية، ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ هذا الرسول ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لفي غي وجهلٍ ظاهر بيِّن لكل أحد"[2].

ومما وصف به نبينا ﷺ في التوراة والإنجيل أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وإذا كان ﷺ آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فهل يترك معروفًا، أو يأتي منكرًا؟ كلا. ومن هنا يُقطع ببعده عن المآثم، ونزاهته عن كل ما يخالف دعوته، وتثبت له العصمة، ثم إن ربه قد وصفه بأنه نور يضيء للناس حياتهم، وتبصر به بصائرهم، ويخرجهم من ظلمات جهالاتهم، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأحزاب).

ومن كان بهذه المكانة؛ فإنه يكون في أقواله وأفعاله مثالًا يحتذى به في فعل كل خير، والبعد عن كل شر؛ لأن من يترك الخير، أو يفعل الشر لا يهدي غيره، ولا يضيء للآخرين حياتهم.

وحتى يستضاء بنوره، ويهتدى بهديه كان ﷺ متواضعًا للمؤمنين رفيقًا بهم، كما أمره ربه بذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء).

وكان متسامحًا يعفو عن المسيئين، ويأمر بالمعروف، ولا يكافئ الجاهلين بمثل أفعالهم تنفيذًا لأمر ربه بذلك في قول الله ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف).

ولا عجب أن يكون ﷺ على هذا الخلق العالي؛ وقد اقتدى بهدي الرسل جميعًا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كما أمره ربه بقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠) وتخلق ﷺ بأخلاقهم.

---

١. أنوار التنزيل، البيضاوي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٠.

٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٤.

وأخيرًا، وبعد زمان طويل بدأ المنصفون من غير المسلمين في الاعتراف بصدق محمد ﷺ وكمال رسالته، واعتباره "الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على كلا المستويين: الديني والدنيوي، فهو قد دعا إلى الإسلام، ونراه كواحد من أعظم الديانات، وبعد أربعة عشر قرنًا من وفاته؛ فإن أثره ما يزال متجددًا"[1] ®.

الخلاصة:

- الأنبياء كلهم معصومون، والمسلمون يعتقدون لجميعهم العصمة، والمسلمون مأمورون بعدم التفرقة بين أحد من رسل الله ﷻ؛ فالأنبياء في العصمة سواء، وهم معصومون عن المعاصي فلا تقع منهم في زمان النبوة، أما وقوعها منهم على سبيل السهو، فهو جائز في غير الوحي والتشريع.
- لقد تكفل الله ﷻ بحفظ النبي ﷺ وعصمته قبل البعثة وبعدها، ولا عجب أن يكون ﷺ على هذا الخُلق العالي؛ فإنه اقتدى بهدي الرسل جميعًا - عليهم الصلاة والسلام - كما أمره ربه بقوله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ ومن يتخلق بأخلاق الرسل جميعًا، لا شك في أنه يكون أسرع الناس في الخيرات، وأبعدهم عن المعاصي.

1. انظر: المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارت، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.

® في **"عصمة النبي في تبليغ الوحي"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"عصمة النبي وبطلان قصة الغرانيق"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. وفي **"عصمة النبي من كيد الشيطان وتمنيته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين؛ من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

الشبهة السابعة والثمانون

ادعاء أن القرآن الكريم يقرر ألوهية المسيح عليه السلام (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن يقرر أن المسيح إله، ويستدلون على ذلك بقوله ﷻ عن المسيح: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء: ١٧١)، وقوله تبارك وتعالى حكاية عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٩)، فيستدلون بالآية الأولى على أن المسيح ابن الله، والآية الثانية على أنه يشارك الله ﷻ بصفات منها: صفة الخلق وإحياء الموتى وعلم الغيب، كما يزعم هؤلاء أن المسيح عليه السلام قال عن نفسه: أنا ابن

(*) مناظرة بين الإسلام والنصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، مرجع سابق. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

® في **"إبطال القرآن الكريم ألوهية المسيح"** طالع: الشبهة السادسة. وفي **"إبطال القرآن الكريم لاعتقاد النصارى ألوهية عيسى ومريم"** طالع: الشبهة الحادية والستين؛ من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها). وفي **"تهافت الاستدلال بخلق عيسى للطير على ألوهيته"** طالع: الشبهة الثامنة والثمانين. وفي **"وصف عيسى بالديَّان ومدى دلالته على ألوهيته"** طالع: الشبهة التسعين؛ من هذا الجزء.

الله، وأن الإسلام لا ينكر عقيدة المسيحيين في ألوهية المسيح، مستدلين على ذلك بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السُّدِّي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى، ثم قالت لها: إن ما في بطني - يحيى عليه السلام - يسجد لما في بطنك - عيسى عليه السلام - والسجود لا يكون إلا لإله. وهم بهذا التقول على القرآن الكريم وعلى علماء المسلمين يهدفون إلى إثبات الألوهية للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الكلمة في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) هي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته، أو قد تكون هي أمر التكوين أي قوله: ﴿كُن﴾، ومن هنا صح إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من باب إطلاق المصدر على المفعول في اللغة العربية.

٢) الله عز وجل هو الذي أوجد المعجزات وأظهرها على يد عيسى عليه السلام تأييدًا وتصديقًا له في نبوته ورسالته.

٣) لم يثبت عن المسيح عليه السلام أنه قال عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقًا من النصارى هم الذين زعموا ذلك، ولا يوجد عند النصارى شهادة صريحة على لسان المسيح تؤيد ألوهيته، بل على النقيض من ذلك يوجد الكثير من الدلائل على بشريته.

٤) حوار النبي صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، حول طبيعة المسيح أثبت عقلًا، ونقلًا بشرية المسيح وعدم ألوهيته.

٥) ما نسب إلى السُّدي - على فرض صحة نسبته إليه - ليس حجة على الإسلام؛ لأنه لم يرد في القرآن الكريم، أو السنة المطهرة ما يؤيده، والسجود هنا بمعنى التقدير والاحترام، وليس سجود العبادة كما فهم المتوهمون.

التفصيل:

أولا. الفهم الصحيح لمعنى الكلمة في الآية:

لتفنيد هذه الشبهة لا بد من تفصيل القول في جزأين رئيسين في الآية التي معنا، الجزء الأول قول الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والجزء الثاني قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، ولنبدأ بالجزء الأول، فنقول: إن "كلمة الله" مركبة من جزأين: مضاف "كلمة"، ومضاف إليه "الله"، وإذا كان الأمر كذلك، فإما أن نقول: إن كل مضاف لله عز وجل هو صفة من صفاته، أو نقول: إن كل مضاف لله عز وجل ليس صفة من صفاته، وبعبارة أخرى، إما أن نقول: إن كل مضاف لله مخلوق، أو إن كل مضاف لله غير مخلوق، وإذا قلنا: إن كل مضاف لله صفة من صفاته وهو غير مخلوق؛ فإنا سنصطدم بآيات في القرآن، وكذلك بنصوص في الإنجيل، يضاف فيها الشيء إلى الله، وهو ليس صفة من صفاته، بل هو مخلوق من مخلوقاته.

كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾(الأعراف: ٧٣) وكما نقول: بيت الله، وأرض الله وغير ذلك، وإذا عكسنا القضية، وقلنا: إن كل مضاف لله مخلوق؛ فإننا كذلك سنصطدم بآيات ونصوص أخرى، كما نقول: علم الله، وحياة الله، وقدرة الله. إذن لا بد من التفريق بين ما

يضاف إلى الله؛ فإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا منفصلًا قائمًا بنفسه، كالناقة، والبيت، والأرض فهو مخلوق، وإذا كان ما يضاف إلى الله شيئًا غير منفصل، أي: صفة من صفاته، فيكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومن البدهي أن يكون هذا غير مخلوق، إذ الصفة تابعة للموصوف ولا تقوم إلا به، فلا تستقل بنفسها بحال.

أما الجزء الثاني، فهو "كلمة الله"، وهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ"الكلمة" هي صفة الله تعالى، وليست شيئًا خارجًا عن ذاته حتى يقال: إن المسيح هو الكلمة، أو يقال: إنه جوهر خُلق بنفسه كما يزعم النصارى.

فخلاصة هذا الوجه أن "كلمة الله" صفة من صفاته وكلامه كذلك، وإذا كان الكلام صفة من صفاته فليس شيئًا منفصلًا عنه، لما تقرر آنفًا من أن الصفة لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، وأيضًا فإن "كلمة الله" ليست ـ بداهة ـ جوهرًا مستقلًا، فضلًا عن أن تتجسد في صورة المسيح.

إن أبى المغرضون ما سبق، وقالوا: بل المسيح هو "الكلمة" وهو الرب، وهو خالق وليس بمخلوق، إذ كيف تكون الكلمة مخلوقة؟، فالجواب: إذا سلمنا بأن المسيح هو "الكلمة" وهو الخالق، فكيف يليق بالخالق أن يُلقى إلى مخلوق (السيدة مريم)، إن الخالق حقيقة لا يلقيه شيء، بل هو يلقي غيره.

فلو كان خالقًا ما أُلقِيَ، ولما قال الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾(النساء: ١٧١)؛أي: المسيح عيسى، ومن ثم كان لزامًا علينا أن نبين المراد بكلمة الله الواردة في الآية موضوع النقاش: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والجواب على ذلك أن نقول: إن المراد من "كلمة الله" يشتمل على معنيين كلاهما صحيح، ولا يعارض أحدهما الآخر:

المعنى الأول: أن قوله: "وكلمته" الكلمة هنا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ومعنى الآية على هذا: أن كلمة الله ـ التي هي صفته ـ ألقاها إلى مريم ـ عليها السلام ـ لتحمل بعيسى عليه السلام، وهذه الكلمة هي الأمر الكوني الذي يخلق الله به مخلوقاته وهي كلمة "كن"؛ ولهذا قال تعالى في خلق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران) فكما أن آدم خُلق بكلمة "كن"، فكذلك خُلق عيسى، فـ "الكلمة" التي ألقاها الله إلى مريم هي كلمة "كن"، وعيسى خلق بهذه "الكلمة" وليس هو "الكلمة" نفسها.

المعنى الثاني: أن قوله "كلمته" هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فـ"الكلمة" هنا عيسى عليه السلام وهو مخلوق؛ لأنه منفصل، وقد بيَّنا سابقًا أن إضافة الشيء القائم بذاته إلى الله، هو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، فيكون المراد بـ "الكلمة" هنا عيسى، وأضافه الله إلى نفسه تشريفًا له وتكريمًا. فإن قلتم: كيف يسمي الله عز وجل عيسى "كلمة"، والكلمة صفة الله؟ فالجواب: أنه ليس المراد هنا الصفة، بل هذا من باب إطلاق المصدر، وإرادة المفعول نفسه، كما نقول: هذا خلق الله، ونعني: هذا مخلوق الله؛ لأن خلق الله نفسه فعل من أفعاله، لكن المراد هنا المفعول، أي المخلوق، ومثل قولنا: أتى أمر الله، يعني المأمور به، أي ما أمر الله به،

وليس نفس الأمر، فإن الأمر فعل من الله تعالى.

والمعنى الثاني للآية راجع عند التحقيق إلى المعنى الأول؛ فإننا إذا قلنا: إن عيسى "كلمة الله" بمعنى أنه نتيجة "الكلمة"، ومخلوق بـ "الكلمة"، فهذا يدل على "الكلمة" أساسًا، وهو فعل الله، ويدل على عيسى عليه السلام وهو الذي خُلِقَ بـ "الكلمة".

فحاصل هذا الجزء من الآية أن "كلمة الله" التي ألقاها إلى مريم هي أمر التكوين، أي قوله ﴿كُن﴾، فكان عيسى عليه السلام، ومن هنا صح إطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام، من باب إطلاق المصدر على المفعول، وكما يسمى المعلوم علمًا، والمقدور قدرة والمأمور أمرًا، فكذلك يسمى المخلوق بالكلمة كلمة.

هذا جواب ما يتعلق بالجزء الأول من الآية، أما الجزء الثاني، وهو قوله عز وجل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فليس فيه أيضًا دلالة على ألوهية المسيح أو بنوته لله، فضلًا عن أن يكون فيه أي دليل لما يدَّعيه النصارى عن طبيعة عيسى عليه السلام، **وبيان ذلك فيما يلي:**

١. أن قول الله عز وجل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ليس فيه ما يدل على أن عيسى جزء من الله تعالى، أو أن جزءًا من الله تعالى قد حلَّ في عيسى، وغاية ما في الأمر هنا أننا أمام احتمالَيْنِ لا ثالث لهما: فإما أن نقول: إن هذه "الروح" مخلوقة، وإما أن نقول: إنها غير مخلوقة؛ فإذا كانت الروح مخلوقة، فإما أن يكون خلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، ولهذا قال عنها: "منه"، أو خلقها الله في الخارج؛ فإذا كانت هذه الروح غير مخلوقة، فكيف يصح عقلًا أن تنفصل عن الله تعالى لتتجسد في شخص بشري؟ وهل هذا إلا طعن في الربوبية نفسها، لتجويز التجزؤ والتبعض على الخالق عز وجل؛ وإذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في ذاته، ثم انفصلت عنه، فهذا معناه تجويز إحداث الحوادث المخلوقة المربوبة في ذات الإله سبحانه، وهذا عين الإلحاد والزندقة، أما إذا كانت الروح مخلوقة، وخلقها الله في الخارج، فهذا يدل على أن الله عز وجل خلق الروح ونفخها في مريم، ليكون بعد ذلك تمام خلق عيسى عليه السلام ومولده.

هذا هو عيسى في التصور الصحيح، أما ما سوى ذلك فهو مجرد ترهات تأباها الفِطَر السليمة، فضلًا عن العقول المستقيمة.

٢. ما دمتم تقرُّون أنه ليس ثمة أحد يحمل صفات الألوهية، أو البنوة لله عز وجل إلا المسيح عليه السلام، وتستدلون على ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فحينئذ يلزمكم أن تقولوا: إن آدم عليه السلام أحق بالبنوة من عيسى، حيث قال الله في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (الحجر: ٢٩)، ولا شك أن القول بهذا حجة عليكم لا لكم، فإذا كان قوله عز وجل: ﴿مِن رُّوحِى﴾ في حق آدم معناه الروح المخلوقة، وأن هذه الروح ليست صفة لله عز وجل فهي كذلك في حق عيسى؛ إذ اللفظ واحد، بل إن الإعجاز في خلق آدم بلا أب ولا أم أعظم من الإعجاز في خلق عيسى بأم بلا أب، وحسب قولكم يكون آدم حينئذٍ أحق بالبنوة والألوهية من عيسى، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولو سلمنا بأن الروح في الآية هو جزء من الإله، فهذا يقتضي أن يكون في الإله أقنومان - حسب اعتقاد النصارى - أقنوم الكلمة، وأقنوم الروح، وفي هذا تناقض في موقف النصارى؛ إذ إنهم لا يقولون إلا

بأقنوم "الكلمة"، ولا يقولون بأقنوم "الروح".

٣. لو كان معنى "منه" أي: جزء من الله، لكانت السماوات والأرض، وكل مخلوق من مخلوقات الله جزءًا من الله، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣)، وقال عن آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣) ، إن معنى "منه" وفق السياق القرآني، أي: منه إيجادًا وخلقًا، فـ "من" في الآية لابتداء الغاية، وليس المعنى أن تلك الروح جزء من الله®.

وبعد ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم في هذا الموضع وفي غيره، يقرر بشرية المسيح عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله، وأنه ليس له من صفة الألوهية شيء، وقد قال الله تعالى في نفس الآية نفسها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ١٧١) ، فهو ابن مريم وليس ابن الله، وهو رسول الله وليس هو الله تعالى، وقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ٧٢)، وقال الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة: ٧٣)[1].

فهل بعد هذا الاستدلال العقلي؛ والبيان القرآني يبقى متمسك بشبهات أوهى من بيت العنكبوت؟ أو يلصق بالقرآن ما ليس منه؟

ثانيًا. إن الله ﷻ هو الذي أوجد المعجزات وأظهرها على يد عيسى عليه السلام تأييدًا وتصديقًا له في نبوته ورسالته:

إن الاستدلال على ألوهية المسيح بالمعجزات التي جُسِّدَتْ على يديه باطل؛ فعيسى عليه السلام لم يُوجِد هذه المعجزات، وإنما الله ﷻ هو الذي أوجدها وأظهرها على يديه، وعيسى عليه السلام لما نفخ في الأموات، أو ناداهم كما أمره الله، فكان عقب هذا أن أحياهم الله ﷻ فنُسب الإحياء إلى عيسى على اعتبار أنه باشر أسبابه بأمر الله، وهذه معجزة دلت على صدقه في نبوته ورسالته؛ ولذلك صَدَّر الحديث عن هذه المعجزات بقوله ﷻ على لسانه عليه السلام: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٩).

وإننا إذ نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام يجب أن نلاحظ شيئًا مهمًّا، هو أن الله ﷻ أكد على نسبة الإرادة لله تعالى ـ بإذن الله ـ رغم أنَّ عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله، فقال الله ﷻ على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (آل عمران).

ذلك أن الله ﷻ قد احتفظ بسر خلقه لنفسه، ولم يعطه لعبد من عباده، ومن هنا كان لزامًا أن تأتي كلمة "بإذن الله" بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله ﷻ، ثم تمضي السورة: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الشبهة الثانية والثمانين، من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

١. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار ابن القيم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٥ وما بعدها.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ذلك أن الشافي هو الله ﷻ وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا كانت هذه المعجزات إعلانًا من الله، وهو الفاعل لا يشرك أحدًا معه في ذلك، وإذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول؛ فإنها تتم بإذن الله، فإنه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يشفي من المرض.

فعيسى عليه السلام من أنبياء الله ورسله الذين أيدهم الله بالمعجزات وإحياء الموتى، والله لم يُجْرِ المعجزات على يد عيسى عليه السلام وحده، ولكنه أجراها على يد غيره من الأنبياء كذلك، فلو كان ذلك دليلًا على ألوهية عيسى؛ لكان ـ كذلك ـ دليلًا على ألوهية كل من ظهر على يديه إحياء الموتى.

ولقد ظهر إحياء الموتى على يد موسى عليه السلام عندما احتكم إليه المختصمون من قومه في شأن القتيل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢)، وأحيا الله ﷻ على يد إبراهيم عليه السلام الطير بعد أن ذبحها وقطعها، وخلطها، وجعل على كل جبل منهنَّ جزءًا، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة).

فإن قالوا: استدللنا على كون المسيح إلهًا؛ لأنه أحيا الموتى، ولا يحيي الموتى إلا الله، قلنا لهم: فاجعلوا موسى إلهًا آخر؛ فقد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه، وأتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره، ولا ما يقاربه، فقد جعل العصا حيوانًا عظيمًا ـ ثعبانًا ـ فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولًا.

فإن قلتم ـ أيها النصارى ـ: جعلناه إلهًا للعجائب التي ظهرت على يديه، قلنا: إن عجائب موسى أعجب وأعجب، وهذا إيليا النبي بارك على دقيق العجوز ودهنها، فلم ينفد ما في جرابها من الدقيق، وما في قارورتها من الدهن سبع سنين.

وإن جعلتموه إلهًا؛ لكونه أطعم من الأرغفة اليسيرة آلافًا من الناس، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المنِّ والسلوى، وهذا محمد بن عبد الله ﷺ قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جدًّا حتى شبعوا وملئوا، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يملأ اليد حتى ملئوا كل سقاء في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر، فهل قال المسلمون بأنه إله؟!

وإن قلتم: جعلناه إلهًا؛ لأنه كان يعلم الغيب؛ إذ كان ينبئ أصحابه بطعامهم وشرابهم الذي يأكلونه أو يدخرونه في بيوتهم، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩).

فإننا نقول لكم: إن مصدر علمه بذلك هو الوحي، وقد جرت مثل هذه المعجزة على يدي يوسف عليه السلام حيث أخبر صاحبه في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ (يوسف: ٣٧)[1].

كما أن علم عيسى عليه السلام لبعض الأمور ليس من ذاته، وليس علمًا مطلقًا بكل غيب، ولكنه بإعلام الله

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٧ بتصرف.

له، وإيحائه إليه، وهو بعض الغيب، وليس كل الغيب، فالغيب كله لا يعلمه إلا الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، والعلم الذاتي لأي معلوم ليس إلا لله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، فالله يُعلم رسله من الغيب ما يجعله آية لهم على صدقهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ (الجن).

ولو كان عيسى عليه السلام إلهًا لعلم الغيب - كل الغيب - بذاته من غير إعلام الله له، ولعلم يوم القيامة، متى يكون؟ وقد أعلن في الإنجيل أنه لا يعلمها، وأن الله وحده هو الذي يعلمها.

جاء في إنجيل مرقس: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بها أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الآب، انظروا، اسهروا وصلُّوا؛ لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت". (مرقس ١٣: ٣٢)[1].

فلو كان المسيح عيسى عليه السلام إلهًا لعلم الغيب علمًا ذاتيًا، ولعلم موعد الساعة، فما عُلم بالذات لا يتخلف، لكنه اعترف بعدم علمها، وأنه لا يعلمها إلا الله عز وجل.

إن معجزات عيسى عليه السلام مثلُها كمثل معجزات غيره من الأنبياء والرسل كناقة صالح، وعدم إحراق النار لإبراهيم، وكونها بردًا وسلامًا عليه، وعصا موسى، ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخالدة، التي ما زالت تتحدى العالمين، وكل يوم يثبت للعقلاء صدقها وصدق من نقلها، وهي القرآن الكريم.

إن غرابة الخوارق التي جرت على يد المسيح لا تجعل منه إلهًا، بل تجعله آية على قدرة خالقه، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ (مريم: ٢١).

ثالثًا. لم يثبت عن المسيح أنه قال عن نفسه: إنه ابن الله، بل إن فريقًا من النصارى هم الذين زعموا ذلك:

إن عقيدة المسلمين في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد أمر المسيح عليه السلام أتباعه بعبادة الله وحده، وحذرهم من عاقبة الشرك بالله، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢)، فالمسيح عليه السلام لم يقل عن نفسه: إنه ابن الله تعالى، بل إن فريقًا من النصارى الذين غالوا فيه، ورفعوه عن درجة البشرية إلى درجة الألوهية هم الذين زعموا ذلك، يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾ (التوبة).

وقد جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: "الحق أقول لكم، من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على

١. رسالة للرد على رسالة تنصيرية شهيرة تزعم ألوهية المسيح من القرآن، إعداد وترتيب: محمود مهران، د. م، د. ن، د. ت.

ابـن الإنـسان". (يوحنـا ١: ٥١)، وكـذلك ورد أن المسيح عيسى عليه السلام يخاطب ربه على أنه الإله الواحـد، وأنه رسوله وليس ابن إله ولا إله: "وهذه هـي الحياة الأبدية أنت الإله الحقيقـي وحـدك، ويـسوع المـسيح الذي أرسلته". (يوحنا: ١٧: ٣).

فإن جعلتموه إلهًا؛ لأنه ادَّعـى ذلـك كـما تقولـون، فإما أن يكون الأمر كـما تقولـون عنـه، أو يكـون كـما ادعيتم عليه فهو أخو المسيح الدجال، ولـيس بمـؤمن ولا صادق، فضلًا عن أن يكون نبيًّـا كـريمًا، وجـزاؤه جهنم وبئس المـصير، كـما قـال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٢٩)، وكل من ادعى الألوهية من دون الله، فهو مـن أعظـم أعداء الله كفرعون، والنمرود، وأمثالهما من أعداء الله، فأخرجتم المسيح عـن كرامـة الله، ونبوتـه، ورسـالته، وجعلتموه من أعظم أعداء الله، ولهذا كنتم أشد الناس عداوة للمسيح في صورة محبٍّ مُوالٍ!

ومن أعظم ما يعرف به كذب المسيح الدجال، أنـه يدَّعي الألوهية، فيبعث الله عبده ورسوله مسيح الهدى ابن مريم فيقتله، ويُظهر للخلائق أنه كان كاذبًـا، هـذا فضلًا عـن أنـه لـو كـان إلهًـا لم يقتـل، فـضلًا عـن أن يصلب، ويُسمَّر ويُبصق في وجهه كما زعمتم!

ولو كان المسيح قد أقرّ بأنه عبد، ونبـي، ورسـول، كما شـهدت بهـذا الأناجيـل كلهـا ودلَّ عليـه العقـل، والفطـرة، وشـهدتم أنـتم لـه بالألوهيـة ـ وهـذا هـو الواقع ـ فلم لم تأتوا على ألوهيته ببينة؟ وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديـدة مـا يـصرِّح بعبوديتـه، وأنه مربوب مخلوق، وأنه ابن البشر، وأنـه لم يـزد عـن كونه نبيًّا رسولًا، وكنتم بهذا مكـذِّبين لـه ولكتـابكم، وصدقتم من كَذَبَ على الله وعليه وحرَّف في كتابكم!

وها هي نُقولٌ من الكتاب المقدس تؤكد على لسان المسيح نفي الألوهية عنه منها:

- "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا كـما أسـمع أَدِين، ودَيْنونَتي عادلـة؛ لأني لا أطلـب مـشيئتي، بـل مشيئة الآب الذي أرسلني". (يوحنا ٥: ٣٠).
- "قال لهـم يـسوع: متـى رفعـتم ابـن الإنـسان، فحينئذٍ تفهمون أني أنا هـو، ولـست أفعـل شـيئًا مـن نفسي، بل أتكلم بهذا كما علمني أبي، والـذي أرسـلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي؛ لأني في كـل حـين أفعل ما يرضيه". (يوحنا ٨: ٢٨).
- "فأخذ الجميع خوف، ومجَّـدوا الله قـائلين: قـد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه". (لوقا ٧: ١٦).
- "فلـما رأى النـاس الآيـة التـي صـنعها يـسوع قـالوا: إن هـذا هـو بالحقيقـة النبـي الآتي إلى العـالم". (يوحنا ٦: ١٤).
- "قال لها يسوع:«لا تلمسيني لأني لم أصعد بعـد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهـم:إني أصـعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم". (يوحنا ٢٠: ١٧).
- "يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَـل الله بقُـوَّات وعجائـب، وآيـات صـنعها الله بيـده في وسطكم". (أعمال الرسل ٢: ٢٢).
- "ولا تدعوا لكم أبًـا عـلى الأرض؛ لأن أبـاكم واحد، الذي في الـسماوات، ولا تـدعوا معلِّمـين؛ لأن معلِّمكم واحد المسيح". (متى ٢٣: ٩، ١٠).
- "تكلَّم يـسوع بهـذا ورفـع عينيـه نحـو الـسماء

وقال: «أيها الآب، قد أتت الساعة. مجِّد ابنك ليُمَجِّدَك ابنك أيضًا، إذ أعطيته سلطانًا على كل جسد ليُعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". (يوحنا ١٧: ١ ـ ٣).

- " إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠).
- "ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا. فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل". (متى ٢١: ١٠، ١١).
- "الحقَّ الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيِّده، ولا رسول أعظم من مُرسِله". (يوحنا ١٣: ١٦).
- "ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله"(يوحنا ٨: ٤٠).
- "الله لم يره أحد قط". (يوحنا ١: ١٨).
- "أبي أعظم مني". (يوحنا ١٤: ٢٨).

ومن الواضح أن المقصود بالابن: العبد؛ إذ لو كان المسيح ابنَ الله، لصار النصارى كلهم أبناء الله، إذ يقول الكتاب المقدس: "إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم"، أو آلهة كما يزعمون، وهذا ما لم يدَّعه أحد منهم. وهذه النصوص كما أسلفنا صريحة في نفي الألوهية عن المسيح، وتوقع النصارى في التناقض[1].

١. انظر: البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مرجع سابق.

رابعًا. حوار النبي ﷺ مع نصارى نجران، حول طبيعة المسيح أثبت عقلا ونقلا بشرية المسيح وعدم ألوهيته:

لقد رد القرآن على أهل التثليث، وأوضح في رده عليهم أن عيسى إنما أتى بعقيدة التوحيد، كما أنكر عيسى نفسه أن يكون إلهًا، ولكن عبد الله ورسوله، وقد حذر قومه من الشرك بالله ﷻ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويدل على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾ (المائدة). وذكر القرآن أن تأليه عيسى عليه السلام ليس إلا نوعًا من الغلوِّ، والقول على الله بغير حق، ولذلك يجب العدول عنه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (النساء: ١٧١).

ولم يكتف القرآن بالحديث عن بشرية عيسى عليه السلام ورسالته، وعبادته لربه، وتنزيهه لله ﷻ عن أن يكون له شريك في الألوهية، بل وصفه بصفات هي من صفات البشر، والله يتنزه عن هذه الحاجة وعما يرتبط بها، من جوع وضعف وهزال، وعما يترتب عليها من هضم وتخلص من بقايا الطعام، فالله ﷻ يُطْعِم ولا يُطعَم، وهو الرازق للعباد، ويطعمهم من خيره وهم لا يطعمونه، وهو الغني عن العالمين وهم مفتقرون إليه: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ (الذاريات).

فإذا كان المسيح عليه السلام يأكل الطعام، فإن ذلك دليل

حاسم على أنه بشر وليس إلهًا، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤيد حجة القرآن ويفصلها، وذلك في جدال الرسول ﷺ لنصارى نجران حول طبيعة المسيح، فقد أثبتوا له الألوهية؛ لأنه وُلِد من غير أب، وقالوا للرسول ﷺ: من أبوه؟ فقال لهم النبي ﷺ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ فقالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيُّوم على كل شيء يكلؤه، ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما عُلِّم؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحْدِث الحَدَث؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حَمَلَته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يُطعَم ويشرب الشراب ويحدث الحديث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا، ثم أبوا إلا جحودًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓمٓ ① ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ②﴾ (آل عمران)[1].

وقد كان مما جاء في هذه الآيات وصف الله بأنه الحي القيوم وقد مات عيسى وصلب - في قولهم - والقيوم: القائم على مكانه، من سلطانه في خلقه لا يزول، وقد زال عيسى - في قولهم - عن مكانه الذي كان به، وذهب عنه إلى غيره. وكان مما وصف الله ﷻ به نفسه قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٦)، أي: قد كان عيسى ممن صوَّرهم الله في الأرحام، ومثيرو هذه الشبهة لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه، فكيف يكون عيسى إلهًا[2]؟!

خامسًا. ما نسب إلى السُّدِّي ليس حجة على الإسلام؛ لأنه لم يرد في القرآن أو السنة المطهرة ما يؤيده، والسجود بمعنى الاحترام والتقدير لا العبادة:

استدل بعض النصارى على ألوهية المسيح بما جاء في تفسير أبي السعود من قول السُّدِّي: إن أم يحيى قابلت أم عيسى عليه السلام، ثم قالت لها: إن ما في بطني - يحيى عليه السلام - يسجد لما في بطنك - عيسى عليه السلام - قالوا: السجود لا يكون إلا لإله؟ والحق أننا لا نستطيع أن نَجْزِم بصحة نسبة هذا القول للسُّدِّي، ولو صحت نسبته إليه فلا تصح نسبته إلى أم يحيى؛ لأنه من كلام القصاصين.

وعلى فرض صحته، فالمراد بالسجود هنا التقدير والاعتراف بالفضل والنبوة، وليس سجود العبادة. وعلى كلٍّ فهذا القول ليس حجة على الإسلام، ما دام لم يَرِد في القرآن، ولا في السنة المطهرة، ولا عصمة لأحد بعد الأنبياء - عليهم السلام - وهذا الكلام لا ينهض أمام النصوص القاطعة بأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وأن الإله هو الله ﷻ وحده دون سواه.

أما الانتقال من هذا الدليل الضعيف إلى الزعم أن علماء المسلمين، ونصوص القرآن تقر بأن المسيح هو الله، فهذا عبث، وكلام مرسل يصطدم بواقع الإسلام

---

١. أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ١٥٤) برقم (٦٥٤٤).

٢. أصول العقيدة الإسلامية، د. محمد أبو خليفة، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٨٠.

وإجماع النصوص من القرآن والسنة. تلك النصوص التي تؤكد دون أدنى شك أو مواربة أن السيد المسيح إن هو إلا عبد الله ورسوله، وأنه يتبرأ من دعوى تأليه الناس، قال الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ١٧).

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ (المائدة)[1].

الخلاصة:

- لم يفهم النصارى القرآن الكريم، وما عرفوا أن الكلمة في قوله عز وجل: ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ هي ﴿ كُن ﴾ أي: بكلمة الله كان عيسى عليه السلام، وهذا واضح في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾.
- إن قوله عز وجل: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ليس فيه أيضًا دلالة على ألوهية المسيح عليه السلام أو بنوته لله؛ لأن هذا يؤدي إلى ألوهية آدم وبنوته لله، فقد قال الله في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾.
- المعجزة أمر الخارق للعادة، الذي يجريه الله على يد الأنبياء تصديقًا لهم، وما حدث لعيسى عليه السلام من معجزات إنما كان بإذن الله ومشيئته، وقد حدث مثلها مع أنبياء الله مثل: إبراهيم، وموسى، ويوسف - عليهم السلام - ولم يزعم أحد أنهم آلهة أو أبناء لله.
- إن الباحث في الكتاب المقدس لا يجد مثل هذا النص الذي يحتج به أهل التثليث على أن المسيح عليه السلام قال لهم: إنني أنا الله، فاعبدوني وصلوا لي وصوموا لأجلي؟ بل إن كتابهم المقدس يدل على أنه جاء ليدعوهم إلى عبادة الله، والإيمان برسالته، أي: إنه رسول وليس إله.
- إن ما نسبه أبو السعود للسُّدِّي، لا يصح أن يكون دليلًا على ألوهية المسيح؛ لأننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا القول، وإن ثبتت صحته، فلا يعد حجة على الإسلام، ما دام لم يَرِد في قرآن ولا سنة.

الشبهة الثامنة والثمانون

ادعاء ألوهية عيسى عليه السلام لأنه خالق مثل الله(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن عيسى عليه السلام يعمل أعمال

---

١. الشبكة الإسلامية، الخميس ٨/ ٩/ ٢٠٠٤م (شبهات حول القرآن وشبهات أخرى).

(*) هذا هو الحق: رد على مفتريات كاهن الكنيسة، محمد عبد اللطيف بن الخطيب، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.

® في **"تهافت الاستدلال بمعجزات عيسى على ألوهيته"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والثمانين. وفي **"تهافت الاستدلال بولادة المسيح بالروح القُدُس على ألوهيته"** و**"تهافت الاستدلال برفع عيسى إلى السماء على ألوهيته"** طالع: الشبهة الثانية والثمانين؛ من هذا الجزء.

الله تعالى؛ كالخلق، وأن الذي يخلق يُعبد، استنادًا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)، ويرمون بذلك إلى القول بألوهية عيسى عليه السلام.

وجها إبطال الشبهة:

١) عيسى عليه السلام لم يَخْلُق من عدم، ودوره اقتصر على النفخ، فتحول الطين إلى طير بإذن الله، ومن ثم فلا مزية لسيدنا عيسى عليه السلام بهذا الخلق ترفعه لمقام الألوهية.

٢) الإنجيل يشير إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع علم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية، فكيف ينسبون له الألوهية، وكتابهم ـ على الرغم من أنه محرّف ـ لم ينسبها له.

التفصيل:

أولا. عيسى عليه السلام لم يخلق الطين من عدم، بل نفخ فيه؛ فتحول إلى طير بإذن الله:

عيسى عليه السلام لم يَخْلُق من عدم، ولم يُنسب إليه في القرآن هذا النوع من الخلق الذي لا يتصف به أحد إلَّا الله تعالى، فهذا الخلق الذي هو الإيجاد من عدم استقلالًا ليس لأحد إلا لله، والقرآن الكريم أثبته لله تعالى ونفاه عن غيره، وتحدى بشدة أن يقوم أحد من المعبودات التي تعبد من دون الله بخلق أي شيء مثل خلق الله، فقال الله عز وجل: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: ١١)، وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النحل)، وقوله عز وجل: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩)، ويتضح من الآيات أن تحول الطين إلى طير ليس بيد عيسى عليه السلام وإنما هو بإذن الله، أما دور عيسى عليه السلام فهو مجرد النفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وذلك معجزة له عليه السلام أجراها الله على يديه كما أجرى مثل ذلك على أيدي بعض أنبياء بني إسرائيل[1].

الخلق لله هو الصنع والتقدير والإبداع من عدم وعلى غير مثال سابق، أما لعيسى فهو تصوير على مثال، يوضح ذلك صاحب كتاب "مدرسة الأنبياء" فيقول: صنع نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام تمثالًا من الطين كهيئة الطير، قيل: على صورة الخفاش أو الوطواط، ثم نفخ فيه فكان طائرًا بإذن الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي ﴾ (المائدة: ١١٠). وفي هذا الإطار ينبغي توضيح ما يلي:

لا يفهم من نسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام أنه شارك الله في الخلق، ذلك أن معنى الخلق هو التقدير والتصوير، ومعنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير أي: أقدر وأصنع وأصور مثل هيئة الطير، والخلق إذا نسب إلى الإنسان فهو صنع وتقدير على مثال سابق، وإذا نسب إلى الله فهو الصنع والتقدير، والإبداع على غير مثال سابق.

وبناء على ذلك فإن عيسى صنع تمثالًا من الطين،

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤٣٥.

ولم يوجد الطين من العدم، والله هو خالق الطين الذي هو مادة الطير. إن عيسى عليه السلام صنع التمثال على هيئة الطير، فهو لم يبتكر شكله من عنده، والله هو خالق الهيئة والصورة. إن عيسى عليه السلام إنما صنع ذلك بإذن الله الذي علمه الصنعة، ولولا الإذن الإلهي ما استطاع ذلك. إن النفخة التي نفخها عليه السلام في الطين فتحول بها إلى طير كانت بإذن الله، وهذا يعني أن الأمر كله متوقف على إذن الله، خالق الروح وواهبها[1].

لقد جاءت كلمة: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من قول عيسى ابن مريم عليه السلام وعلى لسانه، فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صنعه، لكنه بإذن الله، وإنما هو إنسان وعبد لله يفعل ما يأذن له به الله، وكأنه عليه السلام يريد أن يقول لقومه: إن كنتم فُتنتم بهذا فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم عليه السلام من باب أولى، حينما قطَّع الطير، وجعل على كل جبل جزءًا منهن ثم دعاه.

وبهذا يتضح أن معجزات المسيح عليه السلام - وقد ذكر القرآن بعضها - إنما هي كسائر معجزات الأنبياء لا تدل على ألوهيته، وإنما تدل على صدق نبوته وبشريته.

ثانيًا. الإنجيل يشير إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع علم الغيب الذي هو من خصائص الألوهية:

والإنجيل يشير إلى أن المسيح عيسى عليه السلام لم يدَّع الألوهية، ولم يدَّع عِلم الغيب، فلم يعرف موعد الساعة: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآب". (مرقس ١٣: ٣٢)، وكذلك لما طُلب منه إحياء أخي مَرْثَا، فذهبت أخته مريم معه إلى الجبَّانة، وهناك سألها: "أين وضعتموه"؟ (يوحنا ١١: ٣٤)، وكذلك لم يعرف مدة مرض المجنون، فقد سأل أباه: "كم من الزمن منذ أصابه هذا"؟ فقال: منذ صباه". (مرقس ٩: ٢١)، كذلك جاء شجرة التِّين هو وأصحابه؛ ليصيبوا منها ما يسد مَخْمَصتهم، فلم يجدوا فيها شيئًا: "فنظر شجرة تين على الطريق، وجاء إليها فلم يجد فيها شيئًا إلا ورقًا فقط". (متى ٢١: ١٩).

كما بَيَّن إنه رسول الله؛ حيث قال: "لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني". (يوحنا ٥: ٣٠)، كما شهدت له مرثا أنه نبي الله وحبيبه: "ولكني الآن أيضًا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه". (يوحنا ١١: ٢٢)، كما دعا الله وقت محنته، فقال: "يا أبتاه، إن أمكن فلتَعْبُر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". (متى ٢٦: ٣٩).

كما كان معروفًا بين شعبه أنه نبي: "فقال لهما: «ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟» فأجاب أحدهما، الذي اسمه كليوباس وقال له:«هل أنت متغرب وحدك في أورشليم، ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في هذه الأيام؟» فقال لهما:«وما هي؟» فقالا: المختصة بيسوع الناصري، الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب". (لوقا ٢٤: ١٧ - ١٩)، ونادته مريم المجدلية بقولها: "ربوني الذي تفسيره: يا معلم". (يوحنا ٢٠: ١٦)، والربانيون من الأحبار المعلمون في المعبد من نسل لاوي، وليست هذه من صفات الله.

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٥، ٣٢٦.

الخلاصة:

- عيسى عليه السلام لم يخلق الطين الذي خلق منه الطير، ولم يخلق الطير وكل دوره هو النفخ في هذا الطير فصار طيرًا بإذن الله عز وجل.
- معنى الخلق المنسوب إلى المسيح عيسى عليه السلام هو التقدير والتصوير، على مثال سابق، أما الخلق لله فهو الصنع والتقدير والإبداع على غير مثال سابق، فهو الإيجاد من عدم؛ لأن الله هو خالق الطين الذي هو مادة الطير، فدور عيسى عليه السلام هو تصوير هذا الطين على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيحول إلى طير بإذن الله تعالى، وهذا يعني أن الأمر متوقف على إذن الله تعالى، وبهذا البيان يتضح جليًّا لكل ذي عقل أن هذه معجزة لعيسى عليه السلام أجراها الله على يديه مثل الذي أجراه الله تعالى على يد إبراهيم عليه السلام تأييدًا له وتصديقًا لنبوته وهو عبد الله ورسوله.
- تشير الأناجيل إلى أن عيسى لم يدَّع الألوهية كما لم يدع علم الغيب الذي هو من خصائصها.

الشبهة التاسعة والثمانون

ادعاء أن القرآن الكريم أقرَّ أزلية المسيح(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم أقرَّ أزلية المسيح عليه السلام، ويستدلون خطأً على زعمهم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٥)، قائلين: إن القرآن شهد للمسيح بأنه كلمة الله، وبما أن الله له صفة القدم، فإن كلمة الله قديمة، ونتيجة لذلك يكون عيسى عليه السلام أزليًّا.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأزلي هو الذي لا أوَّل لوجوده، ولا يكون إلا ذاتًا وهو الله عز وجل، وما عداه فهو حادث له أوَّل، وبهذا يتضح مفهوم الأزلية، وأنه لا ينطبق على أحد من الخلق.

٢) إن المراد بلفظ ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ خمسة أوجه هي:

- المراد بالكلمة كلمة التكوين، لا كلمة الوحي.
- لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرَّفه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه.
- لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به.
- المراد "بالكلمة" كلمة البشارة.
- المراد "بالكلمة" الآية.

التفصيل:

أولا. الأزلي هو الذي لا أول لوجوده ولا يكون إلا ذاتًا وهو الله عز وجل، وما عداه حادث له أوّل:

إن كل موجود يُسأل عمن أوجده، فهو حادث، ومن أوجده إما أن يكون أزليًّا أو حادثًا، فإن كان حادثًا فهو يُسأل أيضًا عمن أوجده، وهكذا تنتهي سلسلة المحدثات بنا إلى موجود واحد ليس قبله

(*) موقع الكلمة. مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، د. أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، د. ت.

موجود، وهو الله ﷻ، فالأزلي هو الله وحده، وصفاته أزلية؛ لأنه لا يكون إلهًا حقًّا إلا بتحققه بصفاته، والصفات لا تتحول إلى ذوات، كما زعموا تحوُّل الكلمة إلى المسيح، وزاد بعضهم الأمر جهلًا على جهل حينما زعموا أن عيسى عليه السلام كلام الله تعالى، وليس فقط كلمته، فخالفوا كتابهم المحرف، ومن على دينهم، وأضافوا إلى باطلهم باطلًا! كيف يكون عيسى كلام الله تعالى؟ هل يقصدون أن الإنجيل هو عيسى عليه السلام مثلًا؟!

ثانيًا. المراد بـ" كلمة " يقع على خمسة أوجه هي:

١. أن الكلمة هي كلمة التكوين لا كلمة الوحي؛ ذلك أنه لمَّا كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري ﷻ مما يعلو على عقول البشر، فقد عبَّر عنه ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ (يس)، فكلمة "كن" هي كلمة التكوين، وهنا يقال: إن كل شيء قد خلق بكلمة التكوين، وخُصَّ المسيح عليه السلام بإطلاق الكلمة عليه؛ لأن الأشياء تنسب في العادة والعرف عند البشر إلى أسبابها، ولَمَّا فُقِدَ في تكوين المسيح تلقيح ماء الرجل لما في الرَّحم من البويضات التي يتكوَّن منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله؛ لأن الله أكمل هذه الحلقة المفقودة في عملية خلق المسيح عليه السلام بقوله: ﴿كُن﴾ فكان.

٢. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرَّفه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين ماديًّا محضًا، قاله الرازي، وجعل من قبيل ذلك وصف الناس للسلطان العادل بظلّ الله ونوره؛ لأنه سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، قال: فكذلك كان عيسى سببًا لظهور كلام الله ﷻ؛ بسبب كثرة بياناته له، وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

٣. لفظ "الكلمة" أطلق على المسيح عليه السلام للإشارة إلى بشارة الأنبياء به. فقد عرف بكلمة الله، أي: بوحيه إلى أنبيائه الكرام، والكلمة تطلق على الكلام، كقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ (الصافات).

٤. المراد بالكلمة "كلمة البشارة" فقوله: ﴿بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ أي: بخبر عنده أو بشارة، وهو كقول القائل: ألقى إلى فلان بكلمة سرني بها، أي: أخبرني خبرًا فرحت به، قاله ابن جرير، واستشهد له بقول الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ (النساء: ١٧١)؛ أي: بُشرى إلى مريم بعيسى عليه السلام ألقاها إليها[1]، قال القرطبي: وقيل: "كلمته" إشارة الله تعالى لمريم ـ عليها السلام ـ ورسالته إليها على لسان جبريل عليه السلام؛ وذلك قوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾ (آل عمران: ٤٥) .

٥. قيل: الكلمة هاهنا بمعنى الآية، قال الله ﷻ: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ (التحريم:١٢) و ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧)، وكان لعيسى ابن مريم عليه السلام أربعة أسماء: المسيح، وعيسى، وكلمة، وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن، ومعنى: ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥٠.

مَرْيَمَ ﴾ أمر بها مريم[1].

وذهب بعضهم إلى أن "عيسى" سُمِّي كلمة الله ﷻ من حيث إنه صار نبيًّا، كما سُمِّي النبي ﷺ رسولًا، وعلى كل فليس إطلاق "كلمة" على المسيح يُعدُّ إطلاقًا حقيقيًّا، فالكلمة لا تتجسد لتكوِّن كائنًا حيًّا، وهذا الكائن يكون إلهًا ـ كما يزعمون ـ حلَّ في بطن مخلوق، فكيف تكون الكلمة الأزلية متصفة بصفات الحوادث؛ من حلوله في بطن مخلوق، وكونها محاطة بجدران الرحم، ودخول وخروج من الرحم، وغير ذلك من الصفات الخاصة بالحوادث، والتي لا تصلح صفات للقديم ولا للأزلي®.

الخلاصة:

- الأزلي لا أول لوجوده ولا يكون إلَّا ذاتًا غير محدثة، وعيسى عليه السلام لا يصح أن نقول: إنه ذات أزلية؛ لأنه كلمة الله فهو محدث من جهة، ومن جهةٍ أخرى الكلمة صفة، والصفات لا تتحول إلى ذوات.
- مجيء الضمير في الآية ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ "اسمه" مذكرًا لا مؤنثًا، فلم يقل "اسمها"؛ لأنه يدل على مُسمَّى الكلمة ـ وهو عيسى ـ لا لفظ الكلمة.
- المراد بـ "الكلمة" كلمة التكوين لا كلمة الوحي، وخُصَّ المسيح بإطلاق الكلمة عليه لما فُقِدَ في حلقة تكوينه من تلقيح ماء الرجل لما في الرحم، فأضيف هذا التكوين إلى كلمة الله؛ لأن الله ﷻ أكمل بكلمةٍ منه الحلقة المفقودة في مراحل خلق عيسى عليه السلام.

الشبهة التسعون

ادعاء أن عيسى عليه السلام هو الديَّان(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الإسلام يشهد لعيسى ابن مريم عليه السلام بأنه الديَّان، مستدلين بقول النبي ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا مُقْسِطًا"[2]، وقوله: "لا تأتي الساعة حتى يأتي بينكم عيسى ابن مريم ديانًا للعالمين"؛ وفي هذا دليل كافٍ على أن المسيح هو الإله.

وجوه إبطال الشبهة:

١) المقصود بالديَّان هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس، وليس ما ذهب إليه هؤلاء المتوهمون من دعوى الألوهية واردًا في كلمة "ديان".

٢) المعنى الصحيح لحديثي النبي ﷺ أن عيسى ابن

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٢٢٢.

® في "المراد بأن عيسى كلمة الله وروحه" طالع: الشبهة الثانية والثمانين. والوجه الأول، من الشبهة السابعة والثمانين؛ من هذا الجزء. والشبهة العاشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

(*) مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق. محاضرة عن ألوهية المسيح في كتب الآخرين، ميخائيل الإسكندر، تادرس يوسف، مؤتمر في شبين الكوم، مصر، د. ت.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب كسر الصليب وقتل الخنزير (٢٣٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (٤٠٦).

مريم عليه السلام سيكون حكمًا عدلًا ومقسطًا، أي: يخضع الناس لحكمه؛ حتى يعيد الأمور إلى نصابها.

٣) تناقض الأناجيل فيما بينها حول وصف السيد المسيح عليه السلام بالديَّان، يبطل حجتهم ويسقط زعمهم، ويثبت بشرية المسيح عليه السلام.

التفصيل:

أولا. المقصود بالديَّان في كلام النبي ﷺ هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس:

قبل الحُكم على عيسى عليه السلام بأنه "ديَّان" التي يستغلها النصارى لدعوى ألوهيته ينبغي أن نعرف معنى كلمة ديان.

جاء في لسان العرب[1]: الديَّان من أسماء الله عز وجل معناه "الحكم القاضي"، وسئل بعض السلف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كان ديَّان هذه الأمة بعد نبيها، أي: قاضيها وحاكمها. والديان: القهار، ومنه قول ذي الإصبع العدواني:

لَاهِ ابنُ عمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ

عنِّي ولا أنتَ ديَّاني فَتَخْزُوني

أي: لست بقاهري فتسوسني أو تقود أمري، والديان: الله عز وجل، وهو فعَّال من دان الناس؛ أي: قهرهم على الطاعة. يُقال: دِنْتهم فدانوا، أي: قهرتهم فأطاعوا.

وبناء عليه، فما جاء من وصف عيسى عليه السلام بأنه: الديان يعني أنه هو الحكم القاضي أو المقسط بين الناس.

ثانيًا. المعنى الصحيح لحديثي النبي ﷺ أن عيسى ابن مريم سيكون حكمًا عدلا ومقسطًا بين الناس، أي: له حكم الطاعة، فيخضع الناس لحكمه:

هذا وصف يتناسب مع بشريته ورسالته، وليس صفة إلهية، فهو يحكم بين الناس بالقسط في آخر الزمان، كما أخبر نبينا ﷺ أنه سيكون حكمًا ومقسطًا، وقد يكون له حكم الطاعة والإخضاع؛ فيخضع الناس لحكمه بحكم قيادته يومئذ، حتى يعيد الأمور إلى نصابها، ويعلن للعالمين عن الحق، ويبين أنه عبد الله ورسوله - وليس إلهًا ولا ابن إله - ويكسر الصليب، ويريق الخمر، ويقتل الخنزير، ويمحو تلك الجاهليات التي تفشت بين أتباعه، وأفشوها في العالمين، ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت مصدقة للشرائع ومهيمنة عليها، ووارثة لها، وهو في هذا ليس إلهًا، ولكنه خليفة ينفذ شرع الله في الأرض؛ ليقيم شريعته، ويقضي بين الناس بها، وهذا شأن الأنبياء والرسل، وأتباعهم من الدعاة والقضاة، والمصلحين، كما قال الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ (ص: ٢٦)، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ١٠٥).

أما أنَّ عيسى عليه السلام ديان يوم القيامة - كما يزعم النصارى - وأنه يأتي عن يمين الله ويقضي بين الخلائق، فهذا هراء؛ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الحج: ٥٦)، ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (غافر)، ﴿ إِن كُلُّ

---

١. لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة: دين.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ (مريم).

ثالثًا. تناقض الأناجيل حول المقصود بالديان: إذا سلمنا جدلا بإدانة المسيح للأحياء والأموات، فهل في إدانة المسيح للأحياء والأموات أية ألوهية؟!

إذا عدنا إلى الأناجيل نجدها تُصرِّح بأن المسيح ليس ديَّانا، "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آتِ لأدين العالم بل لأُخلِّص العالم. من رَذَلَنِي ولم يَقْبَل كلامي فله من يدينه. الكلام الذي تكلَّمت به هو يدينه في اليوم الأخير؛ لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية: ماذا أقول وبماذا أتكلم. وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية. فما أتكلَّم أنا به، فكما قال لي الآب هكذا أتكلم". (يوحنا ١٢: ٤٧ ـ ٥٠).

ومن خلال هذه النصوص نقول: إن الدينونة هي سلطان دُفِعَ للمسيح عليه السلام من الله، وإن هذا الكلام أعطاه الله للمسيح؛ ليكون الحكم بين العبد وأعماله، وأن المسيح لا حول ولا قوة له في إدانة العالم من غير دفع الله هذا السلطان له!

وجاء في إنجيل يوحنا: "وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا؛ لأنه ابن الإنسان". (يوحنا ٥: ٢٧)، وهذا السلطان دُفع إلى كثيرين ممن سيدينون مع المسيح، ولو لزم من ذلك تأليه المسيح لأصبح تلاميذ المسيح آلهة يشاركونه في الملك، وهل هذا يعقل؟!

فقد جاء في إنجيل لوقا: "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسيّ تَدِينون أسباطَ إسرائيل الإثني عشر". (لوقا ٢٢: ٣٠)، انظر إلى هذا البهتان وهذا الكذب لترى العجب، والأعجب من ذلك أن بولس والقديسين سيشاركون في إدانة الملائكة والعالم بأسره مع المسيح!!

فالاستدلال بأن دينونة المسيح للعالم دليلًا على ألوهيته استدلال باطل، وساقط للغاية، والأناجيل نفسها تنقضها، وها هو يوحنا يقول: "لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليَدِين العالم". (يوحنا ٣: ١٧).

وبهذا البيان يتضح لنا التناقض بين نصوص الأناجيل حول الزعم أن عيسى عليه السلام هو الديَّان المتأله، وبهذا التناقض يبطل زعمهم، وتسقط حجتهم في تأليه المسيح عليه السلام، إنما هو كما أخبر النبي محمد ﷺ سوف ينزل إلى الأرض؛ ليملأها عدلًا، ويعيد الناس إلى شريعة الحق، شريعة محمد ﷺ.

الخلاصة:

- الديَّان في اللغة: هو الحكم والقاضي، الذي يحكم بين الناس بالعدل، وقيل: هو الله عز وجل، وقيل عن النبي ﷺ أنه ديَّان العرب.
- المقصود من حديثي النبي ﷺ في وصف المسيح عيسى عليه السلام بالديَّان، أنه سوف ينزل ليحكم بين الناس بالعدل والقسط، ويكون له حكم الطاعة والإخضاع؛ لأنه يدعو الناس إلى طاعة الله، وإلى شريعة محمد ﷺ فيخضع الناس لحكمه، بحكم قيادته يومئذٍ، ويقتل المسيح الدجال، ويعيد الأمور إلى نصابها.
- تناقض الأناجيل فيما بينها حول معنى الديَّان يبطل حجتهم، ويسقط زعمهم، ويثبت بشرية المسيح عليه السلام، وأنه سوف ينزل قبيل الساعة؛ ليملأ الدنيا عدلًا ورحمة بعد أن ملئت جورًا وظلمًا، ويعيد الناس إلى شريعة الله تبارك وتعالى، ويدعو

الناس إلى الحق الذي جاء به النبي محمد ﷺ.

الشبهة الحادية والتسعون

ادعاء أن معجزات عيسى عليه السلام سحر وشعوذة وخداع(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن معجزات عيسى عليه السلام لم تقع منه قبل الثلاثين من عمره، بينما يزعم آخرون أنها سحر وخداع، ويدعون أن رسالة عيسى عليه السلام باطلة؛ لأنها إنما تثبت بالمعجزة.

وجها إبطال الشبهة:

1) لم يصنع عيسى عليه السلام المعجزات، ولكنها ظهرت على يديه تأييدًا من الله تعالى له، وابتدأت منذ البشارة به وهو جنين في بطن أمه.

2) ما جرى على يد عيسى هو ما أُجري على يد موسى - عليهما السلام - من المعجزات، وادعاء أنها سحر وخداع مردود؛ لأن الساحر لا يقوى على الإتيان بمثلها.

التفصيل:

أولا. لم يصنع عيسى عليه السلام المعجزات، ولكنها ظهرت على يديه تأييدًا له من الله تعالى، وابتدأت منذ البشارة به وهو جنين في بطن أمه:

آية النبي لا بد أن تكون خارقة للعادة، أي: تخالف مألوف عادات الناس وما درجوا عليه، فإن فقدت هذا الشرط فإنها حينئذٍ لا تكون مختصة بالنبي، بل مشتركة بينه وبين غيره، وبهذا احتج العلماء على أنه لا بد أن تكون المعجزة خارقة للعادة.

لكن ليس في هذا ما يدل على أن كل خارق للعادة آية، فالكهانة والسحر أمر معتاد للكهان والسحرة، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم، كما أن ما يعرفه أهل الطب، والنجوم، والفقه، والنحو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.

ويجب في معجزات الأنبياء ألا يعارضها من ليس بنبي، فكل من عارضها وليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم؛ ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى عليه السلام لما ادعى أنه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثلما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة، وأمرهم موسى أن يأتوا أولًا بخوارقهم، فلما أتت، وابتلعتها عصاه التي صارت حية، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيمانًا جازمًا. ولما قال لهم فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ (طه).

فكان من تمام علمهم بالسحر أن السحر معتاد لأمثالهم، وأن معجزة موسى عليه السلام ليست من جنس السحر[1].

وسيدنا عيسى عليه السلام لما بُعث، وأظهر المعجزات كان الله عز وجل يخلق الحياة في الجسم بقدرته عند

(*) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م. موقع الكلمة. www.alkalema.net

١. النبوات، ابن تيمية، تحقيق: الشحات الطحان، مكتبة فياض، المنصورة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٧، ٢٨ بتصرف.

نفخة عيسى عليه السلام ،فهو عز وجل القائل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ (الملك: ٢).

وما حدث من معجزات ـ على سبيل تأييد الرسل والأنبياء بها كانت كلها بقدرة الله عز وجل، وبهذا اعترف عيسى عليه السلام بنفسه في قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)؛ أي: بتكوين الله عز وجل وتخليقه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

أي: إلا بأن يوجد الله الموت، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهًا على أنه لا يتعدى بعمله التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله عز وجل على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل.

وروي أن مداواته الأكمه والأبرص كانت بالدعاء وحده، وأنه عليه السلام أحيا عاذر ـ وكان صديقًا له ـ ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حيًّا، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية.

وهذا كلام الله عز وجل عن نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام، قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ (المائدة: ١١٠). وهذا الكلام المنزَّل من عند الله في هذه الآية لم يخترعه المسلمون إنما هو وحي من عند الله عز وجل، ولم يأتِ به المسلمون من تلقاء أنفسهم. وهذه المعجزات ليست إحياء للميت من قبل عيسى عليه السلام ولا نسبة الخلق له، فالآية تعني: أنه يخلق كهيئة الطير، أي يصنع من الطين ما يشبه الطير، كما أمره الله، وينفخ في هذا الذي صنع كما أمره الله عز وجل فيكون طيرًا بإذن الله تعالى، فهو لم يفعل أكثر من مباشرة الأسباب، عندما أذن الله له بها، ولم يدع عيسى عليه السلام أنه يخلق الطير أو يوجد الحياة، ولكنه قال عليه السلام ـ كما حكى القرآن الكريم ـ: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:٤٩).

والتعبير عن تشكيل الطين على هيئة الطير بالفعل "خلق" لا يفيد مشاركة عيسى عليه السلام لله عز وجل في الخلق؛ لأن "خلق" هنا بمعنى قدَّر، وليس بمعنى أوجد من عدم، وخلق بمعنى قدر، جاء في لغة العرب، قال الشاعر العربي:

فَلَأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْـ
ـضُ القَومِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي[1]

لقد أظهر الله تعالى المعجزات على أيدي الأنبياء؛ لتكون دليل صدقهم أمام أقوامهم، وبرهانًا على نبوتهم، وعيسى عليه السلام في هذا كبقية الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فالمعجزات دليل نبوة لا دليل ألوهية.

ولقد بدأت معجزات سيدنا عيسى عليه السلام منذ البشارة به وهو جنين، فقد قيل: إن أمه لم تشعر بآلام الحمل والولادة كغيرها من النساء الحوامل، وكذلك تكلمه في المهد وهو لا يزال طفلًا وليدًا، بل إن المعجزة العظمى في ولادته بدون أب، فكيف يقال: إن معجزات عيسى لم تقع قبل الثلاثين؟! ولا يُقال: إن الكلام في المهد وغيره لم يكن من معجزات عيسى عليه السلام، بل كانت كرامات لأمه؛ لحمايتها من سوء

---

١. لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، مادة: خلق. المفردات، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، د. ت، مادة: خلق.

الظن، فإن المعجزة تشمل مريم وعيسى - عليهما السلام - قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المؤمنون)؛ حيث يوجد لفظ مفرد، ولكنه يشمل الطرفين جميعًا، فقوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ﴾ يفيد أن الآية ليست من واحد منهما، ولكنها من مجموع الاثنين معًا؛ لأن الآية هنا أن عيسى ولد من غير أب، ومريم أنجبت من غير أن يمسسها بشر لا بزواج ولا زنا، فالمسألة متعلقة بكل منهما[1].

ثانيًا. ما جرى على يد عيسى هو ما أجري على يد موسى - عليهما السلام - من المعجزات، وادعاء أنها سحر وخداع مردود:

إن دفاع المسلمين عن نبوة عيسى عليه السلام لا يقل درجة عن دفاعهم عن نبوة محمد ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل؛ لأنهم مأمورون بالإيمان بهم جميعًا، والكفر بعيسى عليه السلام وتكذيبه كفر بمحمد ﷺ قال ﷻ: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الصافات).

فاليهود يكفرون بعيسى عليه السلام، والنصارى يكفرون بمحمد ﷺ، والمسلمون يؤمنون بجميع رسل الله ﷻ وأنبيائه؛ قال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ (آل عمران: ٨٤)، وقال أيضًا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وزَعْم بعضهم - ولا سيما اليهود - أن معجزات عيسى عليه السلام سحر وشعوذة زعم باطل؛ لأن السحر مهما بلغ لا يصل إلى إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيب في أمور محدودة، ولو كان ما جرى على يد عيسى سحرًا لكان الذي جرى على يد موسى - عليهما السلام - من قلب العصا ثعبانًا، وخروج اليد بيضاء من غير سوء، وانفلاق البحر، من قبيل السحر أيضًا.

ولبطلت رسالة موسى بمثل ما أبطلوا به رسالة عيسى عليه السلام، والمتواتر عن اليهود، هو تكذيبهم لعيسى عليه السلام وإيذاؤهم له، ومحاولة قتله، والمتواتر أيضًا صدق عيسى عليه السلام وزهده وتقواه، بحيث لا يكذب على الناس، ولا على الله ﷻ، ومن المتواتر أيضًا تأييد الله ﷻ لعيسى عليه السلام بالمعجزات المبهرة التي تؤيد دعواه النبوة.

وأما زعم اليهود أن المعجزة تحصل بالعلم لمن باشرها، فهو زعم باطل؛ فالمعجزة لا يقتصر العلم بها على من باشرها، لكن يعلم بها العقلاء الذين يشاهدونها تظهر على يد نبي صادق، فيعرفون من معرفتهم حاله، وظهورها على يديه مع ادعائه النبوة أنه - مصدق - وكيف لا يحصل للأقوام العلم بالمعجزة، وهي موجهة إليهم؟ وإن أرادوا أنهم باشروا معجزات عيسى عليه السلام فهذا مردود بأنهم عادوه، ومنهم من آمن به: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ (الصف: ١٤).

وما وافقت اليهود على ظهور الخوارق على يد عيسى عليه السلام، فتارة يقولون: هي من قبيل السيمياء، وتارة يقولون: هي من قبيل الشياطين.

وعلى كل تقدير فجميع ما يقولونه يلزمهم في قلب

---

١. قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ص٤١٥.

العصا ثعبانًا، واليد البيضاء، وفلق البحر، ونتق الجبل، وسائر معجزات رسلهم - عليهم السلام - هو نفسه الجواب عن معجزات عيسى عليه السلام حرفًا بحرف.

إن نص التوراة يقتضي نبوته عليه السلام، وأنه لا يزال الملك في اليهود من آل يهوذا، والرسل من ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح، وكذلك كان، فلم تزل لهم ممالك ودُول إلى زمن المسيح عليه السلام؛ حيث صاروا ذِمَّة مخفورة، ورعية مأسورة، وهذا شيء لا ينكرونه.

وهذا دليل قاطع على نبوة عيسى عليه السلام، وأن موسى عليه السلام أخبرهم أنهم يكونون في ذلك الوقت على باطل، وأن الحق يأتي مع المسيح عليه السلام فيُدحض الباطل بالحق، وهذه سنن المرسلين أبدًا، وسنة الله عز وجل في خلقه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء: ١٨)، وفي هذا المقام كابرت اليهود واشتد عنادها، وقالت: هو المسيح الدجال الذي يأتي في آخر الزمان، ويزعمون أنه ينصر دين موسى عليه السلام ويظهر الحق على يده.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم إذ أثبت نبوة عيسى عليه السلام لم يتطرق إلى سن بعثته، وإن اتفق العلماء على أنه بعث في الثلاثين من عمره خصوصية له عليه السلام.

الخلاصة:

- إن الله تعالى قد أظهر المعجزات على يد عيسى ابن مريم عليه السلام تأييدًا له، وبهذا اعترف عيسى عليه السلام بنفسه، فنسب معجزاته التي أجريت على يديه إلى الله في قوله: ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وروي أن مداواته الأكمه والأبرص كانت بالدعاء وحده، فلم يدَّع عيسى عليه السلام أنه يخلق الطير، ويوجد الحياة، وإنما اعترف بأنه يباشر الأسباب فحسب، عندما يأذن الله عز وجل له بذلك.
- ما أُجري على يد عيسى عليه السلام هو ما أجري على يد موسى عليه السلام من المعجزات من حيث إنها تأييد من الله عز وجل لهما ولباقي الأنبياء، ودليل على صدق دعواهم عند أقوامهم، ولا يقتصر العلم بالمعجزة على من باشرها، لكن يعلم بها العقلاء الذين يشاهدونها.
- في التوراة أدلة قاطعة على نبوة عيسى عليه السلام. ولقد أجمع المسلمون على نبوة المسيح عليه السلام، فالمسلمون يؤمنون بجميع الرسل والأنبياء إيمانًا جازمًا، ولا يفرقون بين أحد من رسله، وأن معجزات الأنبياء مختلفة عن السحر والشعوذة والخداع.

الشبهة الثانية والتسعون

دعوى عدم حسم القرآن مسألة صَلْب المسيح عليه السلام(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن لم يكن حاسمًا في إثبات صلب المسيح، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٥٧)؛

(*) برنامج "أسئلة عن الإيمان"، قناة الحياة، زكريا بطرس. هذا هو الحق: الرد على مفتريات كاهن الكنيسة، محمد بن الخطيب، مرجع سابق.

® في **"ردّ القرآن الكريم على ادعاء اليهود قتلَ المسيح"** طالع: الشبهة الستين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

حيث يدعون أنه يعارض قول الله ﷻ على لسان المسيح: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ (المائدة: ١١٧)، مستنكرين الجمع بين إنكار صلب المسيح، وإلقاء الشَّبه على غيره وصلبه بدلًا منه، ونجاته من الصلب مع الإقرار بوفاته عليه السلام. ويسوقون قول الإمام الرازي لتقوية زعمهم: لو كان الله يُلقي شبه إنسان على آخر لاختلَّت الموازين. ويتساءلون: هل يصح أن يخلط القرآن في حديثه عن أحد أنبياء الله بهذه الصورة؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) عرض القرآن في سورة النساء يؤكد نجاة المسيح عليه السلام برفعه إلى السماء من القتل والصلب، وعقيدة المسلمين في خاتمة المسيح يسيرة لا تعقيد فيها، خلافًا لعقيدة النصارى.

٢) القرآن يقدَّم على الإنجيل في حادثة رفع المسيح ابن مريم عليه السلام وغيرها؛ لخلوه من الخلط والأباطيل، ولعصمته من التحريف، ولتواتره القطعي الثبوت، خلافًا للإنجيل.

٣) الأدلة العقلية تؤكد نفي صلب المسيح عليه السلام، وترد كل ما يقال عن قصة صلبه المزعومة.

٤) تعارض أقوال وأفعال المسيح عيسى ابن مريم في الإنجيل مع عقيدة الصَّلْب والفِداء[1] عند النصارى، يؤكد عدم صلاحية الإنجيل كمرجعية لإثبات حادثة الصلب أو غيرها.

٥) مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوعه على شبيهه.

٦) اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب.

٧) تنبؤات المسيح في الكتاب المقدس بنجاته من القتل!

٨) شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كتاب الأناجيل.

٩) هناك طوائف نصرانية متعددة تنكر صلب المسيح!

١٠) مسألة الصلب بين إقرار بولس ونفي المسيح، أيهما يصدق النصارى؟!

١١) نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل، ونجاة المسيح.

١٢) كلام الإمام الرازي مقطوع من السياق، إيهامًا للمسلمين أنه ينكر أن عيسى ابن مريم عليه السلام شُبِّهَ لهم، ولو رجعت إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس المدلسين.

التفصيل:

أولا. عرض القرآن في سورة النساء يؤكد الرفع وينفي قتل المسيح وصلبه:

التبس على كل النصارى صلب عيسى عليه السلام، كما التبس على اليهود.. وحلَّ القرآن الإشكال، وأزال اللبس، لكن النصارى لم يصدقوا القرآن. قال الله ﷻ: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

---

[1] عقيدة الصَّلْب والفِداء: هي عقيدة عند النصارى في عيسى عليه السلام أنه صُلِب وتحمَّل الآلام؛ ليَفْدِي البشرية من خطيئة آدم عليه السلام، والتي لم تكن لتُكفَّر في نظرهم إلا بصلبه، وإن المرء ليعجب من الاختلاف الكبير من قبل الأناجيل في إيراد هذه القصة، ولو صحَّ أن هذا أساس وأن المسيح أنبأ له، لكان اهتمامهم بتدونه متساويًا أو متقاربًا.

﴿صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾ (النساء).

واعترض النصارى على نفي القرآن الكريم قتل عيسى عليه السلام وصلبه، واعتبروه خطأ وقع فيه القرآن، واستغرب كثير منهم إنكار القرآن أمرًا مجمعًا عليه بين اليهود والنصارى، واليونان، والرومان. ويتساءلون: "لماذا يُنكر القرآن صلب المسيح وقتله بأيدي اليهود، مع أن اليهود يعترفون بذلك، والنصارى يؤكدونه ويفتخرون به؟ ومدار الإنجيل كله على خبر صلب المسيح والبشارة به، كفادٍ للبشر"؟

ويدعون أن القرآن ذكر في مواضع أخرى موت المسيح وقيامته، وارتفاعه إلى السماء، كقوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ (آل عمران: ٥٥)، وفيه يقول المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ١١٧)، ويقول أيضًا: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ (مريم). ويقولون: أليس غريبًا أن يجيء من ينكر صلب المسيح بعد حدوثه بستمائة سنة؟! إن حادثة الصلب حقيقة تاريخية، سجلها اليونان، والرومان، واليهود، والمسيحيون... وفي "مجمع نيقية" الذي انعقد سنة (٣٢٥م)، كتب أساقفة العالم المسيحي قانون الإيمان مُقِرِّين صلب المسيح!

يؤمن كل النصارى أن اليهود والرومان قتلوا عيسى عليه السلام وصلبوه، وأن روحه خرجت على الصليب، وبعد ثلاثة أيام من دفنه رُدَّتْ إليه روحه، فقام من قبره، وصعد إلى السماء! وكان اليهود يتباهون ويتفاخرون بقتل عيسى عليه السلام، قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (النساء: ١٥٧). أما النصارى فقد جعلوا الصليب جزءًا من عقيدتهم ودينهم، والشعار المميز لهم عن باقي أتباع الأديان، ووضعوا الصليب في أعناقهم وعلى كنائسهم، وملابسهم، ومرافق حياتهم، فإذا نفى القرآن صلب عيسى عليه السلام نفيًا صريحًا، فإن النصرانية تتهاوى من أساسها. أما القرآن الكريم فقد نفى صلب عيسى عليه السلام وكذَّب اليهود في ادعاء ذلك، قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧) فنفى أن يكونوا قد قتلوا عيسى عليه السلام أو صلبوه.

ويقرر القرآن أن المختلفين في موضوع القتل والصلب من اليهود والنصارى في شك منه لم يصلوا إلى اليقين؛ لأنهم لا ينطلقون من العلم، وإنما يتبعون الظن، والظن لا يوصل إلى يقين قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧). ويؤكد القرآن مرة أخرى أنهم لم يقتلوا عيسى عليه السلام يقينًا؛ لأن الله العزيز الحكيم رفعه إليه قال عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾ (النساء).

لقد أراد اليهود الرومان صلب عيسى عليه السلام، ولكن الله حماه وعصمه منهم، ورفعه إلى السماء، أما هم فقد صلبوا رجلًا آخر، وكل ظنهم أنه عيسى! فقال اليهود متبجحين: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله عليه السلام.

أما معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ شبه لهم أمر الصلب والقتل، والتبس عليهم، وهذا معناه أنهم قتلوا وصلبوا شخصًا آخر سوى عيسى ﷺ. ومعنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء) لم يقتل اليهود عيسى ﷺ يقينًا، ولم يكن الشخص المقتول المصلوب عيسى حقيقة، إنما كان شخصًا آخر غيره، بينما كان عيسى في السماء[1]!!

يقول الإمام محمد رشيد رضا في تفسيره لآيات سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: والحال أنهم ما قتلوه، كما زعموا تبجحًا بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى، وإنما صلبوا غيره، ومثل هذا الشبه أو الاشتباه يقع في كل زمان كما سنبينه قريبًا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب في شك من حقيقة أمره، أي: في حيرة وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعي، لكنهم يتبعون الظن أي القرائن التي ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض، فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم، هذا إذا كان - كما يقول علماء المنطق - لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر، والذين يتبعون الظن في أمرهم هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض بالقرائن أو بالهوى والميل، والصواب أن هذا معنى اصطلاحي للشك. وأما معناه في أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل، وعدم استبانة ما يجول في الذهن من الأمر، قال الركاض الدبيري:

يَشُكُّ عليكَ الأمرُ ما دام مُقْبِلًا
وَتَعْـرِفُ مـا فيـه إذا هـو أَدْبَـرَا

فجعل المعرفة في مقابلة الشك. وقال ابن الأحمر:

وأَشْياءُ مما يَعْطِفُ المَرْءَ ذا النُّهى
تَشُكُّ عـلى قَلْبِـي فـما استَبِينُها

وفي لسان العرب: أن الشك ضد اليقين، فهو - إذن - يشمل الظن في اصطلاح أهل المنطق، وهو ما ترجح أحد طرفيه. فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب، أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول: إنه هو، وبعضهم يقول: إنه غيره، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك، وإنما يتبعون الظن. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع كما علم من تفسيرنا له، وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه: "كلُّكم تَشُكُّون فِيَّ في هذه الليلة". (متى ٢٦: ٣١، ومرقس ١٤: ٢٧)، أي: التي يُطلب فيها للقتل.

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة، فإنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به سيشكون فيه في ذلك الوقت وخبره صادق قطعًا، فهل يستغرب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الإسناد؟

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوا عيسى ابن مريم قتلًا يقينًا أو متيقنين أنه هو بعينه؛ لأنهم لم يكونوا

---

١. القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٨٤: ١٨٦ بتصرف.

يعرفونه حق المعرفة. وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الإسخريوطي، وأنه جعل لهم علامة أن من قبَّله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه. وأما إنجيل برنابا فيُصرِّح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظنًّا أنه المسيح؛ لأنه أُلقي عليه شبهه. فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية. وقيل: إن الضمير في قوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ للعلم الذي نفاه عنهم، والمعنى ما لهم به من علم، لكنهم يتبعون الظن، وما قتلوه عن علم وتثبُّت منه، بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها، يقال: قتلت الشيء علمًا وخبرًا: إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب. وجاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﷺ أنه راجع إلى الظن الذي يتبعونه، قال: "لم يقتلوا ظنهم يقينًا"؛[1] أي: إنهم يتبعون ظنًّا غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح، والحِكَم التي توصل إلى العلم.

وقد اختلفت رواية المفسرين بالمأثور في هذه المسألة؛ لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى، وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني، ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة، كجمع المسيح لحواريه "أو تلاميذه"، وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم، وقوله لبعضهم: إنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات، ومن بيعه بدلالة أعدائه عليه في مقابلة مال قليل، وكون الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له.

ولكن بعضهم قال: إن شبهه أُلقي على من دَلَّهم عليه، وبعضهم قال: بل أُلقي شبهه على جميع من كانوا معه، وروى ابن جرير القولين عن وهب بن مُنَبِّه. والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدي مريدي قتله؛ فقتلوا آخر ظانين أنه هو.

وأما قوله ﷻ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ فقد سبق نظيره في سورة آل عمران وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ (آل عمران: ٥٥).

جاء عن ابن عباس تفسير التَّوَفِّي هنا بالإماتة كما هو الظاهر المتبادر، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها، وهو الأخذ والقبض، والمراد منه ومن الرفع: إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذي اصطفاه وقربه إليه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فبعزته، وهي كونه يَقْهر ولا يُقْهَر، ويَغْلِب ولا يُغْلَب، أنقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين، والروم الحاكمين، وبحكمته جزى كل عامل بعمله"[2].

خاتمة المسيح عند النصارى وعند المسلمين:

جعل النصارى خاتمة المسيح عليه السلام خاتمة شنيعة ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه

١. أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٣٧٧) برقم (١٠٧٩٠).

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص١٨: ٢١ بتصرف.

الذي صوروه أصلًا من أصول دينهم، ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها، ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلًا في العهد القديم، وأسسوا عليه بدعة صلب المسيح. فقالوا: إن آدم - وهو أول كل البشر - قد عصى الله ﷻ بالأكل من الشجرة، التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئًا، وصار جميع ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي.

وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين فهم يحملون وزر ذنوبهم، ووزر ذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم.

ولما كان الله ﷻ من صفته العدل والرحمة، فمن عدله أنه لا يترك الجريمة دون عقاب، وإلا لم يكن عادلًا، والعقاب منافٍ للرحمة فلا يكون رحيمًا إذا عاقب، ولا بد من تحقق العدل والرحمة معًا، وللخروج من هذا الإشكال شاء الله أن يحل ابنه الذي هو بنفسه الله في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد جنينًا في رحمها ويولد منها، فيكون ولدها إنسانًا كاملًا من حيث إنه ابن لتلك المرأة، وإلهًا كاملًا من حيث إنه ابن الله، ويكون معصومًا من جميع المعاصي. ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس، ويأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون، يأتي أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شرَّ قِتْلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويُسَمِّروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويَضْفِروا له إكليلًا من الشوك، ويَبْصُقوا في وجهه، كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم.

إن هذه العملية لم يتحقق بها عدل ولا رحمة؛ لأنه ليس من العدل في شيء أن يؤتى ببريء غير مذنب، ويطوق إثم جريمة جناها سواه، كما أن عقاب غير الآثم ليس فيه رحمة، وبخاصة إذا كان المعاقب من شأن الجبلة أن تشمله بالرحمة، ولو مع الذنب، فالابن البار غير الآثم أولى.

والعقاب على هذا الوجه يخالف الكتاب المقدس عندهم، فقد جاء فيه: "لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيته يُقتل". (التثنية ٢٤: ١٦)، "وإذا كان على إنسان خطيَّة حقُّها الموت، فقُتِل وعلَّقته على خشبة، فلا تَبِتْ جثَّته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المُعلَّق ملعون من الله. فلا تُنَجِّس أرضك التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا". (التثنية ٢١: ٢٢، ٢٣).

وعلى قول المسيحيين قد بقي الله تعالى مجردًا عن صفتي العدل والرحمة من زمن عصيان آدم إلى أن اهتدى إلى تلك الحيلة التي ظهرت له قبيل خلق المسيح ﵇ في مريم. هذا فضلًا عن أن عقيدة الصلب لما كانت هي كل الإيمان كانت حادية لمُعتنِقها إلى نَبْذ كل الفضائل، بل مُخذِّلة عن أفعال البر والتقوى، فيكون صاحبها إباحيًّا فاتكًا ليس للفضيلة في نفسه نصيب.

أما خاتمة أمر المسيح بحسب قصص القرآن فهي عجيبة وبسيطة، لا تعقيد فيها؛ ذلك أن المسيح قد

أحرج الكهنة والفَرِّيسيِّين[١] بتعليمه، وتجريمه إياهم في طريقتهم، وفَضْح ريائهم وخبثهم، فدفعهم ذلك إلى الكيد له والتدبير لقتله، فلما اختمر هذا الأمر في أنفسهم شكوا أمره إلى الوالي وزيَّنوا شكواهم بما يستدعي اهتمامه بأن ادعوا عليه أنه يقول: إنه ملك اليهود، وأنهم لا يُقرُّون بمُلْك سوى قَيْصَر روميَّة، فأرسل الوالي جندًا للقبض على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه - والمسيح قد اهتم لهذا الأمر، وخشي أن ينالوه بالأذى - أنقذه الله من أيديهم وطهَّره منهم، وألقى شبهه على شخص آخر، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن، وعرفته الأناجيل بأنه يهوذا الإسخريوطي - كما هو مشهور - وصار بحيث إن كل من رآه لا يشك في أنه يسوع، فأخذ وصلب وقتل، ونجا المسيح من شرهم، وقد أعلم الله عز وجل الميسح بما سيتم، وشاع في الناس أن يسوع الناصري قتل بعد أن صُلب، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

وقد أورد ابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين: أن المسيح لما قرب وقت القبض عليه ندب أصحابه ثلاث مرات طالبًا أن يتقدم واحد منهم ليفديه، ويقدم نفسه إلى اليهود عوضًا عنه، ويكون جزاؤه الجنة- فلم ينتدب له في كل مرة إلا واحد بعينه، فلما جاء أعداؤه ألقى الله على صاحبه الذي انتدب له شبه المسيح، وصار بحيث لا يشك أحد من أصحابه في أنه يسوع، فألقي القبض عليه وصلب وقتل، وهو يهوذا الإسخريوطي. الذي واطأ الكهنة على الدلالة على المسيح بأجر[٢].

ثانيًا. القرآن يُقدَّم على الإنجيل:

يُقدم القرآن على الإنجيل في قصة رَفْع المسيح وفي غيرها، إذا تعارض القرآن والإنجيل؛ لأن:

١. القرآن هو الكتاب الخاتم الذي أنزل الله فيه الحقيقة، التي لم تعبث بها الأيدي البشرية، أو المجامع الرومانية.

٢. الله فصل فيه كل شيء، وجعله مهيمنًا على الكتب السابقة.

٣. الله وعد بحفظه، ونفى عنه التحريف، والعبث، والباطل، فما فيه صدق، لا يحتمل الخطأ.

٤. القرآن الكريم كتب والنبي صلى الله عليه وسلم حي، وعرضه جبريل عليه السلام عليه عام موته عرضتين.

٥. القرآن لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف طوال أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان.

٦. القرآن الكريم نقل بالتواتر، وعلى أعلى درجات التواتر، حيث ينقله الجيل عن الجيل، والأمة

---

١. الفَرِّيسيُّون: إحدى الفرق اليهودية، ومعناها: المنعزلون أو المُنشقُّون، وهم يشبهون فريق المعتزلة عند المسلمين، وقد أطلق عليهم هذه التسمية أعداؤهم، ولذلك فهم يكرهونها، ويسمون أنفسهم "الأحبار"، وهذه الطائفة تعتقد أن التوراة بأسفارها الخمسة خُلِقَت منذ الأزل، وهم يعتقدون في البعث، وقيامة الأموات، والملائكة، والعالم الآخر، كما يرون أن التوراة ليس هي كل الكتب المقدسة التي يعتمد عليها، وإنما هناك بجانب التوارة روايات شفوية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير التي تعتبر توراة شفوية، وقد تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل، وربما دوَّنوها أحيانًا؛ خوفًا عليها من الضياع، وتلك الروايات الشفوية هي التي دُوِّنت فيما يُسمَّى بـ "التلمود".

٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٠٤: ٥١٤ بتصرف.

عن الأمة دون انقطاع®.

أما الإنجيل، فإن الله لم يَعِد بحفظه، ولم يكتب في حياة عيسى ﷺ، وبه الكثير من المتناقضات التي لا يمكن التسليم بأنها من عند الله؛ لأنها تفيد تعددية المصادر التي أخذ منها، ولقد تدخل الحكام والأباطرة على مرِّ التاريخ ـ لحسم مسائل مهمة في النصرانية ـ في نصوص الإنجيل، فقاموا بإثبات ما يوافق عقيدتهم، وشطب ما يخالفها:

يقول النصارى: بأنه كان يوجد بعد رفع المسيح مباشرة:

- كتاب يحتوى على أقوال السيد المسيح.
- وكتاب يحتوي على سيرته.

وأن الأناجيل الأربعة قد جمعت الأقوال والسيرة معًا، ثم إن الأقوال قد فقدت، والسيرة أيضًا. ويسمون الأقوال "لوجيا" ***Logia***، ويسمون السيرة "كويل" ***Quelle***، وقد حكى الأستاذ عباس محمود العقاد عنهم: أن منهم من يُسمَّى "كويل لوجيا"، والحق: أنهما مختلفان. يقول: "الإنجيل" كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد، أو البشارة. وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل، ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع ـ أي بكثرة الأصوات ـ وهي إنجيل مرقس، وإنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد.

ويُرجِّح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل تعتمد على نسخة آرامية مفقودة، يشيرون إليها بحرف "ك" مختزلة من كلمة كويل ***Quelle*** بمعنى "الأصل"[1].

ولقد تتبع الحكام والأباطرة الرومان من يخالفهم الاعتقاد، فقتلوا وأحرقوا الكثير منهم، كما عقدوا العديد من المجامع التي تدرس العقيدة وتقررها حسب أهواء هؤلاء الأباطرة، وتحذف ما يعارضها في هذا الاعتقاد من الأناجيل، ولقد استمر هذا الأمر حتى اليوم؛ حيث يتم عقد العديد من المجامع ـ على غرار مجمع نيقية ـ وحذف الكثير من مواد الإنجيل.

يقول الداعية الإسلامي أحمد ديدات تحت عنوان "كذبة الكتاب المقدس": "لم يسمر عيسى على الصليب، كما سمر الآخران، على العكس من الاعتقاد الشائع، هذا إذا كان فعلًا قد صُلِب! شكَّ توما في صلب المسيح، وقد تكون هذه القصة مجرد اختلاق أثيم، تمامًا كقصة المرأة التي أمسك بها مُتلبِّسة بفعل الزنا، وقد حُذفت قصة المرأة هذه من إنجيل يوحنا في النسخة الإنجليزية الحديثة.

يبدأ الإصحاح الثامن لهذا الإنجيل بفقرة (١٢)، أيُّ كتاب ديني يبدأ بفقرة (١٢)، لقد أُزيلَت الفقرات (١ــ ١١)؛ لأن الاثنين والثلاثين عالمًا، والخمسين طائفة تعاونت معهم لتنقيح الكتاب المقدس، ووجدوا أن هذه النصوص مختلقة وكاذبة فأمروا بإزالتها"[2].

وإذا تكلمنا عن التواتر عند نقل النصارى للكتاب

® في **"تواتر القرآن الكريم"** طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الحادي عشر (سلامة القرآن الكريم).

١. الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت، ص٢٣٤.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص٢٠٨.

المقدس، فإن الواقع يؤكد لنا "أن دعوى التواتر ممنوعة، فإن التواتر عبارة عن إخبار عدد كثير لا يجوز العقل اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب بشيء قد أدركوه بحواسهم إداركًا صحيحًا لا شبهة فيه، وكان خبرهم بذلك متفقًا لا اختلاف فيه، هذا إذا كان التواتر في طبقة واحدة، فإن كان التواتر في طبقات كان ما بعد الأولى مخبرًا عنها، ويشترط أن يكون أفراد كل طبقة لا يجوز عقل عاقل تواطؤهم على الكذب في الإخبار عمن قبلهم، وأن يكون كل فرد من كل طبقة قد سمع جميع الأفراد الذين يحصل بهم التواتر ممن قبلهم، وأن يتصل السند هكذا إلى الطبقة الأخيرة، فإن اختل شرط من هذه الشروط لا ينعقد التواتر.

وأنّى للنصارى بمثل هذا التواتر، والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون عدد التواتر، ولم يخبر أحد منهم عن مشاهدة، ومن تنقل عنه المشاهدة كبعض النساء لا يؤمن عليه الاشتباه والوهم، بل قال يوحنا في إنجيله: إن مريم المجدلية وهي أعرف الناس بالمسيح اشتبهت فيه، وظنت أنه البستاني، وهو قد كان صاحب آيات، وخوارق عادات، فلا يبعد أن يُلقى شبهه على غيره، وينجو بالشكل بصورة غير صورته، كما رووا عنه أنه قال لهم: إنهم يشكون فيه، وكما قال مرقس: إنه ظهر لهم بهيئة أخرى، ثم إن ما عزى إليهم لم ينقله عنهم عدد التواتر بالسماع منهم طبقة بعد طبقة إلى العصر الذي صار للنصارى فيه ملك، وحرية يظهرون فيها دينهم. وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي وغيره انقطاع أسانيد هذه الكتب بالبينات الواضحة.

وإذا كانت الأناجيل ورسائل العهد الجديد قد أثبتت صلب المسيح دون القول بغير ذلك، ودون قبول أي رأي آخر يقول بغير ذلك، فالحق الذي يبدو جليًّا ولا يحتاج إلى برهان أن هذه الكتب:

١. لا دليل على عصمتها، ولا على أن كاتبيها كانوا معصومين.

٢. لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم؛ لأنها غير متواترة كما تقدم.

٣. معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا، وترجيحهم إياها على هذا الإنجيل لا يصلح مرجحًا عندنا؛ لأنهم اتبعوا في اعتمادها تلك المجامع التي لا ثقة لنا بأهلها، ولا كانوا معصومين عندهم ولا عندنا.

٤. إنها متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها.

٥. إنها معارضة بالقرآن العزيز وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى تلك الكتب أن تفيد الظن بالقرائن، كما قال ﷻ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ (النساء)، والقرآن قطعي فوجب تقديمه؛ لأنه يفيد العلم القطعي"[1].

ثالثًا. الأدلة العقلية على نفي صلب المسيح:

لا يمكن أن يقبل العقل قصة صلب المسيح لعددٍ من النتائج التي تترتب عليها، ولعددٍ من الأسباب هي:

لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليمًا، وفي كل صنعه حكيمًا؛ لأنها تستلزم الجهل والبداء على

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص٣٥ بتصرف.

الباري ﷻ، كأنه حين خلق آدم ﷺ ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرت على خلقه، كان فيها جاهلًا كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعًا في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط في الدين عندهم ألَّا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول آمنت به، وإن لم يدركه، ولم تذعن له نفسه، ومن ينقلون في أول كتاب من كتبهم الدينية - سفر التكوين - هذه الجملة: "فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسَّف في قلبه". (التكوين ٦: ٦)، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

- يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم بما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نِسْبَتها إلى سائر ملكه أقل من نسبة الذرة إليها، وإلى سمواتها التي ترى منها، ثم يكون بشرًا يأكل ويشرب ويتعب، ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة فيصلبوه مع اللصوص، ويجعلوه ملعونًا بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله، تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيرًا.

- تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق العليم الحكيم قد أراد شيئًا بعد التفكر فيه ألوفًا من السنين، فلم يتم له ذلك الشيء، ذلك أن البشر لم يخلصوا وينجوا بوقوع الصلب من العذاب، فإنهم يقولون: إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها، ولنا أن نقول: إنه لم يؤمن بها أحد قط؛ لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك، والذين يقولون: إنهم مؤمنون بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم تقليدًا لمن لقنهم ذلك، فإن سمينا مثل هذا القول إيمانًا، نقول: إن أكثر البشر لا يقولون به، بل يردونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضًا بالدلائل النقلية، من دينٍ ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى، فإذا عذبهم الله ﷻ في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته - كما تدعي النصارى - لا يكون رحيمًا على قاعدة دعاة الصلب والصليب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

- يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق - تعالى وتقدَّس - عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح؛ لأنه عذبه من حيث هو بشر وهو لا يستحق العذاب؛ لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراب - على ما زعموا - لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى، فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم، أو أن يكون عادلًا رحيمًا فيخلق خلقًا يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقدهما معًا؟

- إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة، أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم

وأعراضهم، ويفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى لا يعذب على شروره وخطيئاته ولا يجازى عليها بشيء، فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله ـ وناهيك بهذا مفسدًا للبشر ـ وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله ﷻ في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟

• ما رأينا أحدًا من العقلاء، ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول: إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه، ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، وترى المؤمنين بالله من الأمم المختلفة يصفونه بالعفو، ويقولون: إنه أهل للمغفرة، فدعوى الصليبيين أن العفو والمغفرة مما ينافي العدل مردودة غير مسلمة[1].

رابعًا. تعارض أقوال وأفعال المسيح في الإنجيل مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى:

هناك العديد من الشواهد والأدلة الواردة في الإنجيل التي تتعارض مع عقيدة الصلب والفداء عند النصارى، ومن هذه الشواهد:

• أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداء، وكفارة عن البشر، مع أن هذه الأناجيل تُصرِّح بأنه حزن واكتأَبَ عندما شعر بقرب أجله، وطلب من الله أن يَصْرِف عنه هذه الكأس. ففي إنجيل متَّى: "ثم أخذ معه بطرس وابنَي زَبْدِي، وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم: نفسي حزينة جدًّا حتى الموت. امكثوا ههنا واسهروا معي». ثم تقدم قليلًا وخرَّ على وجهه، وكان يُصلِّي قائلًا: «يا أبتاه، إن أمكن فلْتَعْبُرْ عنِّي هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت». ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نِيامًا، فقال لبطرس: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلُّوا لئلَّا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف». فمضى أيضًا ثانية وصلَّى قائلًا: «يا أبتاه، إن لم يمكن أن تَعْبُرَ عنِّي هذه الكأس إلا أن أشربها، فلتكن مشيئتك". (متى ٢٦: ٣٧ ـ ٤٢). ومثل هذا في لوقا: "لما صار إلى المكان قال لهم: «صلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة». وانفصل عنهم نحو رَمْيَة حَجَر وجَثا على رُكْبَتَيه وصلَّى قائلًا: يا أبتاه، إن شئتَ أن تُجِيز عنِّي هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك". (لوقا ٢٢: ٤٠ ـ ٤٢)، فكيف يقول المسيح هذا وهو إله عندهم، فهل يمكن أن يجهل بما يمكن وما لا يمكن، وأن يطلب إبطال الطريقة التي أراد الآب ـ وهو هو عندهم ـ أن يجمع بها بين عدله ورحمته؟!

• ومن الشواهد عليها مسألة اللِّصَّيْنِ اللذَيْن قالوا: إنهما صُلبا معه، قال مرقس: "وصَلَبوا معه لِصَّين، واحدًا عن يمينه وآخر عن يساره. فتمَّ الكتاب القائل: «وأُحْصِي مع أثمة». وكان المجتازون يُجدِّفون عليه، وهم يَهُزُّون رءوسهم قائلين: «آه يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام! خلِّصْ نفسك وانزل عن الصليب!» وكذلك رؤساء الكهنة وهم مستهزئون فيما بينهم مع الكتبة، قالوا: «خلَّص آخرين، وأما نفسه فما يَقْدِر أن يُخلِّصها! لينزل الآن المسيح ملك إسرائيل عن الصليب، لنرى ونؤمن!». واللذان صُلِبا

---

١. المرجع السابق، ص٢٦: ٢٨.

معه كانا يُعَيِّرانه". (مرقس ١٥: ٢٧ ـ ٣٢).

وكذلك قال متى: "ثم جلسوا يحرسونه هناك. وجعلوا فوق رأسه عِلَّته مكتوبة: «هذا هو يسوع ملك اليهود». حينئذ صُلِب معه لِصَّان، واحد عن اليمين وواحد عن اليسار. وكان المجتازون يُجدِّفون عليه وهم يهزون رءوسهم قائلين: «يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلِّص نفسك! إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب!». وكذلك رؤساء الكهنة أيضًا وهم يستهزئون مع الكَتَبَة والشيوخ قالوا: «خلَّص آخرين وأما نفسه فما يَقْدِر أن يُخلِّصها! إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به! قد اتَّكل على الله، فلينقذه الآن إن أراده! لأنه قال: أنا ابن الله!. وبذلك أيضًا كان اللِّصَّان اللذان صُلِبا معه يُعيِّرانه». (متى ٢٧: ٣٦ ـ ٤٤).

وأما لوقا فقد سمَّى الرجلين اللذين صُلِبا معه مُذْنِبين، ولكنه قال: "وكان واحد من المُذْنِبَين المُعَلَّقَين يُجدِّف عليه قائلًا: «إن كنتَ أنت المسيح، فخلِّص نفسك وإيَّانا!» فأجاب الآخر وانتهره قائلًا: «أولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحُكْم بعينه؟ أما نحن فَبِعَدْل، لأننا نَنال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئًا ليس في مَحِلِّه». ثم قال ليسوع: «اذكرني يا رب متى جئتَ في مَلَكُوتك». فقال له يسوع: «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». (مرقس ٢٣: ٣٩ ـ ٤٢)، فكانت نبوءة الكتاب ـ المراد به إشعياء ـ أنه يُصلب مع أثمة بصيغة الجمع، ثم كان الجمع اثنين ولا بأس بذلك، ولكن كيف يقول اثنان من الإنجيليين المعصومين على رأيهم أن الذي عيَّره وأهانه هو أحدهما، وهما مثله في عصمته؟

ومثل هذه المخالفات والمعارضات في هذه القصة كثيرة، ومن أظهرها مسألة دفنه ليلة السبت، وقيامه من القبر قبل فجر يوم الأحد، مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها، وهي مُدَّة مَكْث يونس في بطن الحوت، ومنها مسألة النساء اللواتي جِئْن القبر، وفيها عدَّة خلافات في وقت المجيء ورؤية الملك... إلخ[1].

إن وقوع التشابه أمر وارد وواقع يراه الناس ويتلمسونه، ويدركونه حق الإدراك، فهو يقع في التوأم، ويقع في غيرهما من المتباعدين الذين يسكنون في أقطار شتى، وبيئات متباينة بين أفراد الجنس البشري، ووقوع شبه المسيح على غيره، سواء كان يهوذا أم غيره له ما يقويه وما يعضده من الأدلة، **وهو متحقق من وجهين هما:**

١. أنه عهد بين الناس أن يشبه بعضهم بعضًا شبهًا تامًّا، بحيث لا يميز أحد المتشابهين المعاشرون والأقربون، وقد يكون هذا بين الغرباء كما يكون بين الأقربين، ولعله يقل في الذين يسافرون وينقلبون بين الكثير من الناس من لم يقع له الاشتباه بين من يعرف ومن لا يعرف، وإننا لزيادة البيان نُورِد قليلًا من الشواهد عن الإفرنج الذين يَثِق دُعاة النصرانية عندنا بهم ما لا يثقون بغيرهم؛ لأن هؤلاء الدعاة من أبناء جنسهم أو مُقَلِّدَتهم.

قال إميل صاحب كتاب "التربية الاستقلالية" حكاية عن كتاب كتبته امرأة الدكتور إراسم إلى زوجها ما نصُّه: "لقد كثر ما لاحظتُ أنه يوجد في بعض

١. المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨.

الأحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والأنوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد أسرة واحدة، مع أن كلًّا منهما يكون أجنبيًّا عن الآخر من كل الوجوه، أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نُقُولَا، خِلْتني أراه بذاته في زِيِّ امرأة". فهذا مثال لرأي الكاتب في تشابه الناس.

ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على أنه كثيرًا ما يحدث للناس الخطأ في معرفة بعض الأشخاص، ويشتبهون عليهم بغيرهم، وقد ذكر جاي وفرير مُؤلِّفَا كتاب "أصول الطب الشرعي" في اللغة الإنجليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهدًا لمعرفة شخص يُدْعَى "مارتين جير"، فجَزَمَ أربعون منهم أنه هو هو، وقال خمسون: إنه غيره، والباقون تردَّدوا جدًّا ولم يمكنهم أن يبدوا رأيًا، ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير، وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون، وعاش مع زوجة مارتين محاطًا بأقاربه وأصحابه ومعارفه مدة ثلاث سنوات، وكلهم مُصدِّقون أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه - لظهور كذبه بالدلائل القاطعة - استأنف الحكم في محكمة أخرى فأُحْضِرَ ثلاثون شاهدًا آخرون، فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة: إنه غيره، وتردد الباقون، وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩م في فرنسا.. وأمثالها كثير.

وقد بلغ من شبه بعض الأشخاص بغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور أو الجروح، أو آثارها وغير ذلك؛ حتى تعسَّر تمييز بعضهم عن بعض، ولذلك جدَّ الأطباء في وضع مميزات لأشخاص البشر المختلفين.

٢. أن هذه الحادثة من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم، وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره، وغَيّر شكله هو فخرج من بينهم وهم لا يشعرون، وفي أناجيلهم وكتبهم جُمَل متفرقة تؤيِّد هذا الوجه أشرنا إلى بعضها من قَبْل، ولا شك أن هذا من الممكنات الخاضعة لمشيئة الله وقدرته.

ويمكن أن يستدل على استجابة الله لدعائه بقول يوحنا حكاية عنه في سياق قصة الصلب: "أجابهم يسوع: ألآن تؤمنون؟ هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرَّقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي. وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي. قد كلَّمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضِيق، ولكن ثِقوا: أنا قد غلبتُ العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ - ٣٣)، وفي هذا المعنى قول متى: " في تلك الساعة قال يسوع للجموع: «كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصِي لتأخذوني! كل يوم كنتُ أجلس معكم أُعلِّم في الهيكل ولم تمسكوني. وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء». حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا. (٢٦: ٥٥، ٥٦)، وقول مرقص: "فأجاب يسوع وقال لهم: «كأنه على لصٍّ خرجتم بسيوف وعِصِي لتأخذوني! كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمسكوني! ولكن لكي تكمل الكتب». فتركه الجميع وهربوا". (مرقس ١٤: ٤٨ - ٥٠). فهذا نص في أن التلاميذ كلهم هربوا حين جاء الجند ليقبضوا

على المسيح، فلم يكن الذين يعرفونه .

ومما يدل على استجابة الله دعوته بأن ينقذه، ويَعْبُر عنه تلك الكأس عبارة المزامير التي يقولون: إن المراد بها المسيح، وهذا نصها: "أعني يا رب إلهي خلِّصني حسب رحمتك وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا، أما هم فيَلْعَنون، وأما أنت فتُبارك، قاموا وخَزُوا، أما عبدك فيَفْرَح، لِيَلْبِس خُصمائي خجلًا وليتعطَّفوا بخِزيهم كالرداء، أحمد الرب جدًّا بفمي وفي وسط كثيرين أسبحه؛ لأنه يقوم عن يمين المسكين ليُخلِّصه من القاضين على نفسه". (المزامير ١٠٩: ٢٦ ـ ٣١)، وفي العبارات التي ينسوبنها إلى المسيح شواهد أخرى تدور حول هذا المعنى[1].

خامسًا. مصادر مسيحية تؤكد نجاة المسيح من الصلب، ووقوع الصلب على شبيهه :

إن من أشهر وأقدم الأناجيل في الديانة النصرانية إنجيل برنابا، وهو أحد مصادر النصرانية الأساسية قبل انعقاد "مجمع نيقية"، ولقد كان برنابا صاحب هذا الإنجيل من أتباع المسيح القائمين على نشر دعوته، والتبشير باقتراب ملكوت السموات، وقد جاء عنه: "وكان هذا الرجل موثوقًا به في الكنيسة ثقة تامة ويندب لوعظ الناس المدعوين للدخول في الدين". (الأعمال ٢: ٢٦).

هذا الرجل وجد له إنجيل مدون، وهو عبارة عن قصة للمسيح كإنجيل متى ولوقا، ومرقس، ويوحنا، منقطع السند كما هي منقطعة السند، وهذا الإنجيل يقول فيه مترجمه د. خليل سعادة: تضاربت فيه آراء الباحثين، وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخبطوا فيه بين ضلالة وهدى، وتلمسوا حقيقته بين رشاد وهوى، واستنطقوا الآثار، والأسفار، واستفسروا الأعصار والأمصار، فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفي منهم عليلًا، أو يبرد لهم غليلًا.

وهذا الإنجيل كانت نسخته بمكتبة الباب ـ سكتس ـ بروما واختلسها أسقف يقال له "فرامرينو" حين عثر عليها مصادفة، فقرأها واعتنق الإسلام، وذلك في أواخر القرن السادس عشر، ويقول المترجم في مقدمته: إنه يرى أن كاتب إنجيل برنابا يهودي أندلسي متمكن من الديانة اليهودية والاطلاع عليها قد تنصر، واطلع اطلاعًا عظيمًا على النصرانية، ثم أسلم واطلع على الديانة الإسلامية، ويرى أن هذا الحل أقرب إلى الصواب، ثم قال: وبعد كل ما تقدم فإن هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة، وطراز راق من الفلسفة الأدبية، وأساليب تسحر الألباب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة في التعبير، وهو يرمي إلى ترقية العواطف البشرية إلى أفق سام وتنزيهها عن الشهوات البهيمية، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، حاثًّا على الفضائل، مقبِّحًا للرذائل داعيًا الإنسان إلى التضحية بنفسه في سبيل الإحسان إلى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع إخوانه.

وقال ناشره محمد رشيد رضا في مقدمته: "لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في

---

١. المرجع السابق، ص٣٨: ٤٠ بتصرف.

بيان الكتب التي تحرم قراءتها، فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا، وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد؛ أي قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، على أن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور، كما ذكر د. سعادة في مقدمته، والمثبت مقدم على المنفي.

مهما يكن من أمر فإنجيل برنابا واحد من الأناجيل التي ألفت في قصة المسيح، وإن كان يمتاز عن سائرها بالبلاغة، ودقة التعبير، ويصرح بأمور لعلها هي التي زهدت الكنيسة فيه حتى حرمه البابا جلاسيوس، ومن ذلك: التصريح باسم محمد في كثير من المواضع، وإني أنقل عن إنجيل برنابا لا لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ بل لأن روايته للحوادث أبين، واستقصاءه للأخبار أتم، وإن كان في نظري لا تخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعرية.

على أن د. سعادة مترجم إنجيل برنابا قال في مقدمته بعد أن أفاض في الاحتمالات والآراء في إنجيل برنابا: "بيد أن هناك إنجيلًا يسمى بـ "الإنجيل الأغنطسي" طمست رسومه، وعَفَت آثاره، يبتدئ بمقدمة تندد بالقديس بولس، وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك من إنجيل برنابا، فمن المحتمل ـ أيضًا ـ أن يكون الإنجيل الأغنطسي أبًا لإنجيل برنابا. وأقول: ومن المحتمل ـ أيضًا ـ أن كاتب الإنجيل الأغنطسي ألم بما كتبه برنابا في إنجيله، واقتبس منه ما أثبته في إنجيله، وأن إنجيل برنابا يصح أن يكون أبًا للإنجيل الأغنطسي. ولو أن المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت إلينا، ولو على نوع من التحريف، ولكن ذلك التحريم أعدم تلك الأناجيل وربما كان فيها الكثير الطيب، وإلا فأين الإنجيل الأغنطسي والأناجيل المذكورة في الأناجيل، وأنها وجدت والأناجيل التي كان الداعون إلى المسيحية كبولس يحذرون الناس من اتباعها كالتي كانوا يقولون إن أصحابها يحرفون إنجيل المسيح[1]؟

ومن المعلوم أن إنجيل برنابا يقرر أن الذي صُلب هو يهوذا الإسخريوطي تحديدًا، وأن المسيح لم يصلب؛ لذا نجد أن هذا الإنجيل تم استبعاده من قبل الكنيسة، ومن قبل "مجمع نيقية"؛ لأنه يتعارض مع ما يعتنقه الإمبراطور الروماني، والطوائف النصرانية الحاكمة، والموجودة داخل هيكل السلطة، والقوة، والنفوذ، والتغيير، والعجب كل العجب أن تتبع الطوائف النصرانية بولس وتثق به، ولا تتبع برنابا ولا تثق بإنجيله، ومن يراجع صفحة أو صفحات في تاريخ النصرانية، يتبين له الحق، وليقارن بين بولس ـ صاحب عقيدة الصلب والفداء ـ وبرنابا ـ صاحب الإنجيل الشهير ـ ليجد العجب، حيث كان النصارى لا يثقون ببولس، بل كانوا يعتبرونه عدوًّا للنصرانية، أما برنابا فكان يقرر أن المسيح لم يصلب، وأن الذي صُلب هو يهوذا شبيهه، ولكن النصارى لا يأخذون بقوله؟!

أضف إلى ذلك ما نشرته مجلة "المجلة" في عددها الصادر بتاريخ ٩/ ١٠/ ١٩٩٣م، برقم (٧١٢) حول اكتشاف عدد من المخطوطات الضائعة من مكتبة الإسكندرية، كانت بنجع حمادي، وعثروا فيها عثروا على أناجيل مكتوبة بالقبطية، كانت قد دُفنت يوم

---

١. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٤٧٩: ٤٨١.

أصدرت روما في القرن الرابع الميلادي أمرها بإحراق الأناجيل غير الأربعة. وقد جاء في الأناجيل القبطية المكتشفة: جاء على لسان بطرس: "إن الذي رأيته سعيدًا يضحك هو يسوع الحي، لكن من يدخلون المسامير في يديه وقدميه فهو البديل، فقد وضعوا العار على الشبيه"، وورد فيها أيضًا على لسان المسيح: "كان آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، كنت أنا في العلاء أضحك لجهلهم"[1].

لا أعلم إلى متى سيكتم النصارى المصادر التي تصرح بعدم صلب المسيح، ووقوع الصلب على شبيهه؟ وإلى متى لا يعترفون بالحقيقة الواضحة؟ أم إنهم كما يقول الله ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (القصص: ٥٠).

سادسًا. اختلاف الأناجيل في مسألة الصلب يؤكد أن المسيح لم يصلب:

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل مسألة صلب المسيح وقتله، فلا تكاد جزئية من الجزئيات في أحدها تتحد مع الجزئية نفسها في إنجيل آخر، ولما كانت هذه الأناجيل من تأليف قوم يدعي المسيحيون لهم الإلهام، ويعتقدون خلوها من الخطأ، كان ينبغي أن تكون كتابتهم في هذه الحادثة المهمة التي هي مناط النجاة، ودعامة الإيمان في نظرهم متطابقة متوافقة بحيث لا يكون فيها اختلاف أصلًا، إذ النفس لا تطمئن إلى الأخذ بروايات إذا اتفقت في موضع واحد من قصة جاءت في جميعها فإنها تتخالف في مواضع كثيرة، وإذا لم يكن الراوي أمينًا كل الأمانة كانت الثقة بروايته ضعيفة والتصديق بها غير سائغ.

فقد خالف مرقس متى، فزاد في شهادة الشهود عليه قول الشاهدين: "إني أنقضُ هذا الهيكل المصنوع بالأيادي، وفي ثلاثة أيام أبني آخر غير مصنوع بأياد.. فسأله رئيس الكهنة أيضًا وقال له: أأنت المسيح ابن المبارك؟ فقال يسوع: أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة، وآتيًا في سحاب السماء". (مرقس ١٤: ٥٨ ـ ٦٢)، فخالف مَتَّى في هذه المواضع. وقوله: "المبارك" يريد "داود".

وأما لوقا فقد ضرب صفحًا عن طلب شهود زور على المسيح، ولم يذكر سوى قول مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة: إن كنتَ أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلتُ لكم لا تُصدِّقون، وإن سألتُ لا تُجيبونني ولا تُطْلِقونني. منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله. فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون إني أنا هو". (لوقا ٢٢: ٦٧ ـ ٧٠)، فخالف بذلك كُلًّا من سابقيه، ومن المفارقات قول لوقا: إنهم قالوا له: " أفأنت ابن الله"؟ مع أنه لم يَدَّعِ أنه ابن الله، بل عَبَّر بلفظ "ابن الإنسان".

وأما يوحنا فقد ألغى شهادة الزور وشهوده، وألغى محاكمة الكهنة والشيوخ والكتبة له، ولم يذكر من ذلك شيئًا أصلًا وهو من أصحاب المسيح وقد شهد ما لم يشهده مَتَّى؛ لأنه كان معروفًا من رئيس الكهنة، ودخل داره مع يسوع، كما نصَّ على ذلك يوحنا في إنجيله مُكذِّبًا مرقس الذي يقول: وهرب منهم

---

١. مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام رشدي الزين، مرجع سابق، ص٣٢٩.

عُريانًا". (مرقس ١٤: ٥٢)، وبعد هذا فشهادة من شهدوا بمسألة نقض الهيكل ليست شهادة زور، فقد جاء في يوحنا: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أُقِيمه". (يوحنا ٢: ١٩)، فكيف يصح أن يُقال: إنهم شهدوا زورًا؟

وبعد هذا كله فإن الكهنة، ورئيسهم لم يقولوا: إن سبب الموت هو ما ذكر من هدم الهيكل وبنائه، بل حين قال لهم: إنه المسيح على رأي مرقس، وإنه سيكون على يمين قوة الله، ومع هذا، فلم يرفعوه إلى الوالي بشيء من هذا، بل قالوا: إنه يفسد الشعب ويقول: إنه ملك اليهود.

قال متى: "ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة، وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به، ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالي. (متى ٢٧: ١، ٢)، ووافقه مرقس غير، أنه لم يذكر صفة بيلاطس ولا جنسيته، واختصر فقال: "فقام كل جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطس". (لوقا ٢٣: ١)، وقال يوحنا: "ثم جاءوا بيسوع من عند قَيافا إلى دار الولاية، وكان صُبْحٌ. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجَّسوا، فيأكلون الفِصْح". (يوحنا ١٨: ٢٨). وهذه العبارة انفرد بها يوحنا دون الثلاثة.

قال متى: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دِينَ، ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلًا: قد أخطأتُ إذ سَلَّمْتُ دمًا بريئًا. فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يَحِلُّ أن نُلْقِيَها في الخزانة لأنها ثمن دم. فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخَّاري مقبرة للغُرباء. لهذا سُمِّي ذلك الحقل «حقل الدم» إلى هذا اليوم. حينئذ تم ما قيل بإرميا النبي القائل: وأخذوا الثلاثين من الفضة، ثمن المُثَمَّن الذي ثمَّنوه من بني إسرائيل، وأعطوها عن حقل الفخاري، كما أمرني الرب". (متى ٢٧: ٣ ـ ١٠).

هذا التقرير قد أسقطه أصحاب الأناجيل الثلاثة وخالفه مؤلفه الأبركسيس: "فإن هذا ـ أي يهوذا ـ اقتنى حقلًا من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط، فانكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلومًا عند سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم "حقل دما" أي: حقل دم". (أعمال الرسل ١: ١٨، ١٩)، فالفرق بين تقرير متى وتقرير سفر الأعمال ظاهر، وإذا أخذنا بأحدهما وجب أن يكون الآخر كاذبًا، وعبارة سفر الأعمال تفيد أن مؤلفه ليس عبرانيًّا؛ بدليل قوله: "في لغتهم".

وبعد هذا فقد نسب متى إلى رؤساء الكهنة شراء حقل الفخاري بالفضة، وحينئذ تم ما قيل بأرمياء إلى آخره.

ونسب القول إلى أرمياء غلط؛ فإن هذا القول لا يوجد في كتب أرمياء، فذِكْر مَتَّى لاسم أرمياء غلط يقينًا، وورد هذا القول في سفر زكريا، ونصُّه: "فقلت لهم: «إن حَسُن في أعينكم فأعطوني أُجْرَتي وإلا فامتنعوا». فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب: «أَلْقِها إلى الفُخَّاري، الثَّمن الكريم الذي ثمَّنوني به». فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها

إلى الفخاري في بيت الرب. ثم قصفت عصاي الأخرى حبالًا لأنقض الإخاء بين يهوذا وإسرائيل". (زكريا ١١: ١١٢ ـ ١٤).

وبعد فهذا الكلام الذي في زكريا لا تعلق له بالمسيح أصلًا، وليس في شأنه، ولكن القوم يتصيدون كل الكلام ويلحقونه بكتبهم المقدسة ليقيموه دليلًا على أن الحادثة قد تنبأ بها الأنبياء من قبل، وهي بعيدة من غرضهم بُعد السماء من الأرض.

وكذلك فقد اختلفت الأناجيل الأربعة في بَسْط السبب الذي بنى عليه الوالي صلب المسيح، وكل واحد يخالف الآخر، وإذا قلنا الوالي، فلا نعني بذلك أنه أدان المصلوب أو وجده مذنبًا، فإن كل أناجيل القوم مُصرِّحة بأنه لم يجد فيه عِلَّة تستوجب الموت، قال متَّى: "فوقف يسوع أمام الوالي. فسأله الوالي قائلًا: «أأنت ملك اليهود؟» فقال له يسوع: «أنت تقول». وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يُجِب بشيء. فقال له بيلاطس: «أما تسمع كم يشهدون عليك؟» فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة، حتى تعجب الوالي جدًّا. (متى ٢٧: ١١ ـ ١٤)، وقد وافقه مرقس: "فسأله بيلاطس: «أأنت ملك اليهود؟» فأجاب وقال له: «أنت تقول». وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيرًا. فسأله بيلاطس أيضًا قائلًا: «أمَا تجيب بشيء؟ انظر كم يشهدون عليك!» فلم يجب يسوع أيضًا بشيء حتى تعجب بيلاطس". (مرقس١٥: ٢ ـ ٥)، وأما لوقا فأثبت ما لم يثبته متى ومرقس؛ حيث قال: "وابتدءوا يشتكون عليه قائلين: إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر، قائلًا: إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلًا: أنت ملك اليهود؟ فأجابه وقال: أنت تقول". (لوقا ٢٣: ٢، ٣)، وبدهي أن هذا ضد ما قاله متى من أنه لم يُجِب بشيء حتى تعجب الوالي.

والمطلع على الأناجيل يعلم فساد تلك الدعاوى بما أثبته أصحابه من قوله: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ومن هربه ممن أرادوا المناداة به ملكًا، فلو أنه المسيح نفسه لتبرَّأ من مقالتهم، واستشهد على نقض دعواهم، ولكنه المسكين يهوذا الإسخريوطي الذي دُهِش للقبض عليه وارتبك عقله، واستغرق في التأمل فيما هو قادم عليه من أهوال الموت، فأنساه ذلك الجواب، وقد انفرد لوقا بإحياء هيرودس الذي أثبت موته من قبل، وذكر أن بيلاطس أرسل إليه بيسوع، وكان هيرودس ـ الميت من زمن مديد ـ يتمنى رؤية المسيح، وأراد أن يصنع أمامه آية، فلم يُجبه بشيء، وكيف يجيبه أو يصنع آية وليس هو المسيح صاحب الآيات، وإنما هو يهوذا[1] ®؟

سابعًا. تنبؤات المسيح بنجاته من القتل:

لعله قد تبين لنا مما سبق أن فكرة قتل المسيح كانت دخيلة على رسالته، وأنه بذل كل جهده للعمل ضدها. ويزداد الأمر يقينًا حين نرى ما تذكره الأناجيل عن تنبؤات المسيح بنجاته من كل المحاولات التي يبذلها اليهود لقتله.

---

١. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥١٦: ٥٢٦ بتصرف.

® في **"بطلان عقيدة الصلب والفداء بنصوص الإنجيل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة والتسعين، من هذا الجزء.

وسوف نكتفي بذكر تلك التنبؤات الواضحة، التي لا يحتاج فهمها إلا لقراءتها فقط:

- "فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلًا: «تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آتِ، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه، وهو أرسلني». فطلبوا أن يمسكوه، ولم يُلقِ أحد يدًا عليه، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. فآمن به كثيرون من الجمع، وقالوا: «ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». سمع الفرِّيسيُّون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خُدَّامًا ليمسكوه. فقال لهم يسوع: «أنا معكم زمانًا يسيرًا بَعْد، ثم أَمْضِي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا». فقال اليهود فيما بينهم: إلى أين هذا مُزْمِع أن يذهب حتى لا نجده نحن؟ ألعلَّه مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلِّم اليونانيين؟ ما هذا القول الذي قال: ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟". (يوحنا ٧: ٢٨ ـ ٣٦).

لا نظن أن أحدًا يشك في وضوح هذا القول الذي يعني - رغم أي شيء ـ أن اليهود حين يطلبون المسيح لقتله فلن يجدوه؛ لأنه سيمضي للذي أرسله، أي: سيرفعه الله إليه. ومن الطبيعي أن يُقال: إن السماء مكان يعجز اليهود عن بلوغه تعقبًا للمسيح، بالإضافة إلى عجزهم عن فهم قوله وتحديد المكان الذي أشار إليه في حديثه هذا.

إن هذه النبوءة تقرر شيئًا مهمًا، وهو أن اليهود حين يطلبون المسيح فلن يجدوه، سوف تحدث المعجزة قبل أن يمسكوه، وتتدخل ذراع الرب لإنقاذه قبل أن يُلْقِي أحد عليه الأيادي.

- وفي موقف آخر من مواقف التحدي بين المسيح واليهود أكد لهم نبوءته السابقة، وأن محاولاتهم ضده ستنتهي برفعه إلى السماء بعد عجزهم عن الإمساك به: "قال لهم يسوع أيضًا: أنا أَمْضِي وستطلبونني، وتموتون في خطيَّتكم. حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. فقال اليهود: ألعله يقتل نفسه حتى يقول: حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟ فقال لهم: أنتم من أسفل، أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلستُ من هذا العالم. فقلت لكم: إنكم تموتون في خطاياكم، لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم. فقالوا له: من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء ما أُكلِّمكم أيضًا به. إن لي أشياء كثيرة أتكلَّم وأحكم بها من نحوكم، لكن الذي أرسلني هو حق. وأنا ما سمعته منه، فهذا أقوله للعالم. ولم يفهموا أنه كان يقول لهم عن الآب. فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان، فحينئذ تفهمون أني أنا هو، ولست أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلَّم بهذا كما علَّمني أبي. والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يُرضِيه". (يوحنا ٨: ٢١ ـ ٢٩).

ولقد كانت آخر أقوال المسيح لتلاميذه ــ في تلك اللحظات التي سبقت عملية القبض مباشرة ـ هو تأكيده لهم أن الله معه دائمًا، ولن يتركه: "أجابهم يسوع: ألآن تؤمنون؟ هو ذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرَّقون فيها كل واحد إلى خاصته،

وتتركونني وحدي. وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي. قد كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام. في العالم سيكون لكم ضِيق، ولكن ثِقوا: أنا قد غلبتُ العالم". (يوحنا ١٦: ٣١ ـ ٣٣).

من المؤكد إذن أن ذلك المَصْلوب الذي تركه إلهه فأطلق صرخة اليأس على الصليب قائلًا: "إلهي إلهي، لماذا تركتني". (متى ٢٧: ٤٦) ـ إنما هو شخص آخر غير المسيح الذي يقول لتلاميذه بكل ثقة ويقين: "أنا لستُ وحدي لأن الآب معي". وما من شك في أن المصلوب قد غلبه أعداؤه، وقهره الموت، وساد عليه بعد أن تجرَّع كأسه المريرة حتى النهاية. ولهذا يقول بولس: "إن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضًا. لا يسود عليه الموت بعد". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٦: ٩).

نعم لقد ساد الموت على المصلوب كما يسود على كل الموتى ـ كما قرر بولس ـ أما ذلك الذي غلب العالم، فهو الذي حطَّم الإرادة الشريرة لمن في ذلك العالم من أشرار، فمنع محاولاتهم سَحْقه، وردَّ الضربة على رأس الخائن.

- "أقول لكم: إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا: مبارك الآتي باسم الرب". (متى ٢٣: ٣٩). إن التحدي في هذا القول واضح، ذلك أن المسيح يؤكد لأعدائه أنهم لن يروه منذ تلك الساعة، حتى يأتي في نهاية العالم: "وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابة بقوة ومجد كثير". (لوقا ٢١: ٢٧). لكن ذلك المصلوب رآه الكهنوت اليهودي أسيرًا في قبضته أثناء المحاكمة، ثم رأوه بعد ذلك مُعلَّقًا على الخشبة قتيلًا، قد أسلم الروح والمشيئة، ولم يَبْقَ منه إلا جسد خامد، فقد نبض الحياة[1].

ثامنًا. شخصية المسيح لا تتلاقى مع النهاية الاستسلامية التي صنعها كُتَّاب الأناجيل:

إذا كانت الأناجيل مليئة بالتناقضات التي يستحيل قبولها وتصديقها عقليًّا على المستوى العام، فإنها مليئة بتناقضات أشد استعصاء وأبعد تصديقًا في الأحداث الأخيرة في حياة المسيح قبل الصلب المزعوم وبعده، وبوسع أي قارئ غير متخصص أن يدرك هذا بعد قراءة سريعة لصفحات الإنجيل فضلًا عن عالم متخصص.

وتعليقًا على الأحداث الأخيرة قبيل الصلب المزعوم وتحليلًا لها يقول الداعية الإسلامي أحمد ديدات: "لن يظل يسوع كالبطة الساكنة في انتظار القبض عليه خِلْسة من اليهود، ها هو يهوذا يُعِدُّ حوارِيِّيه للخاتمة الوشيكة، وفي حَيْطة وحذر؛ حتى لا يدخل الخوف على قلوب حوارييه، أعدَّ خُطَّة الدفاع، فيقول لهم في لُطْفٍ: "حين أرسلتكم بلا كِيس ولا مِزْوَد ولا أحذية، هل أَعْوَزكم شيء؟ فقالوا: لا. فقال لهم: لكن الآن، من له كيس فليأخذه ومزود كذلك. ومن ليس له فلْيَبِعْ ثوبه ويشترِ سيفًا". (لوقا ٢٢: ٣٥، ٣٦).

هذا الإعداد للجهاد، للحرب المقدَّسة ضد اليهود، لماذا؟ لماذا هذا التحول نحو العنف؟ ألم يسبق له أن نصحهم: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسِنٌّ بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لَطَمَك على

---

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٠٧: ٢٠٩.

خدَّك الأيمن فحوِّل له الآخر". (متى ٥: ٣٨، ٣٩)، "حينئذ تقدَّم إليه بطرس وقال: يا رب، كم مرة يُخطئ إلي أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات". (متى ١٨: ٢١، ٢٢)، (٧٠ × ٧ = ٤٩٠)، أليس هو الذي أرسل حوارييه الاثني عشر المختارين قائلًا لهم: "ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيَّات وبسطاء كالحمام". (متى ١٠: ١٦).

الموقف والظروف تغيَّرت، وكأي قائد مقتدر وحكيم، فإن الاستراتيجية يجب أيضًا أن تتغير. كان الحواريون قد تسلَّحوا بالفعل، كانت لهم بصيرة، لم يكونوا قد غادروا الجليل صفر اليدين من السلاح. أجابوا قائلين: "يا رب، هوذا هنا سيفان. فقال لهم: يكفي". (لوقا ٢٢: ٣٨).

يقول المبشرون إبقاءً على الانطباع السائد عن يسوع الوديع المسالم أمير السلام: "إن السيوف كانت سيوفًا روحية. ولكن إذا كانت السيوف روحية لكان من الواجب أن تكون الملابس أيضًا ملابس روحية. ولو كان الحواريون سيبيعون الملابس الروحية لشراء سيوف روحية، فإنهم في هذه الحالة سيكونون عُراة روحانيين، وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدًا لا يستطيع قطع آذان الناس بسيوف روحية، ففي إنجيل متى: "وإذا واحد من الذين مع يسوع مدَّ يده واستلَّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة، فقَطَع أذنه. فقال له يسوع: رُد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يَهْلِكون". (متى ٢٦: ٥١، ٥٢)، إن العمل الوحيد للسيوف والبنادق هو القطع والقتل، والناس في عصر المسيح لم تكن تحمل السيوف لتقشير التفاح والموز"[1].

ويستطرد ديدات في تحليل ووصف مشهد القبض على يسوع، فيقول: "تم القبض عليهم نيامًا، داس عليهم عدوهم بأحذيته الثقيلة، "فلما رأى الذين حوله ما يكون، قالوا: «يا رب، أنضربُ بالسيف؟» وضرب واحد منهم - بطرس - عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى. فأجاب يسوع وقال: «دعوا إليَّ هذا!» ولمس أذنه وأبْرَأها. (لوقا ٢٢: ٤٩ - ٥١).

ألم يكن يسوع يعرف وجه الحق في قوله السالف، عندما أمر أتباعه أن يبيعوا ملابسهم، ويشتروا بثمنها سيوفًا؟ بالتأكيد كان يعرف، إذن فلماذا هذا التناقض الآن؟!

لماذا لا يُعطي المسيحيون المجادلون سيدهم ومولاهم حقه وقدره؟ لأنهم بُرْمِجوا لمدة ألفين من السنين على أن عيسى عليه السلام الحمل الوديع، أمير السلام، لا يستطيع أن يؤذي ذبابة. ويتجاهلون الجانب الآخر في طبيعته الذي يتطلب الدم والنار. وهم يتناسون أوامره إلى أتباعه أن يحضروا أعداءه الذين لا يعترفون بحكمه: "جئتُ لأُلقِي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرَمَت؟ ولي صِبْغَة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تُكمَل؟ أتظنُّون أني جئتُ لأُعْطِي سلامًا على الأرض؟ كلَّا، أقول لكم: بل انقسامًا". (لوقا ١١: ٤٩ - ٥١)[2].

ثم يتكلم ديدات عن خُطَّة الخلاص التي يعرضها

---

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٦٨، ١٦٩ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٧٤، ١٧٥ بتصرف.

الإنجيل، فيقول: "إذا كان ذلك هو خطة الله لاتخاذ قربان أخطاء البشرية، فإنه يكون ـ وحاشا لله أن يكون ـ قد اختار الفداء غير المناسب، إن الممثل الشخصي لله كان حريصًا على ألَّا يموت. يتسلَّح، يبكي، يعرق، يصيح، يشكو! وازن بينه وبين شخص آخر كاللورد نلسون بطل الحرب الإنجليزي الذي واجه الموت، بهذه الكلمات الخالدة: "شكرًا لله فقد أديت واجبي"، هناك ملايين اليوم يُقدِّمون أرواحهم طواعية، وفي سرور من أجل الملك، ومن أجل الوطن بابتسامة على وجوههم، وهم يصيحون "الحمد لله"، أو "الله أكبر"، أو "فلتحيا الملكة". عيسى كان ضحية غير راغبة في ذلك.

إذا كان ذلك حقًّا بتدبير الله في الخلاص، إذن فهي مؤامرة قاسية، إنه اغتيال بالدرجة الأولى وليس فداء شخصيًّا.

يقول الميجور بيتس براون في كتابه "حياة قنَّاص في بلاد البِنْجال" مُلخِّصًا عقيدة الفداء المسيحية في جملة واحدة: "لم تتفهَّم قبيلة واحدة من تلك القبائل الوثنية مثل هذه الفكرة الهائلة، وفيها ما فيها من أن الإنسان كان قد جاء إلى الوجود ملطخًا بالخطيئة، وأن هذه الخطيئة التي لم يكن مسئولًا عنها كانت في حاجة إلى مَنْ يُكَفِّر عنها، وأن خالق كل الأشياء كان عليه أن يُضحِّي بابنه الوحيد المولود من صلبه؛ لكي يُزيل أثر هذه اللعنة المبهمة"[1].

وهكذا نرى المسيحية غير مقنعة لدى المبشِّرين والمبشَّرين بها على حدٍّ سواء، ومن العجب أن يطلبوا منا أن نقبل هذه الأضاليل التي لا يسوغها عقل سليم، فكيف إذا كان بين أيدينا السراج الساطع، والبرهان الواضح، والتفسير الشامل، أنتركه ونتبعهم؟!

ولقد ترتَّب على بحث قضية الصلب في الأناجيل ـ الكلام للواء أحمد عبد الوهاب ـ ما يلي:

١. اختلفت روايات الأناجيل الأربعة في أحداث الصلب: فقد اختلف الرواة في مقدمة الأحداث مثل قصة مسح جسد المسيح بالطيب، وقصة خيانة يهوذا. كذلك اختلف الرواة في العَشاء الأخير[2] وكيفية التحضير له وتوقيته ودور يهوذا، وما قيل عن شك التلاميذ الذي تنبأ المسيح بوقوعهم فيه في تلك الليلة الأخيرة، واختلفت الأناجيل في الليلة الأخيرة وأحداثها، وإن كان هناك اتفاق على أنه في قمة المحنة التي تعرَّض لها المسيح "تركه التلاميذ كلهم وهربوا".

واختلفوا في المحاكمات وإعدادها وزمانها ومكانها، كما اختلفوا في قصة إنكار بطرس، وكان الخلاف حادًّا في الصلب، وأحداثه السابقة واللاحقة، ولعل أخطر خلاف وقع هو ما قيل عن توقيت الصلب ويومه، فقد

---

١. المرجع السابق، ص١٧١، ١٧٢.

٢. العَشاء الأخير: يُطلق عليه أيضًا "التناول"، ويُرمز إليه أيضًا بـ "العشاء الرباني"، وهو عشاء عيسى عليه السلام مع تلاميذه؛ إذ اقتسم معهم الخبز والنبيذ، والخبز يرمز إلى جسد المسيح عليه السلام الذي كسر لنجاة البشرية. أما الخمر فيرمز إلى دمه الذي سُفِك لهذا الغرض، ويستعمل في هذا العشاء قليل من الخبز وقليل من الخمر لذكرى ما فعل المسيح ﷺ ليلة موته على حدِّ تعبير النصارى، وكذلك ليكون هذا طعامًا روحيًّا للمسيحيين، فمن أكل هذا الخبز وشرب هذا الخمر استحال الخبز إلى لحم المسيح والخمر إلى دمه، فيحصل امتزاج بين الآكل وبين المسيح وتعاليمه.

تأرجح ذلك بين يوم الخميس على أحد الأقوال، ويوم الجمعة على أقوال أخرى، وكما اختلفوا في الصلب، فإنهم اختلفوا في الدَّفن.

٢. واختلفت الروايات التي ذكرت عن نهاية يهوذا، وإن كانت قد اتفقت على أنه هلك في أعقاب حادث الصلب، وفي ظروف غامضة تناظر ما قيل عن هلاك بيلاطس الحاكم الروماني. وهذا الأخير ذكرت بعض الروايات أنه مات ميتة القديسين والشهداء، بينما قالت رواية أخرى أنه مات ميتة الشياطين.

٣. وفي شتى المناسبات رأينا المسيح يرفض كل محاولة لقتله يقول لليهود: "لماذا تطلبون أن تقتلوني"؟ وعند المحاكمة كان المقبوض عليه يقول لمحاكميه: "إن سألت لا تجيبوني ولا تطلقوني". بل في النزع الأخير نجد ذلك المصلوب يصرخ في يأس وحسرة قائلًا: "إلهي إلهي لماذا تركتني"؟!

٤. ويكفي أن نورد في موضوع تنبؤات المسيح بنجاته من القتل قوله: "ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا".

٥. وأما عن تنبؤات المزامير بنجاة المسيح من القتل، فقد ظهرت فيها الحقيقة بأوضح ما تكون مؤكدة جميعها نجاة المسيح؛ لأن "الرب يحفظه ويُحييه، يَغْتَبط في الأرض، ولا يُسلِّمه إلى مَرام أعدائه". (المزامير ٤١: ٢).

وجاء على لسان المسيح أيضًا: "لا أموت بل أحيا وأُحدِّث بأعمال الرب. تَأْدِيبًا أدَّبني الرب، وإلى الموت لم يُسْلِمني".(المزامير ١١٨: ١٧، ١٨)، أما يهوذا الخائن فإنه "سقط في الهُوَّة التي صنع. يرجع تعبه على رأسه، وعلى هامته يهبط ظلمه. أحمد الرب حسب بره، وأرنم لاسم الرب العلي". (المزامير٧: ١٥ــ ١٧)، وذلك لأن: "معروف هو الرب. قضاءً أمضى. الشرير يَعْلَق بعمل يديه". (المزامير ٩: ١٦)، لقد صُلِب يهوذا، فهكذا تنبأت المزامير.

٦. ولقد اختلف المسيحيون الأوائل في صلب المسيح: اختلفوا فيه كحادث، فقال بعضهم: ما صلب المسيح، ولكن صلب أحد تلاميذه. كذلك اختلفوا في الصلب كنظرية تتكلم عن الفداء والخلاص، فرفضه الرافضون، وقالوا: إن الإنسان يعتمد على ركيزتين اثنتين هما: إيمان بالإله الواحد خالق الأكوان، وعمل صالح يثبت ذلك الإيمان ويصدقه. وما عدا ذلك فهو ضلال وضياع.

تلك هي خلاصة النتائج التي انتهى إليها بحث قضية الصلب، وهي تبين أن الصلب يمثل بحق ذروة المشاكل والتناقضات التي تحتويها الأناجيل.

إنه مشكلة رئيسة يكمن حلها في عقل القارئ، وضميره، وهو يستطيع حلها بسهولة بشرط ألا يكون من الذين قال عنهم المسيح: تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة: "اذهب وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعًا ولا تفهموا، وأبصروا إبصارًا ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثَقِّل أذنيه واطمُس عينيه، لئلَّا يُبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويَرجع فيُشْفَى". (إشعياء ٦: ٩، ١٠)[(١)].

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٨٠: ٢٨٣ بتصرف.

تاسعًا. طوائف نصرانية تنكر صلب المسيح:

إذا نظرنا إلى مسألة صلب المسيح ابن مريم وقتله لم نجدها عند المسيحيين مسألة إجماعية، بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل، فمن القائلين بذلك: (الساطرسيون، والكاربوكراتيون، والمراكيونيون، والبارديسيانيون، والبارسكاليونيون، البوليسيون)، هؤلاء مع كثير غيرهم لم يسلموا بوجه من الوجوه بأن المسيح سُمِّر فعلًا، ومات على الصليب - وما ذكر هنا مقرر في تاريخهم - موسيهيم - الذي يُدرَّس في مدارس اللاهوت الإنجيلية.

ومن القائلين بأن الشخص المصلوب غير عيسى قطعًا، وأنه لم تُسلَّط عليه أيدي مضطهدين، بل رفع إلى السماء طوائف: (الدوسيتية ــ والمرسيونية ــ والقلنطنيائية)، ونذكر هنا شهادات من بعض علماء النصرانية تفيد المُطَّلِع بصيرة:

١. قال المسيو إرادوارسيوس الشهير بمعارضة المسلمين في كتابه "عقيدة المسلمين في بعض مسائل النصرانية" صفحة ٤٩ - قال: "إن القرآن ينفي قتل عيسى وصلبه، ويقول بأنه ألقي شبهه على غيره فغلط اليهود فيه وظنوا أنهم قتلوه، وما قاله القرآن موجود عند بعض طوائف النصارى، وقد صرَّح إنجيل القديس برنابا باسم الذي صلب بدل عيسى فذكر أنه يهوذا".

٢. ذكر الهرارنست دي بونس الألماني في كتابه "الإسلام أي النصرانية الحق" في صفحة ١٤٢: أن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح من أصول النصرانية الأصلية.

٣. قال ملمن في الجزء الأول من كتابه المُسمَّى "تاريخ الديانة النصرانية": "إن تنفيذ الحكم كان في وقت الغَلَس[1] وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال أحد المجرمين بالمسيح ممن كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم، كما اعتقدت بعض الطوائف وصدقهم القرآن"[2].

٤. ألقى البروفسور فنك مؤسس "ندوة عيسى" الشكوك على قصة صلب المسيح ﷺ إذ كتب: "إن قصة الصلب ليست من الأمور المقطوع بها"، وكتب أيضًا: "إن قصة إلقاء القبض على المسيح ومحاكمته وإعدامه هي في معظمها من نسج الخيال"، وكتب: "إن رواية مرقس عن الآلام التي تصل ذروتها بإلقاء القبض على عيسى، ومحاكمته وصلبه هي من نسج خياله القصصي"، وأيضًا: "إن قصة الصلب لا تليق أن تحدث للمسيح إطلاقًا".

٥. وكتب ويلسون: "ليس هنالك من براهين حقيقية وصادقة لقصة اعتقال عيسى وإعدامه"، وكتب أيضًا: "تذكر الأسفار الثلاثة الأولى أن عيسى أسس طقس القربان المقدس خلال، أو بعد الوجبة التقليدية لعيد الفصح اليهودي، فلو صح ذلك لكانت كل تفاصيل القصة: الاعتقال والمحاكمة، والصلب من نسج الخيال، إذ لا يعقل أن يقوم اليهود بخرق أكثر أعيادهم قداسة لأجل محاكمة شخص".

---

١. وقت الغَلَس: ظُلْمة آخر الليل إذا اختلط بضوء الصباح.
٢. قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٣٠، ٥٣١.

١. أما البروفسور بورتون ماك فليس لديه أي شك في أن القصة خرافية؛ حيث كتب: "أما بالنسبة لقصة الصلب والقيامة، فإن مرقس ـ أول من كتب القصة ـ أخذ الفكرة الأساسية من أسطورة كريستوس، غير أنه تجرأ بأن تخيل كيف يمكن أن تبدو قصة الصلب والقيامة لو كتبها تاريخًا فعليًّا تمت أحداثه في القدس، وهو ما كانت الأسطورة ترفضه، وهكذا يمكننا أن نفهم قصة مرقس باعتبارها دمجًا لأحداث عيسى الحقيقي مع أسطورة كريستوس"، وكتب: "كافة القصص في الأسفار الأخرى تبدأ من مرقس فلا يغير أحد من المؤلفين بعد مرقس أساس القصة"، وكتب أيضًا: "ثم بعد ذلك صار المسيحيون يتخيلون قصة مرقس الخيالية كما لو كانت تاريخًا واقعًا".

٢. وكتب البروفسور Geza Vermes ما يلي: "لم يكن النصارى يعتقدون بقصة آلام المسيح ولا بقصة صلبه"، و"إن أحداث محاكمة المسيح من قبل المحكمة اليهودية العليا بتهمة دينية، وصدور الحكم عليه ثم تصديقه من السلطة السياسية، كل هذه الأحداث ليست خارج نطاق الالتباس والريبة".

وفوق كل ذلك نلاحظ أنه لا يوجد في سفر الأقوال، ولا في سفر توما، المكتشف حديثًا، أي إشارة لا من قريب ولا من بعيد عن قصة الآلام والصلب، مع أنهما كتبا في وقت مبكر أي حوالي ثلاثين عامًا قبل أول ما كتب من الأسفار الأربعة، فلا بد أنهما أقرب إلى الحقيقة فيما يتعلق بحياة عيسى عليه السلام من الأسفار القانونية الأربعة.

٣. كانت رسالة شيث الكبير الثانية ***Second Treatise of the Great Seth*** من جملة المخطوطات التي تم اكتشافها في نجع حمادي بمصر سنة (١٩٤٥م)، وقد ورد فيها على لسان المسيح ما يلي: "لقد كان شخصًا آخر.. الذي شرب المُرَّ والخل، لم يكن أنا.. كان شخصًا آخر. كان شخصًا آخر الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه، في حين كنت مبتهجًا في الأعالي من فوق.. كان خطؤهم.. وكنت أضحك من جهلهم". (٥٦: ٦ ـ ٢٠).

٤. كما ورد أيضًا في مخطوطة "رؤيا بطرس ***Apocalypse of Peter***"، المكتشفة أيضًا في نجع حمادي ما يلي: "لقد رأيته، كما بدا لي في ظاهره، وهم يقبضون عليه فقلت: ماذا أرى؟ يا إلهي! هل أنت حقًّا الذي أخذوه؟ وهل يدقُّون المسامير في قَدَمَي ويدي شخص آخر؟ ومن هو هذا الذي فوق الصليب يضحك مبتهجًا؟ قال لي: هذا الذي تراه يضحك مبتهجًا فوق الصليب هو المسيح الحي، أما الذي يدق المسامير في يديه ورجليه فهو البديل، لقد ألحقوا العار بشبيهه الذي بقي بين أيديهم فانظر إليَّ، وانظر إليه!". (رؤيا بطرس ٨١: ٤ ـ ٢٤)[1].

إن القرآن الكريم حسم كليةً التخبط واللغط في موضوع الصلب ـ صلب المسيح ـ حين قال الله عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ

---

١. المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٢١: ٢٢٣.

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ (النساء).

عاشرًا. مسألة الصلب بين إقرار بولس ورفض المسيح:

نشر ماكيل هارت ـ وهو مؤرخ بحَّاثة وعالم رياضيات مشهور ـ كتابًا بعنوان "المائة العظام في التاريخ" ووضع لائحة بأسماء هؤلاء المائة العظام، موضحًا الأسباب الموجبة لموقع كل واحد منهم في لائحته، ومن المدهش حقًّا أن يضع محمدًا ﷺ على رأس لائحة المائة؛ وذلك لأسباب وجيهة، في حين أنه وضع عيسى المسيح عليه السلام الرجل الذي يدعوه المسيحيون "الرب" و "المخلص"، ولأسباب وجيهة أخرى، وضعه في المقام الثالث في القائمة.

مع العلم بأن عدد المسيحيين اليوم يزيد على عدد المسلمين بما يقرب من مائتي مليون، فإن موقع عيسى ابن مريم هو الثالث في اللائحة؛ لأن المؤرخ هارت يقول بأن بولس وعيسى هما مؤسسا المسيحية، ولكنه يعطي الفضل الأكبر إلى بولس، وكل مسيحي يسلم بأن المؤسس الفعلي للمسيحية هو بولس، وليس عيسى عليه السلام.

إن أسباب الخلاف بين المسلم والمسيحي حول العقيدة، والإيمان، والأخلاق، والفضائل تعود إلى أقوال بولس في رسائله، كورنثوس، فيلبي، غلاطية، تسالونيكي، وغيرها في الكتاب المقدس.

وعلى العكس مما نصَّت عليه تعاليم المعلم ـ عيسى ـ بأن الخلاص يتم فقط بحفظ الوصايا وتطبيق الناموس: "فإني الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يُدْعَى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلم، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات". (متى ٥: ١٨، ١٩)، يدقُّ بولس هذا مسماره واضعًا الوصايا والناموس على الصليب "كولوسي ١٤٠٢" مدعيًا أن الخلاص هو فقط في موت وقيامة عيسى المسيح: "لأنه يقول: «الرسائل ثقيلة وقوية، وأما حضور الجسد فضعيف، والكلام حقير». لأننا لا نُمدِّد أنفسنا كأننا لسنا نَبلُغ إليكم. إذ قد وصلنا إليكم أيضًا في إنجيل المسيح. غير مفتخرين إلى ما لا يُقاس في أتعاب آخرين، بل راجين إذا نما إيمانكم أن نتعظَّم بينكم حسب قانوننا بزيادة". (رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٠: ١٤، ١٥). يقول القديس بولس: ليس لدى المسيحية ما تقدمه إلى البشرية غير دم المسيح، فإن لم يمت عيسى ولم يقم من الموت، فلا خلاص في المسيحية!

يقول البروفسور جورغين مولتمان في كتابه "الرب المصلوب": "إن موت عيسى على الصليب هو أساس اللاهوت المسيحي.. وترتكز جميع الأقوال المسيحية عن الرب، والخلق، والخطيئة، والموت على مسألة المسيح المصلوب. كما تنبع كل الأقوال المسيحية عن التاريخ والكنيسة، والإيمان، والقدسية، والمستقبل، والأمل، عن قصة المسيح المصلوب".

وبعبارة موجزة: لا اعتقاد بالصلب.. إذن لا مسيحية!!

إن دُعاة المسحية يزعمون أن الخلاص يأتي فقط من "دم الرب عيسى"، ويقولون في ذلك: إن كل أعمالكم

نجس... فلو قبلتم دم عيسى لغسل الخطايا، ولو قبلتم به على أنه مخلصكم لأصبحتم كملائكة تمشي على الأرض.

ماذا نقول ـ نحن المسلمين ـ ردًّا على هذا الادعاء المسيحي؟ ليس لدينا جواب أفضل من رد الله تبارك وتعالى على التجمع اليهودي[١]: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء).

لقد تبنى بولس فكرة سفك دم المسيح كفارة من خطايا البشر، وروَّج لها في رسائله، تلك الرسائل التي لم يكتب أقدمها إلا بعد رفع المسيح بأكثر من ٢٠ عامًا، فلقد كان الصلب وسفك الدم هو ما عزم بولس على ألا يعرف من المسيحية شيئًا غيره، وهو يقرر ذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، حيث يقول: " أنتم الذين أمام عيونكم قد رُسِم يسوع المسيح بينكم مصلوبًا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١).

ولقد كان ذلك هو ما قبله بولس وإنجيله الذي ذهب يبشر به: "وأما أنتم أيها الإخوة فلستم في ظلمة حتى يدرككم ذلك اليوم كلص. جميعكم أبناء نور وأبناء نهار... وأما نحن الذين من نهار، فلنصح لابسين دِرْع الإيمان والمحبة، وخُوذة هي رجاء الخلاص. لأن الله لم يجعلنا للغضب، بل لاقتناء الخلاص بربنا يسوع المسيح، الذي مات لأجلنا، حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعًا معه". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي ٥: ٤ ـ ١٠)[٢].

"ومن المعلوم أن بولس كان عدو المسيحيين وخصمهم، وأنه لما ادعى الإيمان لم يصدقه جماعة المسيح عليه السلام، ولولا أن شهد له بِرْنابا لما قبلوه. وبرنابا يقول في أول إنجيله: إن بولس نفسه كان من الذين بشَّروا بتعليم جديد غير تعليم المسيح"[٣].

وإذا كان بولس مجرد مبشر يهودي بالإنجيل اعتنق النصرانية بدون قبول له من النصارى، لعداوته السابقة للنصرانية، وإذا كان بولس قد أخذ عقيدة الصلب والفداء من الوثنيين الهنود، وقام بنسبها للمسيح تلفيقًا وزورًا، على ما يؤكده علماء النصرانية المنصفون؛ فإننا ـ أولًا وأخيرًا ـ لا نريد أن نقف عند مصب النهر، بل أن نقف عند منبعه، إن الأهم من رأي بولس هو رأي المسيح، هل وافق المسيح على الصلب، وهل سلم نفسه لليهود، وهل تخلى الله عنه؟ ما هو تصورنا لما حدث من خلال تعاليم المسيح، وما ورد على لسانه في الكتاب المقدس، إن عقيدة الصلب والفداء تقتضي أن يبذل المسيح نفسه عن رضا، وطيب خاطر فداءً للبشرية، كما يفعل المواطنون حينما يبذلون أنفسهم طواعية في الحروب، ويقبلون على الموت فداءً لأوطانهم، فهل كان هذا هو موقف المسيح؟

---

١. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٨١: ١٨٣.

٢. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١٩١، ١٩٢.

٣. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج٦، ص٣٧.

"منذ بدأ المسيح دعوته حتى آخر يوم فيها، نجد الأناجيل تضع لنا، بين الحين والحين علامات على طريق الرسالة المسيحية، تذكرنا دائمًا باستبعاد فكرة قتل المسيح مهما وضع من أجل تبريرها من نظريات وفلسفات.

فالمسيح صاحب الدعوة الذي يعلم حقيقتها وحدودها، أكثر من بولس وغيره من كتبة الرسائل المسيحية، هو الذي رفض فكرة قتله واستنكرها تمامًا، ثم هو قد عمل كثيرًا لإحباط جميع المحاولات التي رآها تبذل من اليهود لقتله، فلقد حدث أن "ولما كان العيد قد انتصف، صعد يسوع إلى الهيكل، وكان يعلم. فتعجب اليهود قائلين: كيف هذا يعرف الكتب، وهو لم يتعلم؟ أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلَّم أنا من نفسي. من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم. أليس موسى قد أعطاكم الناموس؟ وليس أحد منكم يعمل الناموس! لماذا تطلبون أن تقتلوني"؟ (يوحنا ٧: ١٤ ـ ١٩). "أنا عالم أنكم ذُرية إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني؛ لأن كلامي لا موضع له فيكم. أنا أتكلَّم بما رأيت عند أبي، وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم». أجابوا وقالوا له: «أبونا هو إبراهيم». قال لهم يسوع: «لو كنتم أولاد إبراهيم، لكنتم تعملون أعمال إبراهيم! ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم". (يوحنا ٨: ٣٧ ـ ٤٠).

ولما كان المسيح يخشى على حياته من القتل، فإنه اتخذ من الاحتياطات ما يجنبه الوقوع في براثن أعدائه من اليهود؛ فقد " جاء إلى الناصرة حيث كان قد تربَّى. ودخل المَجْمَع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدفع إليه سفر إشعياء النبي.. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه.. فامتلأ غضبًا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مَبْنِيَّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى. (لوقا ٤: ١٦ ـ ٣٠).

"فلما خرج الفرِّيسيُّون تشاوروا عليه لكي يهلكوه. فعلم يسوع وانصرف من هناك". (متى ١٢: ١٤، ١٥). "فرفعوا حجارة ليرجموه أما يسوع فاختفى، وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى هكذا". (يوحنا ٨: ٥٩). "وكان يسوع يتردَّد بعد هذا في الجليل؛ لأنه لم يُرِد أن يتردد في اليهودية؛ لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه". (يوحنا ٨: ١). "فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه، فلم يكن يسوع أيضًا يمشي بين اليهود علانية، بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البَرِّيَّة إلى مدينة يُقال لها أَفْرايِم، ومكث هناك مع تلاميذه". (يوحنا ١١: ٥٣، ٥٤).

وفي الساعات العصيبة، أو الساعات الأخيرة للمسيح بين الناس نجده يصرخ بكل قوته طالبًا النجاة، فما كانت فكرة سفك دمه فدية عن خطايا الكثيرين ـ إلا سرابًا علق برسالته فيما بعد. إن الذين يرفضون هذا القول، إنما يلحقون بالمسيح عليه السلام صفات يبرئه منها كل مؤمن وعاقل. إن الأناجيل

ترينا ـ وخاصة في الساعات الأخيرة ـ مواقف حاسمة، ترفض كلها فكرة قتل المسيح، وتقطع كل صلة بينها وبين رسالته ـ ومن هذه المواقف نذكر ما يلي:

١. في نهاية الفترة التي سبقت عملية القبض مباشرة، كان آخر ما نطق به المسيح في صلاته، هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه المسيح رسول الله، فقال: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". ثم أعقب المسيح ذلك مباشرة بتقرير واضح ـ لا لبس فيه ولا إبهام ـ بَيَّن فيه أن الرسالة التي بعثه الله بها قد اكتملت؛ فقال: "أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته". (يوحنا ١٧: ٣، ٤). لقد اكتملت رسالة المسيح تمامًا قبل حادث الصلب، فمن الذي يفتي بما يخالف شهادة المسيح؟!

٢. وينطق كل مشهد من مشاهد المعاناة في النصوص الحديثة برفض المسيح فكرة قتله: "ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا، وابتدأ يدهش ويكتئب. فقال لهم: «نفسي حزينة جدًّا حتى الموت! امكثوا هنا واسهروا». ثم تقدم قليلًا وخرَّ على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال: «يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك، فأَجِز عني هذه الكأس. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت». ثم جاء ووجدهم نيامًا، فقال لبطرس: «يا سمعان، أنت نائم! أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلَّا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف». ومضى أيضًا وصلَّى قائلًا ذلك الكلام بعينه. ثم رجع ووجدهم أيضًا نيامًا، إذ كانت أعينهم ثقيلة، فلم يعلموا بماذا يجيبونه. ثم جاء ثالثة وقال لهم: «ناموا الآن واستريحوا! يكفي! قد أتت الساعة! هوذا ابن الإنسان يُسلَّم إلى أيدي الخُطاة. قوموا لنذهب! هوذا الذي يُسلِّمني قد اقترب". (مرقس ١٤: ٣٣ ـ ٤٢).

٣. وحين شعر المسيح بالخطر يقترب منه وقوة الظلم تتقدم للقبض عليه، كانت صيحته لتلاميذه: "قوموا ننطلق؛ هوذا الذي يُسلِّمني قد اقترب". (متى ٢٦: ٤٦). لقد كان يطلب بإلحاح إلى تلاميذه أن ينهضوا لمعونته في الانطلاق بعيدًا عن المحنة الوشيكة، إلا أنهم كانوا "نيامًا إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه" وتركوه وحيدًا يعاني آلامه.

٤. وحين جاءت قوة الظلم وتقدَّم يهوذا ليدلّهم على سيده: "قال له يسوع: يا صاحب، لماذا جئت". (متى ٢٦: ٥٠).

٥. وفي المحاكمة: "ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب: رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: إن كنت أنت المسيح، فقل لنا! فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني". (لوقا ٢٢: ٦٦ ـ ٦٨).

وهنا نجد أن المسئول لو جاوبهم، فلن تخرج الإجابة عن أحد قولين، لا ثالث لهما:

- نعم، أنا المسيح.
- لا، لست أنا المسيح.

ومن الواضح أن كل من يؤمن بروايات الأناجيل عن أحداث الصلب، سوف يرفض حتمًا الإجابة

الثانية، وبذلك تبقى الإجابة الأولى، والتي يمكن أن توضع في الصيغة الآتية: "فقال لهم: نعم، أنا المسيح، لكنكم لا تصدقون، وإن سألت لا تجيبونني، ولا تطلقونني"، وسواء وضعت الإجابة الأولى في الصيغة المقترحة، أم لم توضع، فالنتيجة التي لا مفر من قبولها تقول: بفرض أن الذي يستجوبه الكهنوت اليهودي هو المسيح، فمن الواضح أنه كان يطلب إطلاق سراحه. وبذلك لا يوجد محل لأي قول يقول: إنه جاء ليبذل نفسه فِدْية عن كثيرين.

ومن الواضح أيضًا أنه باستخدام القول الثاني، فإن إجابة المقبوض عليه يمكن أن تأخذ الصيغة التالية: "فقال لهم: لا، لست أنا المسيح الذي تطلبونه، لكنكم لا تصدقون. وإن سألت النجاة لا تجيبونني ولا تطلقونني". وسواء كان هذا أو ذاك، فإن ما جاء في هذه المحاكمة يلغي كل ما يُقال عن نظرية قتل المسيح.

٦. ونصل الآن إلى الشهادة الأخيرة، التي تنسبها الأناجيل للمصلوب في الرمق الأخير، ألا وهي: صرخة اليأس على الصليب. من يسمع قول مصلوب يصرخ إلى ربه "بصوت عظيم قائلًا: إلُوي إلُوي، لما شَبَقْتَني؟ الذي تفسيره: إلهي إلهي لماذا تركتني"؟ (مرقس ١٥: ٣٤)، من يسمع هذا ثم يقول إن المسيح "بذل نفسه لأجل خطايانا؛ لينقذنا من العالم الحاضر الشرير". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١: ٤)، وإنه "بذل نفسه فدية لأجل الجميع". (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تيموثاوس ٢: ٦)، أو إنه "إذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب". (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي ٢: ٨)، أو إنه "بعدما قدَّم عن الخطايا ذبيحةً واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله، منتظرًا بعد ذلك حتى تُوضَع أعداؤه موطئًا لقدميه". (الرسالة إلى العبرانيين ١٠: ١٢، ١٣)؟!

منذ ما يقرب من ٢٠٠٠ عام وقف المسيح يُعلِّم الكهنوت اليهودي مشيئة الله، فقال لهم: "لو علمتم ما هو؛ إني أريد رحمة لا ذبيحة". (متى ١٢: ٧)، وحتى اليوم لا يزال الكثيرون مُصرِّين على تجاهل مشيئة الله، فيرفضون الرحمة، ويقبلون الذبيحة[1]!

إننا نظلم عيسى ونغمطه حقه إذا قلنا: إنه كان يبكي كامرأة لينقذ جسده من الآلام الجسمية، سوف يحملون منطقًا زائفًا لو أنهم نجحوا في قتل أي واحد على أنه المسيح، سوف يتأكدون حينئذ أنه دعا؛ لأن الله العلي القدير لم يكن ليسمح أبدًا بقتل المسيح الحق، ومن هنا كان الرفض الدائم لليهود لعيسى ابن مريم عليه السلام على أنه المسيح الذي وعدوا به "الرفض الأبدي"[2].

حادي عشر. نهاية يهوذا خير شاهد على صدق القرآن وتحريف الإنجيل:

اتفقت النصارى على القول بأن يهوذا الإسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح، وكان يهوذا هذا رجلًا عاميًّا من بلدة تسمى "خريوت"، تبع المسيح، وصار من خواص أتباعه الذين يلقبونهم بالتلاميذ الاثني عشر، الذين بشرهم بأنهم يكونون

---

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص٢٠٢: ٢٠٦.

٢. أضواء على المسيحية، أحمد ديدات، مرجع سابق، ص١٧١.

معه في الملكوت على اثني عشر كرسيًّا، ويدينون بني إسرائيل، أي: يحاسبونهم يوم الدين، ومن الغريب أن يهوذا كان يشبه المسيح في خلقه، كما نقل "جورج سايل" الإنكليزي في ترجمته للقرآن المجيد، في تعليقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول إلى "السيرنثيين والكربوكراتيين" من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح، وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبهًا تامًّا.

وقالوا: "حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دِين، ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلًا: قد أخطأتُ إذ سلَّمتُ دمًا بريئًا». فقالوا:«ماذا علينا؟ أنت أَبْصِر!» فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه". (متى ٢٧: ٣ ـ ٥)، وغرضنا من هذا الخبر بيان أنهم معترفون بأن يهوذا فُقِد بعد حادثة الصلب، ولم يظهر في الوجود، وأنهم يدعون أن سبب هذا هو قتل نفسه من الحزن والأسف. ونحن نرى أنه إنما فُقِد؛ لأنه هو الذي صُلب، والمسيح هو الذي نجاه الله ﷻ ورفعه، فإن الذي يحمله حزنه وألم نفسه على أن يبخع نفسه بيده خنقًا أو شنقًا لا يستبعد منه أن يسلبها بالاستسلام إلى من يتولى ذلك عنه فإنه أهون عليه، فمن المعقول أن يكون يهوذا عندما دل اليهود على المسيح في الليل رأى بعينيه عناية الله ﷻ بإنجائه وإنقاذه من بين أيديهم "كما أنجى أخاه محمدًا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من أيدي كفار قريش، وكانوا أشد معرفة له من معرفة اليهود للمسيح ـ لأنهم لم يكونوا يحتاجون إلى بذل المال لمن يدلهم عليه، كما بذلت اليهود ثلاثين قطعة من الفضة ليهوذا ـ فخرج ليلة الهجرة من بين الذين كانوا ينتظرونه عند داره ليقتلوه ولم يبصروه"، فلما رأى يهوذا ذلك وعلم درجة عناية الله ﷻ بعبده ورسوله عظم ذنبه في نفسه، واستسلم للموت ليكفر الله عنه ذنبه كما كفر ذنب الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل بقتل أنفسهم، فأخذوه وصلبوه من غير مقاومة تذكر، فرواية الإنجيل وسفر الأعمال عن وجدانه مخنوقًا أو مشنوقًا غير مسلمة، وقد تعارض القولان فتساقطا، ووجب اعتماد قول برنابا الذي أخذ به بعض قدماء النصارى.

وإذا كان إيمان يهوذا قويًّا إلى هذه الدرجة درجة الانتحار والبخع من ألم الذنب فليت شعري، لماذا لا تقبل توبته ولا ينفعه إيمانه حتى ادعوا أنه مات كافرًا، وأن كرسيه في الملكوت سيبقى خاليًا، وبشارة المسيح لا تكون صادقة؟ ولماذا تقبل توبة بطرس الذي أنكر المسيح ولعنه المسيح في حياته وسماه شيطانًا، على أن توبته دون توبة يهوذا، وما كان يهوذا إلا متممًا لذريعة الفداء التي هي أساس الدين عندهم".

"إن ما اتفق عليه متى ولوقا ـ وصمت عنه مرقس ويوحنا ـ هو أن يهوذا الخائن قد هلك في ظروف مريبة، لكن روايتها اختلفت في ثلاثة عناصر:

الأول: كيفية موته، وفيها يروي متى أن يهوذا قد انتحر بخنق نفسه، بينما يروي لوقا أنه مات ميتة دموية، انشق فيها وسطه، وانسكبت جميع أحشائه.

الثاني: يتعلق بمشتري الحقل، فيروي متى أن رؤساء الكهنة هم الذين اشتروه، بينما يروي لوقا أن يهوذا كان هو الشاري.

الثالث: كذلك اختلفت روايتا متى ولوقا في سبب تسمية الحقل باسم: حقل دم، فرواية متى ترجع ذلك لكونه قد اشترى بنقود كانت ثمنًا بيع به دم بريء، بينما يرد لوقا تلك التسمية إلى الميتة الدموية التي ماتها يهوذا.

إن ما يذكره متى ولوقا عن هلاك يهوذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا هو: أن يهوذا قد اختفى في فترة الاضطراب التي غشيت أحداث الصلب وملابساته.

وإذا كان هناك من يعطي أيًّا من هاتين الروايتين قدرًا من الثقة، فإن ذلك القدر يمكن تقييمه بمقارنتهما بما ترويه المصادر المسيحية القديمة عن هلاك بيلاطس.

عجبًا، وأي عجب... لقد جعلت القصة الأولى من بيلاطس شهيدًا، تتسلم رأسه ملائكة السماء؟! في حين جعلت منه القصة الثانية شيطانًا، ترتع في جسده الشياطين؟! على أن ما يعنينا هو التشابه الملحوظ بين نهايتي كل من يهوذا وبيلاطس، فقد وجدت روايات تقول أن كلًّا منهما أهلك نفسه انتحارًا، بينما وجدت روايات أخرى تقول بعكس ذلك. فأيهما نرفض، وأيهما نصدق؟!!

إن ذلك يعني شيئًا جوهريًّا لا مناص من الأخذ به في كل ما يتعلق بالعقائد، والروايات الدينية، ألا وهو أن تخضع جميعها للبحث والتمحيص على ضوء ما ميز به الله الإنسان من عقل، وعندئذ يستطيع الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب، والحق من الضلال، أما أن يدعي الناس إلى إبطال عقولهم، والتسليم بكل ما يقال عنه أنه كتاب مقدس، باعتبار "أن كل الكتاب هو موحى به من الله"، فتلك مغامرة لها باب واسع يستطيع التوصيل بسرعة إلى الهلاك الأبدي[1].

إن ما يحكيه متى عن نهاية يهوذا ـ يتعارض ـ كما بينا مع ما يحكيه لوقا، والقاعدة الأصولية في المتعارضين إذا لم يمكن الجمع بينهما ولا ترجيح أحدهما على الآخر أن يقال: "تعادلا فتساقطا"، وبهذه القاعدة التي لا مندوحة عن القول بها في هذه القصة وغيرها من التعارض في هذه الأناجيل اتقاء الوقوع في الترجيح بغير مرجح.

إذن فرواية متى عن نهاية يهوذا ساقطة، وكذلك رواية لوقا، فإذا أضفنا إليها إنجيل مرقس ويوحنا، صار عندنا أربعة أناجيل لا يوجد بها رواية صريحة وصحيحة لنهاية يهوذا، وإننا ـ بناءً على ما سبق ـ لا يسعنا إلا أن نتوجه إليهم بالسؤال قائلين: كيف كانت نهاية يهوذا عندكم يا كُتَّاب الأناجيل ويا أصحاب المعرفة والعلم؟!

إن الإجابة المتوقعة هي: ليس في الإمكان أفضل مما كان، وما كان ـ للأسف الشديد ـ من رواية متى ولوقا ساقط، لا يعتد به!

وإذا سألنا: لماذا لا يقبل النصارى إلقاء شبه المسيح على يهوذا، أو غيره وصلبه بدلًا من المسيح؟ وهل هذا الأمر صعب الحدوث على أرض الواقع؟

يجيب عن هذا السؤال د. عبد الوهاب النجار فيقول: مما يُسهِّل إلقاء شبه المسيح على غيره الحادثة التي ذكرها متى في إنجيله، ونصُّها: "وبعد ستة أيام

---

١. المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١٨٣: ١٨٨.

أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردِين. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليًا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع: «يا رب، جيِّد أن نكون ههنا! فإن شئتَ نصنع هنا ثلاث مظالّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة». وفيما هو يتكلم إذا سحابة نَيِّرة ظلَّلتهم، وصوت من السحابة قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُرِرْتُ. له اسمعوا». ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدًّا. فجاء يسوع ولمسهم، وقال: «قوموا، ولا تخافوا». فرفعوا أعينهم، ولم يروا أحدًا إلا يسوع وحده". (متى ١٧: ١ـ٨).

وقد ذكر هذه الحادثة أو المعجزة كل من مرقس ولوقا، وأغفلها يوحنا، ومن العجيب أنه كان أحد شهودها، ومع ما بينهم من التناقض في عدد الأيام فقد اتفقوا على حصولها في الجملة.

إن هذا التغيير الذي يُقرُّون به في هيئة المسيح يُفسِّر لنا بأجلى بيان إلقاء شبهه على غيره وتغير هيئته، حتى إن الذين أَتَوا للقبض عليه أخذوا من ألقى عليه شبه المسيح فوقع في الورطة ونجا عيسى عليه السلام[1].

ثاني عشر. كلام الإمام الرازي مقطوع من سياقه:

وأما كلام الإمام الرازي المستدل به فكلام مقطوع من السياق، إيهامًا للمسلمين بأن أحد علماء المسلمين ينكر أن عيسى عليه السلام شُبِّه لهم، ولو رجعنا إلى مصدر كلامه لعلمت تدليس هؤلاء المدلسين.

والذي ذكره الإمام الرازي هو سؤال ـ أي: اعتراض ـ نقله عن أصحابه نقلًا أمينًا بكامل أدلته كعادة علمائنا في المنهجية والأمانة العلمية، ثم أعقب هذا السؤال بعدة أجوبة عليه من علماء الأمة، ولما وجد أن هذه الأجوبة لا تسلم من الاعتراض، ولم ترق إلى الأجوبة العقلية المقنعة ـ من وجهة نظره ـ فوض حقيقة الأمر إلى علم الله تبارك وتعالى فقال: "وهذه الوجوه متعارضة متدافعة، والله أعلم بحقائق الأمور"[2].

الخلاصة:

لقد نص القرآن صراحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يصلب، ولم يقتل بل رفعه الله عز وجل إليه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ وقد اتفقت جماهير وعلماء الإسلام قديمًا وحديثًا على نجاة المسيح من كيد أعدائه، ومحاولتهم قتله وصلبه، انطلاقًا من التأكيدات القرآنية القاطعة. والصواب في رأي أكثر المفسرين أنه رفع حيًّا بروحه وجسده، وحجتهم في ذلك:

- القول بصلب المسيح عليه السلام ينفي ألوهيته عند النصارى، والقول بألوهيته ينفي صلبه.
- ما ورد على لسان المسيح عليه السلام في الأناجيل يؤكد أنه لم يصلب.
- هناك العديد من الطوائف والمصادر النصرانية

---

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٥٠٧، ٥٠٨.

٢. مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

تؤكد نجاة المسيح عليه السلام وعدم صلبه.

- ولا تعارض بين آية نفي الصلب والقتل، وآيات الوفاة والرفع إنما هي أفهام لا حظ لها من التدبر.
- ولقد شُبِّه لهم فقتلوه أو صلبوه، ولا يتنافى هذا مع عدل الله ولا يحصل بإلقاء الشبه على آخر أي اختلال في الموازين.
- وأما ما نسب زورًا إلى الإمام الرازي فهو تدليس وقطع للكلام من سياقه، لإيهام المسلمين أن بعض علمائهم ينكرون أن عيسى شُبِّه لهم، ولو رجعنا إلى المصدر، لعلمنا كذب ادِّعاء هؤلاء.

الشبهة الثالثة والتسعون

دعوى صَلْب المسيح عليه السلام فداءً للبشر(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الله قد ضحَّى بولده المسيح عليه السلام؛ كي ينقذ ويفدي البشرية من الخطيئة التي ورثوها عن آدم عليه السلام، وهم بذلك يُثبتون عقيدة الصلب والفداء.

وجوه إبطال الشبهة:

1) مفهوم العدالة الإلهية يقتضي أن يُحاسب الإنسان عن عمله، بيد أن إقرار عقيدة الصلب فداءً للبشر ينافي صفتي العدل والرحمة لله عز وجل.
2) عقيدة الفداء والصلب خرافة وثنية اقتبسها بولس من العقائد الوثنية القديمة.
3) نصوص الكتاب المقدس تبطل عقيدة الصلب والفداء.
4) عقيدة صلب المسيح عليه السلام باطلة بشهادة بعض النصارى مثل: أدوارسيوس، وارنست دي بولس، وملمن... وغيرهم.

التفصيل:

أولا. مفهوم العدالة يقتضي أن يحاسب الإنسان عن عمله وإقرار عقيدة الصلب ينافي صفتي الرحمة والعدل لله:

يفصل الإمام الألوسي القول في هذه القضية مخاطبًا النصارى قائلًا: ألستم تقولون إن آدم عليه السلام استرجع وتاب؟ فأي شيء أبقت التوبة من ذنبه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؟ فصار حينئذٍ قَتْلُ المسيح عبثًا تعالى الله عنه.

ونقول لهم: أخبرونا عن هذا القضاء أليس هو استدراك مصلحة الأداء، وهو أن يأتي القاضي بمثل ما قُصِّر فيه؟ فإن قالوا: نعم. قلنا: فالذي فَوَّته آدم الانكفاف عن الأكل، فيكون قضاؤه بصوم المسيح، فإن قالوا: إن آدم وجب عليه موت المعصية، وهو الخلود في النيران أبدًا وهو أعظم الميتين، فجاء موت

(*) صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

® في **"موقف القرآن من عقيدة الفداء النصرانية"** طالع: الشبهة الثامنة. وفي **"فداء إسماعيل ومخالفته لعقيدة الفداء النصرانية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة. وفي **"فكرة الإسلام عن خطيئة آدم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"العدل الإلهي ووراثة خطيئة آدم"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل ١).

المسيح قضاء عن ذلك الموت، فصار من جنسه. قلنا: هذا باطل؛ لأنه لو كان موت المسيح من جنس موت آدم لكان أماته الله ﷻ موت الخطيئة، وكان مخلدًا في النار بدلًا عن آدم؛ فموت الطبيعة ليس بدلًا عن موت الخطيئة، وإذا بطلت دعواكم بطل قتل المسيح؛ إذ صار ساذجًا عن المعنى فارغًا عن الفائدة، والرب يتعالى عن العبث، وقلنا لهم أيضًا: إن ولد الصُّلْب أولى من ولد البنت في كثير من الأحكام، فولد صُلب آدم أولى في الفداء من ولد بنته، وهو المسيح.

فإن قالوا: هو ابن الله فلا يصلح لفداء الخلائق غيره، قلنا: أليس عندكم في التوراة أن إسرائيل هو بِكْر الله، والبكر أولى وأفضل عند أبيه؟ فَهلَّا فداه به ولم يَدَعِ الناس في عذاب إلى مجيء المسيح؟ ثم نقول: المسيح عندكم هو الإله الأزلي، وعند طائفة منكم هو ابن الله، فكيف يستقيم أن يكون الله ﷻ نفسه أو ابنه بدلًا عن عبيده؟ والله ﷻ هو الذي يتوفَّ الأنفس وبأمره وإرادته، فيتّحد حينئذٍ القاتل والقتيل فيكون قاتلًا قتيلًا، ثم نقول: أرأيتم أن رجلًا أمر عبده بأمر فخالف العبد، فغضب عليه وأوعده، فخاف العبد وأشفق من عقوبته، فرجع إلى خِدْمَته، وشَمَّرَ في مرضاته، فعطف عليه مولاه رحمة منه، ثم التفت إلى ابنه فقال: هذا فداؤك فتسلَّم روحه أو إلى نفسه، فقتل نفسه عن عبده. أكنتم تَعُدُّونه حكيمًا أو عاقلًا؟ فاعترفوا بالحق ولا تغالطوا أنفسكم.

ثم نقول: ألستم تعيبون قول ربنا ﷻ في القرآن العظيم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، ففي تكذيبه تكذيب لكل نبوات الأنبياء، عيسى فمن فوقه ـ عليهم السلام ـ وقد زعمتم أن قتل الشبه فداء عن المسيح ﷺ ظلم وحيف لا يليق بالحكمة، فكيف نسيتم نفوسكم هاهنا وجوَّزتم أن يقتل الله ﷻ نفسه أو ابنه وينكِّل به على يد أعدائه فداء آدم، ولم تجعلوا ذلك ظلمًا وحيفًا، والجور لا يجوز على العبد؟

ثم يُقال لهم: هلَّا جعلتم هابيل بن آدم ﷺ الذي قتله قابيل هو الفداء؛ لأنه من جوهر أبيه، وأما المسيح فهو ابن الإله وهما من جوهر واحد، فكان فداء هابيل أولى، ولا سيما أنكم توجبون على الله ﷻ الأصلح لعباده. فالأصلح في حقهم ألَّا يعذبوا مدة خمسة آلاف سنة إلى إرسال المسيح وصيرورته فداء، وله مندوحة عن ذلك بقتل هابيل.

ثم يُقال لهم: ألستم رويتم في توراتكم أن الله تبارك وتعالى قد فدى ولد عبده إبراهيم ﷺ بِذِبْحٍ عظيم؟ فإن قالوا: بلى، قلنا لهم: أفكان ولد عبده أزكى لديه وأعز عليه من ولده المسيح الذي هو وإياه شيء واحد، وجوهر واحد، أم تقولون: أعوزته الغنم فلم يقدر على كبش يذبحه ويريح العالم من فتنة المسيح؟! وقد رويتم في التوراة أن الله تبارك وتعالى قدَّم إلى إبراهيم كبشًا بدل ولده لما أُمِر بذبحه، فعزم على ذلك رحمة منه سبحانه ولطفًا، فلعله قد أمر المسيح في حق نفسه بما أمر به إبراهيم في حق ولده، فاستسلم وصار يخبر بذلك تلاميذه كما كان إبراهيم يخبر به ولده، ثم لما صح، عزم على تجرع كأس المنية لَطُفَ به وفداه برجل قد حضر أجله، فإن عناية الله تعالى بالمسيح لا تَقْصر عن عنايته بولد إبراهيم.

وإذا كان هذا وشبهه غير مستحيل عند النصارى، فما الذي أحاله في حق المسيح عيسى عليه السلام؟ وقد تضرع إلى الله غير مرة في صرف كأس المنية عنه، كما شهدت أناجيلكم بذلك، والمسيح لا تُرَّد له دعوة. قد استجاب الله دعاءه، وحال بين اليهود وبين ما أرادوا منه، ورُفع إليه. والدليل على ذلك: ما ذكره في الإنجيل.

ويُقال لهم: لم تنكروا أن الله تعالى تاب على عبده آدم، وعاف عبده المسيح في فدائه بكافر أو بمؤمن عجله إلى الجنة لا سيما وقد استعمل المسيح الحيدة في الجواب، وعدم الإفصاح لما سأله رئيس الكهنة أهو المسيح كما تقدم؟ ويقال لهم: ماذا تقولون لو أن أحدنا اليوم عصى ربه أتجزئه التوبة أم لا بد أن يقتل ويصلب؟

فإن قالوا: تُجْزِئه التوبة، يقال لهم: فهل هو أولى من صَفِيِّ الله آدم؟ إذ قلتم: لا بد في توبته من قتل المسيح لأجله؟ وإن قلتم: لا تُجزئه، كَذَّبتم بولس، حيث يقول في رسالته: "أفتظُنُّ هذا أيها الإنسان الذي تَدِين الذين يفعلون مثل هذه، وأنت تفعلها، أنك تنجو من دَيْنُونة الله؟ أم تستهين بغِنَى لُطْفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لُطْف الله إنما يَقْتادك إلى التوبة"؟ (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٢: ٣، ٤)، فلا حاجة إلى قَتْل وصَلْب؟

وكذا رويتم عن المسيح في الإنجيل أنه قال: "قد كَمَلَ الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل". (مرقس ١: ١٥)؛ فقد شهد المسيح أن التوبة مستقلة بمحو الآثام، فلا حاجة إلى شيء آخر، ويقال لهم: ما تقولون فيمن مات قبل مجيء المسيح ؟ أكانوا كفارًا أم مؤمنين؟ فإن قالوا: مؤمنين فقد سَلَّموا أن لا حاجة إلى قتل المسيح في تخليصهم؛ إذ إيمانهم مخلصهم لا غيره.

وإن قالوا: كانوا كفارًا كذبهم المسيح؛ إذ قال في الإنجيل: "لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيب، بل المرضى. لم آت لأدعو أبرارًا، بل خُطاة إلى التوبة". (لوقا ٥: ٣١، ٣٢)، وأنتم قلتم: إن المسيح نزل من السماء لخلاص كل الناس، فإن قالوا: نعم. قلنا: فما تقولون فيمن مات قبل نزوله عليه السلام؟ وكيف الطريق إلى بلوغ دعوته إليهم؟ فإن قالوا: تعذر تلافي أمره وفات استدراكه بموته. قلنا: فإذن تكونوا قد نسبتموه إلى الظلم؛ حيث لم ينزل لخلاصهم قبل ذلك، فلم أخر نزوله حتى ماتوا على الضلالة والكفر، وكيف صار الأحياء أحق بالرحمة منهم؟!

وفي هذه المقالة هدم أصلكم. وإن تحامقوا وقالوا: إن المسيح دعا الأحياء وهو حي، ثم مات فدعا الأموات في قبورهم، نقول: هل دعاهم وهو حي أم دعاهم وهو ميت؟ فإن قالوا: دعاهم وهو ميت سقطت مقالتهم وتبين جنونهم، وإن قالوا: دعاهم وهو حي فقد نقضوا قولهم: إنه مات[1].

وبهذا البيان يتضح أن زعمهم صلب المسيح عليه السلام لفداء البشر ومحو الخطيئة عنهم باطل؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

١. الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت، ص٦٠٠: ٦٠٢.

إقرار عقيدة الصلب تنافي صفتي العدل والرحمة لله:

يشير الأستاذ عبد المجيد صبح إلى أنه أقيمت ندوة عن "الإله في المسيحية" فقال راهب كاثوليكي يقرر عقيدة الصلب: إن آدم عليه السلام لما عصى الله عز وجل، بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مذنبين مستحقين للعقاب في الآخرة!!

ثم إن جميع ذرية آدم ولدوا خُطاة مُذْنِبين، فكانوا مستحِقِّين للعقاب بذنوبهم، فتقرر عقابهم بأصلين على قولهم وزعمهم: ذنب أبيهم الأول الذي به ولدوا مذنبين، ثم ولادتهم مذنبين، قبل أن يقوموا بعمل شيء بحكم ذلك الأصل!!

وبعصيان آدم طرأ على الله مُشْكِل: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء)، من جهة اتصافه بصفتي الرحمة والعدل. إن عاقب آدم إعمالًا لصفة العدل، ناقض صفة الرحمة، وإن لم يعاقبه إعمالًا لصفة الرحمة، ناقض صفة العدل.

ثم بدا لله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - بعد آلاف السنين حلّ هذا المشكل، وهو تناقض صفتي رحمته وعدله، في مسألة عصيان آدم، فكان الحل - بعد تفكره آلاف السنين - أن يحل الله في رحم امرأة، يكون ابنًا لها من حيث هو إنسان ولد منها، ويكون هو ربها وإلهها من حيث هو الله!

ثم هو يعيش بين الناس يأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتألم كما يتألمون، ثم يُقتل أفظع قِتْلة: قتلة الصلب، ويُلعَن، ويُضرب على رأسه بالشوك. كل ذلك فداءً للبشر، وخلاصهم من خطاياهم كما قال يوحنا: "هوذا حَمَلُ الله الذي يرفع خطيَّة العالم". (يوحنا ١: ٢٩). أهذا يليق بجلال الله وعظمته؟! فالمتصف بالضعف والعجز لا يكون إلهًا!

وترتب على هذا الاعتقاد الخاطئ مجموعة من الأمور وهي:

١. الاعتقاد بأن الله ناقص العلم، وأنه لم يكن يعلم ما يكون بعد.

٢. القول بهذه العقيدة يستلزم القول بجواز البداء على الله، والبداء: أن يبدو لله ما لم يكن يعلم، ثم يتخذ لهذا الذي بدا حكمًا لم يكن قَدَّره من قبل.

٣. لا يمكن أن يؤمن بهذه العقيدة إلا من يأخذ الدين على أنه مناقض للعقل، وأن الدين لا يكون دينًا إلا بهذه المناقضة!

٤. لا يؤمن بهذه العقيدة إلا من يرى أن الرب تجري عليه الأحوال البشرية، أو يجريه الشيطان، أو أن يحزن على بعض ما فعل ويندم عليه ويأسف قلبه، ومثل أن يقع في تناقض يفكر في حله آلاف السنين، ثم ينتهي إلى حلٍّ لا يقبله عقل، ويناقض ما لله من جلال وإجلال، حتى إنه يحل في رحم امرأة، ثم يجري عليه أسوأ ما يجري على بشر!

٥. إذا كان الله تبارك وتعالى قد فعل ذلك فداءً للبشر وخلاصًا للعالم، فلا داعي للإيمان بهذه العقيدة؛ لأن الدعوى في هذا الاعتقاد أنه فعل ذلك تفدية وتخليصًا للبشر أجمعين، فليكن عدم الإيمان بهذه العقيدة من خطاياهم التي تغفر، والتي هي مما ترتب على خلقهم.

٦. إذا قيل: إن غير المؤمن بها لا ينجو، اقتضى ذلك

أن "الله" بعد تفكير طويل فعل شيئًا، لغاية مقصودة، ثم لم تحقق غايته ومقصوده، وتلك منقصة أخرى في حق الألوهية!

وإذا سلمنا - جدلًا - بقبول القول بالصلب، واللعن، والضرب، وهو لم يذنب قط؛ وجدنا هذا القول منافيًا لصفة العدل والرحمة معًا. ثم لماذا كل هذه المأساة؟ ألم يكن الله قادرًا على العفو عن آدم عليه السلام بدونها؟

قال الأستاذ نظمي لوقا - المسيحي - في كتابه "محمد الرسالة والرسول": إن القرآن الكريم قد حسم مسألة خطيئة آدم عليه السلام بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة)، وبهذا البيان يتضح أن المسيح عليه السلام لم يصلب كما يزعمون فداءً لخطيئة آدم عليه السلام.

ونقول: لماذا يؤخذ الجار بظلم الجار؟ لماذا يخطئ آدم عليه السلام؟ فيعاقب عيسى عليه السلام؟ وهل من العدل أن يخطئ واحد فيُقْتص من الآخر؟ وهل من العدل أن يَرِث البشر خطأ عن أبيهم آدم لم يقترفوه؟ وقد ذكرنا أن الله تاب عليه! إن الأمر الذي يتوافق مع العقل أن المرء ليس مسئولًا عن شيء ليس له فيه يد، ولا أظن القوانين الوضعية تعاقب إنسانًا على جرم إنسان آخر. فكيف إذا كان الأمر يتعلق بأمور إلهية؟ والله عز وجل قرر مبدأ مسئولية الإنسان عن أفعاله فقط قائلًا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤). وأخبر الرسول محمد ﷺ أن كل إنسان مسئول عن عمله وعن نفسه، فقال لأقرب الناس إليه: "يا فاطمة بنت محمد، سَلِيني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا" [(١) (٢)] ®.

ثانيًا. عقيدة الفداء والصلب خُرافة وثنية اقتبسها بولس من العقائد الوثنية القديمة:

هذا يؤكد أن جذور هذه الديانة المسيحية ترجع إلى الوثنية، وهذا ما سنوضحه في هذا العرض:

إعدام الإله في الديانات الوثنية:

يذكر علاء أبو بكر أن فكرة "إعدام الإله" فكرة انتشرت في الديانات الوثنية القديمة وتناقلتها الأمم، ومن ذلك:

١. ديانة مثرا الفارسية:

ديانة فارسية ازدهرت في فارس في القرن السادس ق. م، ثم انتقلت إلى روما، وانتشرت في أوربا فبلغت مُدُنًا شمالية في إنجلترا. ومن أوجه التشابه بين عقائد الديانتين وبين مثرا ويسوع، أن:

- كلًّا منهما كان وسيطًا بين الله والبشر.
- مثرا ولد في كهف وولد عيسى في مِذْوَد البقر.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء) (٥٢٤)، واللفظ للبخاري.

٢. الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٦٤: ٦٧.

® في **"فكرة الإسلام عن خطيئة آدم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"العدل الإلهي ووراثة خطيئة آدم"** طالع: الوجه الخامس، من الشبهة الرابعة، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

- كـلًّا مـنهما ولـد في الخـامس والعـشرين مـن ديسمبر.
- كلًّا منهما كان له اثنا عشر حواريًا.
- كلًّا منهما مات ليخلص البشر من خطاياهم.
- كلًّا منهما دُفن وعاد للحياة بعد دفنه.
- كلًّا منهما صعد السماء بعد دفنه.
- كلًّا منهما صعد السماء أمام تلاميذه.
- كلًّا مـنهما كـان يـدعى منقـذًا ومخلـصًا، ومـن أوصافه أنه كان كالحمل الوديع.
- كلًّا منهما كان له أتباع يعمدون باسـمه، ويُقـام عَشاء مُقدَّس في ذكراه.

هذا وقد جاء في كتاب "حياة المسيح في الكـشوف والتاريخ" للعقاد أن: عبادة مثرا هذه انتقلت إلى الدولة الرومانية، وامتزجت بعبادة إيزوريس المصرية، ومنهما جاءت عبادة مثرا، وهي في جملتها هي الديانة المـصرية التي صورت إيزيس أم الإله حوريس، وهو يرضع من ثديها. وهي أيضًا صورة مريم العـذراء التـي تحتـضن ابنها عيسى عليه السلام في أثناء رضاعته، وقبل فطامه.

٢. **ديانة بَعْل:**

وهي ديانة بابليـة انتقلـت مـع موجـة الفتوحـات البابلية إلى شمال الهلال الخـصيب، وظـل الكنعـانيون يدينون بها. وفي كثير من الأحيان كان اليهـود يتركـون ديانتهم ويعبدون بعلًا، ونهاية هذا الإلـه تكـاد تكـون هي الصورة التي صورت بها نهاية المسيح عيـسى ابـن مريم عليهما السلام:

- أُسر قبل محاكمته.
- حُوكم علنًا.
- اعتُدي عليه بعد محاكمته.
- نُفِّذ الحكم عليه في أعلى الجبل.
- كان معه مُذْنِب آخر محكوم عليه.
- ولـما أراد الحـاكم العفـو عنـه طالـب الـشعب بإعدامه هو، والعفو عن المجرم.
- وبعد تنفيذ الحكـم عليـه ظهـر الظـلام، وعـمَّ الاضطرابُ الناس، وعلا الرعد، وزلزلت الأرض.
- وكل منهما أُقيم حرس على قبره.
- وكل منهما قام من القبر وصعد السماء.

٣. **ديانة الهندوس:**

تتشابه كثير من تفاصيل قصة الصلب مع تفاصيـل واردة في قصص وثنية مشابهة. فقد ذكـر متَّـى أحـداثًا غريبة عِـدَّة، صـاحبت مـوت المـسيح؛ حيـث يقـول: "ومن الساعة السادسة كانت ظلمة عـلى كـل الأرض إلى الـساعة التاسـعة. ونحـو الـساعة التاسـعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلًا: «إيلي، إيلي، لما شـبقتني؟» أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتنـي... فـصرخ يـسوع أيـضًا بصوت عظيم، وأسلم الروح. وإذا حجاب الهيكل قد انشقَّ إلى اثنين، من فوق إلى أسفل. والأرض تزلزلت، والصخور تشقَّقت، والقبور تفتَّحت، وقام كثـير مـن أجساد القديسين الراقدين". (متى ٢٧: ٤٥ ـ ٥٢).

وهذا نقله النصارى مـن الوثنيـات القديمـة، فقـد نقل العلامة التنير عن عدد من المؤرخين إجماعهم على انتشار هذه الغرائب حال موت المخلصين لهذه الأمم. مـن ذلـك: أن الهنـود يقولـون: "لما مـات "كرشـنا" مُـخَلِّصُهم على الصليب، حدثت في الكـون مـصائب جمَّـة، وعلامـات متنوعـة، وأحاطـت بـالقمر دائـرة

سوداء، وأظلمت الشمس عند منتصف النهار، وأمطرت السماء نارًا ورمادًا...".

ويقول عباد بروسيوس: "إنه لما صُلِب على جبل قوقاس، اهتزت الكائنات، وزلزلت الأرض".

والاعتقاد بحدوث أحداث سماوية عظيمة عند موت أحد العظماء معروف عند الرومان واليونان.

كما ينقل المؤرخ كنون فرار في كتابه "حياة المسيح"، وينقل جيبون في تاريخه أن عددًا من الشعراء والمؤرخين الوثنيين كان يقول: "لما قُتِل المُخَلِّص اسكولابيوس أظلمت الشمس، واختبأت الطيور في أوكارها؛ لأن شافي أمراضهم وأوجاعهم فارق هذه الدنيا". والقول بظلمة الشمس عند موت أحد المخلصين قيل عند مقتل هيركلوس، وبيوس، وكوتز لكوتثل، وكيبير ينوس إله الرومان. وعليه فهو أسطورة قديمة تداولتها الأمم، ونقلها أصحاب الأناجيل من تلك الوثنيات.

ويقول دوان: وكانوا في مصر يُقدِّمون من البشر ذبيحة، وتمكَّنت بهم هذه العادة الشريرة حتى صاروا يقدمون الابن البكر من أحد العائلات الأثانية ذبيحة، يأخذونه إلى هيكل في "فستات في عالوس"، ويضعون على رأسه إكليلًا، ثم يذبحونه قربانًا للإله.

ويقول العلامة ***M. William***: ".. يعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية[1]، ومما يدل على ذلك ما جاء في تضرُّعاتهم التي يتوسَّلون بها بعد "الكياتري"، وهي: "إني مذنب، ومرتكب الخطيئة، وطبيعتي شريرة، وحملتني أمي بالإثم، فخلصني يا ذا العين الخندقوقية، يا مخلِّص الخاطئين، يا مزيل الآثام والذنوب".

ويُضيف دوان ما نصُّه: "ويعتقد الهنود بأن كرشنا المولود البكر الذي هو نفسه فشنو، الذي لا ابتداء له، ولا انتهاء، قد تحرك شفقة وحنوًّا؛ كي يخلِّص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلَّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه".

وقال هوك: "ويعتقد الهنود - الوثنيون - بتجسُّد أحد الآلهة، وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن الناس والخطيئة".

ويزعمون أن بوذا الطبيب العظيم ومخلِّص العالم قدَّم نفسه ذبيحة؛ ليُكفِّر آثام البشر، ويجعلهم ورثة ملكوت السماوات، وبولادته ترك كافة مجده في العالم ليخلص الناس من الشقاء والعذاب كما نذر.

٤. ديانة الفرس:

وكان الفرس يدَّعون مثرا الوسيط بين الله والناس، والمخلِّص الذي بتألُّمه خلَّص الناس ففداهم، ويدعونه "الكلمة" و "الفادي".

ويعتقدون أيضًا أن زروستر المتشرع مُرْسَل إلهي، أُرْسِل ليخلص الناس من الطرق الشريرة، وإلى هذا الحين نرى أتباعه يدعونه زروستر - الحي المبارك المولود البكر الواحد الأبدي - وما شاكل ذلك من الألقاب، وأنه لما ولد ظهر نور أضاء الغرفة التي ولد فيها، وأنه ضحك على أمه من حين ولادته، ويدعونه "النور الشعشاني البارز من شجرة المعرفة الذي علق على شجرة".

---

١. الخطيئة الأصلية: هي أَكْل آدم من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

٥. **ديانة السوريين القدماء:**

كان السوريون يقولون: إن تموز ـ الإله المولود البكر من عذراء ـ تألَّم من أجل الناس، ويدعونه "المخلِّص" و "الفادي" و "المصلوب"، وكانوا يحتفلون في يوم مخصوص من السنة بذكرى موته، فيصنعون صنمًا على أنه هو، ويضعونه على فراش ويندبونه، والكهنة تُرتِّل قائلة: ثقوا بربكم، فإن الآلام التي قاساها قد جَلَبَت لنا الخلاص.

واللافت للنظر في هذه العبادة أنه لم يلعن أحدهم إلهه إلا في المسيحية على يد بولس، الذي قال: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنه مكتوب: ملعون كل من عُلِّق على خشبة". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ٣: ١٣). والحق أن بولس قد كفر بما جاء به المسيح ﷺ، وأفشى عقائد غريبة في دينه، عاتبه عليها التلاميذ، وكفَّروا معتقداته، وأمروه بالتوبة وعدم العودة إلى هذا الكفر مرة أخرى، وأرسلوا إلى من أضلَّهم بولس، ليحذروهم من معتقداته الفاسدة، وهو أول من نادى بقتل المسيح عيسى ابن مريم وقيامته من الأموات، وهذا ما اعترف به كتابكم:

- فهل صِدْق الله ومجده يحتاجان إلى كتاب بولس؟!
- وهل عَجَزَ الرب عن نشر كلمته بالفضيلة والصدق؟
- وهل يعقل أن يلجأ الرب إلى الكذب والكذابين لنشر دينه بين الناس؟!
- وما حكمة الإله في أن يُوحِي إلى كذَّاب نشر رسالته وتعاليمه؟!
- وهل رضي الرب بكذب بولس ليكسب مزيدًا من الأتباع لدينه؟ أيخادع الرب عبيده؟! وما مصير من لم يخدعهم الرب ويُرْسِل إليهم كاذبًا لينقذهم؟!
- ألا يخشى ذلك الإله من تفشِّي الكذب والنفاق بين شعبه؟!
- وكيف أثق بهذا الإله الذي يرتكن إلى كاذب ومخادع لنشر رسالته؟!
- وهل سيحاسبنا الرب على الكذب يوم الحساب؟ كيف وهو ناشره؟!
- وما الفرق بين الشيطان والرب في هذه الصفة الرذيلة؟!
- ألم يكذب هو ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ بإعانته هذا الكاذب، وإرسال الوحي إليه؟!
- وكيف يأمر الله بما لا يفعله هو؟! أليست هذه حُجَّة عليه؟ أليس هذا من الظلم؟ ألم يقل في الناموس "لا تكذب"؟! فلماذا يُعين الكاذب ويوحي إليه؟!

عزيزي المسيحي:

إن بولس هو مخترع أسطورة صلب الإله فداء للبشرية في المسيحية، والتي علمت أنها أسطورة وثنية، والذي لعب بالكل ليربح الكل، وليكون شريكًا في الإنجيل: "فإني إذ كنت حرًّا من الجميع، استعبدتُ نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصِرْتُ لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أني لست بلا ناموس لله، بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس.

صِرْتُ للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت للكل كل شيء، لأخلص على كل حال قومًا. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل، لأكون شريكا فيه". (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى ٩: ١٩ ـ ٢٣).

بولس هو الذي قرر أنه ليس له دين، ولن يؤمن، ولا يريد أن يعرف إلا دين صلب الإله وقيامته من الأموات: "وأنا لَمَّا أتيتُ إليكم ـ أيها الإخوة ـ أتيت ليس بِسُمُوِّ الكلام أو الحكمة مناديًا لكم بشهادة الله، لأَنِّي لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلَّا يسوع المسيح وإيَّاه مصلوبًا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى ٢: ٢). ولن يقبل غيره حتى لو نزل إليه ملاك من السماء بما يخالف هذه الوثنية: "ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم، فليكن أناثيما". (رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ١: ٨).

لقد كان بولس كافرًا بما أنزل على عيسى عليه السلام وكان يضطهد تلاميذه وأتباعه، ثم ادعى فجأة أنه رأى عيسى عليه السلام في طريقه إلى دمشق، وتولى الدعوة إليه. فما مقدار صدق هذه الرواية؟ أين تلقى الرسالة وكيف تلقاها ؟ هل عصابته التي كانت معه ممكن أن تكون شاهدة عيان لما حدث[1]؟!

ثالثًا. نصوص الكتاب المقدس تبطل عقيدة الصلب والفداء:

يسوق الأستاذ علاء أبو بكر مجموعة من النصوص الإنجيلية التي يلحظ القارئ اضطرابها وقولها الصريح ببطلان عقيدة الصلب والفداء، وطريقنا في توضيح ذلك هو مسلك السؤال والجواب عنه على النحو التالي:

هل قبض اليهود على عيسى عليه السلام؟!

لا. وهذه هي إجابة عيسى عليه السلام نفسه، انظروا كيف وقف يتحدى اليهود علانية، قائلًا لهم: إنهم لن يتمكنوا منه، ولن يقبضوا عليه، وسيرفعه الله إلى مكان آمن، لا يستطيعون الوصول إليه: "سمع الفَرِّيسيُّون الجمع يتناجون بهذا من نحوه، فأرسل الفرِّيسيُّون ورؤساء الكهنة خُدَّامًا ليمسكوه. فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا". (يوحنا ٧: ٣٣، ٣٤).

إذن فقد أعلمهم عيسى عليه السلام أن الله سوف يتوفاه إليه، أي يستخلصه وينقذه منهم ويرفعه إليه. لكن هل يسوع هنا هو ابن الإنسان؟ لا. وإلا ما تكلَّم عنه بصيغة الغائب قائلًا: "متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذٍ تفهمون أني أنا هو". (يوحنا ٨: ٢٨).

لكن لماذا لا يكون يسوع هو ابن الإنسان؟ لاحظ أنها نبوءة أخبرهم بها! فلو كان يقصد نفسه، فما الحكمة إذًا من أن يعلمهم ذلك في مجال التبكيت، واللوم، والتحدي؟ وهل هذا منطق؟ هل من العقل أو من الكلام المفيد أن أقول لك: لو أنت أطلقت على النار ومت، فستعلم أن الميت هو أنا؟!

وهل لو كان هو الذي علق على الصليب لكان إلهًا تافهًا كاذبًا، فقد تحدى اليهود، وأخبرهم أنه سيغلبهم، وسوف يغلب العالم كله، فهل بعد كلامه هذا تغلبه

---

١. إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، مصر، ٢٠٠٥م، ص٣٩ وما بعدها.

شرذمة قليلة من اليهود؟ ولا يمكن أيضًا أن يكون رسولًا؛ لأن الرسول لا يخبر إلا بالصدق، ويتكلم بما يوحى إليه، فكيف يتحداهم رسول الله، بناء على تعليمات من الإله، ثم يخدعه هذا الإله ويتركه يصلب؟

كما أنها نبوءة في المقام الأول، ولا بد أن تتحقق، وإلا كان نبيًّا كاذبًا وحاشاه. وعلى ذلك فإن الذي فهمه اليهود كان خطأ، وماتوا في خطيئتهم، وهم يؤمنون أنهم صلبوا رسول الله. ولو سلمتم أن يسوع هو ابن الإنسان هنا، لانتفت عنه صفة الألوهية، لقول الكتاب المقدس: "إن الله ليس كمثله أحد قط". أي: لا يشبهه إنسان ولا حيوان، ولا طائر، ولا أي كائن، ولقول الكتاب المقدس: "ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم". (العدد ٢٣: ١٩).

وبهذا التحدي يكون عيسى عليه السلام قد ضرب لليهود مثلًا يقترب في الإعجاز من قول الله عز وجل لأبي لهب: إنه سيموت كافرًا، وسيحشر إلى جهنم وبئس المصير هو وزوجته. وإلى أن ماتا كانا كافرين. وهو نفس ما قاله عيسى عليه السلام لليهود: إنهم سيؤمنون أنه ابن الإنسان الذي سيكون معلقًا على الصليب، ويموتون على هذا الفهم، وعلى هذه الخطِّية.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحاول فيها اليهود قتل عيسى عليه السلام فقد سبقتها عدة محاولات، بَيْد أن عيسى عليه السلام نجح في الانفلات منهم، بما أعطاه الله من قدرة على التخفي، وإخفاء شخصيته وصوته وملامحه عن أقرب الناس إليه، وإليك مجموعة من محاولات اليهود:

- فقد أرادوا أن يقذفوه من فوق الجبل فمكَّنه الله من تغيير هيئته، وخرج من وسطهم وهم لم يعرفوه: "فامتلأ غضبًا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة، وجاءوا به إلى حافَّة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيَّة عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى". (لوقا ٤: ٢٨ ـ ٣٠).

- بل لم يعرفه سبعة من تلاميذه وخاصته: "بعد هذا أظهر أيضًا يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طَبَرِيَّة. ظهر هكذا: كان سمعان بطرس، وتوما الذي يقال له التوأم، ونثنائيل الذي من قانا الجليل، وابنا زَبْدِي، واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم. قال لهم سمعان بطرس: «أنا أذهب لأتصيد». قالوا له: «نذهب نحن أيضًا معك». فخرجوا ودخلوا السفينة للوقت. وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئًا. ولما كان الصبح، وقف يسوع على الشاطئ. ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع. فقال لهم يسوع: «يا غلمان، ألعل عندكم إدامًا؟».[1] أجابوه: «لا!» فقال لهم: «ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا». فألقوا، ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك". (يوحنا ٢١: ١ ـ ٧).

- وكذلك لم يعرفه اليهود الذين كانوا يسمعونه في المعبد في كل حين، ولو كان بإمكان اليهود القبض عليه والتعرف عليه لفعلوا، ولكن تغيير صورته وشكله وصوته أشكل عليهم الأمر، مما اضطرهم للجوء لأحد تلاميذه ليرشدهم عليه.

---

١. الإدام: ما يُؤكل بالخبز، أو ما يُخلط معه لتطييبه.

لكن إذا كان عيسى ﷺ قد مكَّنه الله من أن يخفي صورته وشكله وصوته، فما هي الحكمة من هذه المعجزة؟ فإن قلتم: إنه تعمد ذلك لفداء البشرية، لتناقض قولكم مع ما ثبت مع اجتهاد المسيح في الصلاة ليُذْهِب إلهه عنه كأس الموت!! ولكان يهوذا هو الرجل الجدير بالتقديس؛ لأنه في هذه الحالة سيكون الفادي الحقيقي لما تسمونه الخطيئة الأصلية[1].

إذن نخلص من هذه المقتطفات التي اقتطفناها من نصوص الكتاب المقدس إلى أن عيسى ﷺ قد تحدى اليهود، وأعلمهم أنهم سيموتون في خطيتهم: أي على فهمهم الخاطئ، وعلى محاولتهم قتل نبي الله، ولن يمكنهم الله منه، أي: لن يقبضوا عليه ليصلبوه.

من الذي مات على الصليب؟

ويواصل الأستاذ علاء أبو بكر طرح أسئلته التي تُفنِّد مسألة الصلب قائلًا: يدعي النصارى باختلاف فرقهم أن عيسى ﷺ هو الإله المتجسد مع اختلافهم في طبيعته: هل هو ذو طبيعة واحدة أم ذو طبيعتين؟ فسواء كان ابن الإله أو الإله الرئيسي، فهو في النهاية إله. والإله لا يموت باعتراف الكتاب!!

"انظروا الآن! أنا أنا هو. وليس إله معي. أنا أميت وأحيي". (التثنية ٣٢: ٣٩)، أما يسوع: "قال: قد أُكمِل. ونكَّس رأسه وأَسْلَم الروح". (يوحنا ١٩: ٣٠). "إني أرفع إلى السماء يدي وأقول: حيٌّ أنا إلى الأبد". (التثنية ٣٢: ٤٠)، ولكن يسوع: "فصرخ يسوع أيضًا بصوت عظيم وأسلم الروح". (متى ٢٧: ٥٠).

فليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله، فلا يوجد داعٍ لأن ينزل ويتجسَّد. وبما أنه ليس الله، فلا سلطان له لغفران الذنوب. وبما أنه لا سلطان له لغفران الذنوب، إذن فأسطورة الصلب والفداء من الوثنيات التي يحتويها الكتاب المقدس من الأديان الوثنية الأخرى.

إذن فقد أثبتنا في النقطة الثانية أن الذي مات على الصليب ليس هو عيسى ﷺ، وهم يدعون أن عيسى هو الله، فلا بد أن الذي مات على الصليب شخص آخر غير يسوع.

ومن الضروري أن نثبت أن يسوع الذي يَدَّعون أنه صُلب ليس الله؛ لأنه سينفي من جانب آخر أنه لا ضرورة لنزول الإله وتجسده؛ لأنه أحب العالم وضحى بابنه من أجل الخطايا السابقة، كما يقول بولس مقتبس أسطورة الصلب والفداء من الأديان الوثنية القديمة: "ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خُطاة، مات المسيح لأجلنا. فبالأولى كثيرًا ونحن متبرِّرون الآن بدمه نَخْلُص به من الغضب! لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيرًا ونحن مصالحون نخلص بحياته! وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا بالله، بربنا يسوع المسيح، الذي نِلْنا به الآن المصالحة. من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيَّة إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس، إذ أخطأ الجميع. فإنه حتى الناموس كانت الخطية في العالم. على أن الخطية لا تحسب إن لم يكن ناموس. لكن قد ملَكَ الموتُ من آدم إلى موسى،

---

١. إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مرجع سابق، ص٥ وما بعدها.

وذلك على الذين لم يخطئوا على شِبْه تعدِّي آدم، الذي هو مثال الآتي. ولكن ليس كالخطية هكذا أيضًا الهبة. لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون، فبالأولى كثيرًا نعمة الله، والعَطيَّة بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح، قد ازدادت للكثيرين! وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية. لأن الحكم من واحد للدينونة، وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير. لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد، فبالأولى كثيرًا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر، سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح؛ فإذًا كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس، لتبرير الحياة. لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خُطاة، هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارًا. وأما الناموس فدخل لكي تكثر الخطية. ولكن حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًا. حتى كما ملكت الخطية في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر، للحياة الأبدية، بيسوع المسيح ربنا". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٥: ٨ ـ ٢١).

"وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس، مشهودًا له من الناموس والأنبياء، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح، إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون. لأنه لا فرق. إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبررين مجانًا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدَّمه الله كفارة بالإيمان بدَمِه، لإظهار برِّه، من أجل الصَّفْح عن الخطايا السالفة بإمهال الله". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٣: ٢١ ـ ٢٥).

إن لله صفات لا تغير، يقول الكتاب المقدس: "أنا الرب لا أتغير". (ملاخي٣: ٦). "فبمن تُشبِّهون الله؟ وأيّ شبه تُعادلون به"؟ (إشعياء ٤٠: ١٨). "لا مثل لك يا رب! عظيم أنت وعظيم اسمك في الجبروت". (إرمياء ١٠: ٦). فلا يمكن أن يكون الرب إنسان، ولا حيوان، ولا جماد، ولا نبات، ولا أي صورة يمكن الإنسان أن يتخيلها، فهو لا مثيل له، ليس كمثله شيء. وقد أكد الكتاب على هذه النقطة عدة مرات، حتى لا يلبس الشيطان على الناس أمر دينهم، فعندما طلب موسى من الله أن يراه: "قال: لا تَقْدِر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش". (الخروج ٣٣: ٢٠).

فكيف يكون عيسى ﷺ هو الله. وهل الله له جسد، أو مولود من الجسد بالطبع تكون الإجابة بالنفي: لا، لأن "المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح". (يوحنا ٣: ٦). فهذا نفي قاطع من عيسى ﷺ وتحذير أن يتخذه إنسان ما إله، لأنه مولود من جسد امرأة، فكان عظامًا ولحمًا.

أما الذين اتخذوا إنسانًا إلهًا وعبدوه بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة العقل، وعرفوا الإله الحقيقي الذي يُدين ولا يُدان، الحي الذي لا يُصلب ولا يموت، القدوس الذي لا يُهان، فهم من الأنجاس الخالدين في أتون النار: "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفني بشبه صورة الإنسان الذي يفني، والطيور، والدواب، والزحافات. لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة، لإهانة

أجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حق الله بالكذب، واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق، الذي هو مبارك إلى الأبد. آمين. لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان". (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١: ٢١ ـ ٢٦).

ونكون في هذه النقطة قد أثبتنا أن عيسى عليه السلام ليس بإله، بل هو نبي أرسله الله إلى أمته، لا يملك غفران الذنوب، ولم يقل لبني إسرائيل: إنه قد جاء إليهم كإله، متجسدًا في صورة بشر لغفران الخطيئة الأزلية، كما أثبتنا أن الذي كان على الصليب لا يمكن أن يكون الله؛ لأن الله لا يموت، وفي ذلك تفنيد لأسطورة الصلب والفداء.

فالذي مات على الصليب فهذا أمر غير مهم بالنسبة لنا أو لكم، فبعض الكتب تقول: إنه يهوذا الخائن، وبعضها الآخر يقول: إنه لم يكن واحد من التلاميذ خائنًا، بل وافق يهوذا ـ وهو أصغر التلاميذ سنًّا ـ على أن يُلقي شبه عيسى عليه السلام عليه، ويلقي شبهه على عيسى عليه السلام، وأكد عليه هذا الطلب ثلاث مرات ووافق. وفريق الآخر يخمن أن الذي صُلِب هو سمعان القيرواني الذي كان يحمل الصليب. فلا يهمنا أن نعلم من الذي كان على الصليب. لكن جُلّ همنا هو: هل كان يسوع على الصليب أم لا؟

هل هناك شهود على صلبه؟

لا. فقد تركه كل تلاميذه وهربوا، بل إن حادثة الصلب والقيامة بها من التناقضات التي تضطر كل ذي عقل أن يرفضها. فعلى سبيل المثال:

- حدثت قصة العشاء الأخير، وتدليك يسوع بالطِّيب في بيت سمعان الأبرص عند مرقس ومتى: "وفيما هو في بيت عَنْيَا في بيت سمعان الأبرص، وهو مُتَّكِئ، جاءت امرأة معها قارورة طيب نارِدِين خالص كثير الثمن". (مرقس ١٤: ٣)، "وفيما كان يسوع في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص، تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن". (متى ٢٦: ٦، ٧)، بينما حدثت عند لوقا في بيت الفَرِّيسيِّ: "وسأله واحد من الفَرِّيسيِّين أن يأكل معه، فدخل بيت الفريسي واتَّكأ". (لوقا ٧: ٣٦)، إلا أنها حدثت في منزل مريم ومَرْثَا ولِعازَر في بيت عَنْيَا عند يوحنا: "ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا، حيث كان لعازر الميت الذي أقامه من الأموات. فصنعوا له هناك عشاء. وكانت مرثا تَخْدِم، وأما لعازر فكان أحد المتكئين معه". (يوحنا ١٢: ١، ٢).

- حدثت واقعة تدليك يسوع بالطيب قبل عيد الفصح بيومين عند مرقس ومتى: "وكان الفِصْح وأيام الفطير بعد يومين". (مرقس ١٤: ١)، "تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح". (متى ٢٦: ٢)، بينما حدثت قبل الفصح بستة أيام عند يوحنا: "ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا". (يوحنا ١٢: ١)، وسكت عنها لوقا، ولكنه ذكرها قبل إرسال التلاميذ الإثني عشر.

- ثم سكب العطر على رأس يسوع عند مرقس ومتى: "فكَسَرَت القارورة وسَكَبَته على رأسه". (مرقس ١٤: ٤)، "فسكبته على رأسه وهو متكئ". (متى ٢٦: ٧)، إلا أنه عند لوقا ويوحنا دَهَنَت رجليه بالطيب: "ووقفت عند قدميه من ورائه باكية،

وابتدأت تَبُلُّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها، وتُقبِّل قدميه، وتدهنهما بالطيب". (لوقا ٧: ٣٨)، "فأخذت مريم مَنًا من طِيْب نارِدِين خالص كثير الثمن، ودَهَنَت قَدَمَي يسوع، ومَسَحَت قدميه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب". (يوحنا ١٢: ٣).

- كان العشاء الأخير في اليوم الأول من الفطير عند مرقس ولوقا: "وفي اليوم الأول من الفطير. حين كانوا يذبحون الفصح، قال له تلاميذه:«أين تريد أن نمضي ونُعِدَّ لتأكل الفصح"؟ (مرقس ١٤: ١٢)، إلا أنه كان عند يوحنا بعد موت يسوع وقيامته: "ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية، وكان صبح. ولم يدخلوا هم إلى دار الولاية لكي لا يتنجسوا، فيأكلون الفصح". (يوحنا ١٨: ٢٨).

ومن المعلوم أن وجود فكرة الخطيئة الأصلية ونزول الرب ليُصْلَب ليغفرها لتدل على أنه لم يوجد إنسان على وجه الأرض من الأبرار، ولا حتى من الأنبياء، والواقع أن الكتاب المقدس يؤكد عكس ذلك: فقد كان إبراهيم وإيليًّا وأَخْنُوخ ويوحنا المِعْمِدان، وأهل نِيْنَوى وغيرهم من الأبرار الذين أرضوا الرب بأعمالهم مع إيمانهم: "وبارك الرب إبراهيم في كل شيء". (التكوين ٢٤: ١)، "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد؛ لأن الله أخذه". (التكوين ٥: ٢٤)، "الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه". (متى ١١: ١١)، إذا كان يوحنا من الأبرار، بل ومن أعظم من ولدتهم النساء، إذا فقد كان هناك عظماء آخرين، ومع ذلك فإن يوحنا أفضلهم، ويفضل الكل النبي الخاتم، أصغرهم فلا وجود إذًا للخطيئة الأزلية.

ومن العجيب أن تقرأ في الأناجيل نزول موسى وإيليًّا وظهورهم لعيسى ﷺ، بل ورؤية التلاميذ لهما: "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه، وصعد بهم إلى جبل عال منفرِدِين. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وأضاء وجهه كالشمس، وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليًّا قد ظهرا لهم يتكلمان معه. فجعل بطرس يقول ليسوع: يا رب، جيِّد أن نكون ههنا! فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظالّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة". (متى ١٧: ١ ـ ٤)، "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا، وصعد بهم إلى جبل عال منفرِدِين وحدهم. وتغيَّرت هيئته قُدَّامهم، وصارت ثيابه تلمع بيضاء جدًّا كالثلج، لا يقدر قصار على الأرض أن يبيض مثل ذلك. وظهر لهم إيليا مع موسى، وكانا يتكلمان مع يسوع. فجعل بطرس يقول ليسوع: يا سيدي، جيد أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظالٍّ: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة. لأنه لم يكن يعلم ما يتكلم به إذ كانوا مُرْتَعِبِين". (مرقس ٩: ٢ ـ ٦). فإذا كانت هناك فرصة ما لتجلِّي الأنبياء ورجوعهم من الموت، فلماذا لم يتجلَّ آدم وحواء ليقتصَّ الله منهما بدلًا من ابنه أو نفسه®؟

® في "اضطراب الأناجيل في تقرير الصلب والفداء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

هل الإسلام هو أول من قال بعدم صلب عيسى عليه السلام؟

لا. لقد سبق الإسلام في نَفْي القول بصلب عيسى عليه السلام كثير من الطوائف المسيحية التي عاصرت عيسى عليه السلام وأحداث الصلب، أو اقتربت منه، وسمعت من شهود عيان، وهذه بعض فرق النصارى الأولين الذين آمنوا بعدم صلب عيسى عليه السلام: الباسيليديون، والبارديسيانية، والماينسية، والدوسيتية، والكورنثية، والساطريونسية، والمارسيونية، والبولسية، والماركيونية، والسيرنثية، والهرمسية، والكاربوكرايتة، والبارسكاليونية، والتايتانيسية، والفلنطانيائية، ومن ثم فليس الإسلام بدعًا فيما يقول بل جاء التصريح منهم أنفسهم.

رابعًا. عقيدة صلب المسيح باطلة بشهادة كثير من علماء النصارى:

هل صحيح أن المسيح قد صلب كما تزعم الكتب المقدسة؟!

إن كثيرًا من علماء النصارى ومحققيهم ينفون نفيًا قاطعًا وقوع الصلب على عيسى عليه السلام ومنهم أدوار سيوس في كتابه "عقيدة المسلمين"، ومنهم أرنست دي بولس في كتابه "النصرانية الحقة"، ومنهم ملمن في كتابه "تاريخ الديانة النصرانية"... إلخ.

أما دائرة المعارف الكبرى - التي اشترك في تأليفها قرابة (٥٠٠) من كبار العلماء والباحثين والمحققين - فقد أكدت وقوع التحريف والتزييف في الأناجيل، واعتبر مؤلفوها قصة الصلب وما فيها من تناقض وتعارض أحد الأدلة على ذلك، كما أكدوا أيضًا أن أصول تعاليم النصرانية مأخوذة من الوثنية والبوذية... ومن المحتمل جدًّا أن القبر الذي دفن فيه المصلوب قد نبش في اليوم الثالث، فلما اكتشف النابشون أن الجثة لغير عيسى عليه السلام سُقِطَ في أيديهم، فقرروا إخفاءها وأشاعوا أن عيسى قام من قبره في اليوم الثالث وصعد إلى السماء[1]!!

والحقيقة أن بولس اليهودي الماسوني العدوّ الأول للمسيح هو أصل كل ما حدث في النصرانية من أباطيل، وهو الذي اخترع قصة الصلب، واخترع دعوى ألوهية المسيح، وخرافة الفداء.

ولعل أكبر وثيقة تاريخية فضحت زيف الديانة النصرانية، وأثبتت بطلان معتقدات أتباعها هي إنجيل برنابا التي أثبتها العلماء قبل الإسلام بحوالي ٣٠٠ سنة، وقد قال فيها المستر تولاند العالم الإنكليزي الشهير الذي اطلع عليها سنة ١٧١٨م: "سأقول على النصرانية السلام"، كتب عنها في كتابه المسمى "الناصري"، واختتم تعليقه عليها بقوله: "إن مدّ النصرانية وقف منذ ذلك الحين"؛ أي: منذ ظهور النسخة الأولى من إنجيل برنابا.

كما قال: "إن المسيحية ستتلاشى تدريجيًّا حتى تنمحي من الوجود". وفي عهد البابا ستكس الخامس عشر الراهب فرامرينو بطريق المصادفة على نسخة من هذا الإنجيل في مكتبة الفاتيكان فسرقها، وطالعها بشوق عظيم، فكانت سببًا في اعتناقه الإسلام!!

وقد زعم بعض النصارى أن هذا الإنجيل من

١. قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ج١، ص٣٧٥.

وضع المسلمين، و هذا يكذبه المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول، والذي يتضمن بيان الكتب التي يَحْرُم، قراءتها وكان من بينها إنجيل برنابا، وكان صدور هذا المنشور في أواخر القرن الخامس الميلادي؛ أي: قبل بعثة النبي محمد ﷺ بحوالي مائة عام.

وهذا الإنجيل يؤكد تأكيدًا جازمًا وقوع الصلب على يهوذا دون غيره، كما ينفي نفيًا قاطعًا تأليه عيسى ﷺ، بل يؤكد نبوته، وأنه مخلوق لله، يخضع للنواميس التي يخضع لها سائر البشر؛ كما يبشر برسالة محمد ﷺ تصريحًا لا تلميحًا!!

وبرنابا هذا هو أحد الحواريين (أنصار عيسى ﷺ) وهو متفق مع بطرس رئيس الحواريين على نفي تأليه عيسى، وهو أول من حكم بكفر بولس اليهودي الذي اخترع فكرة تأليه المسيح، وقد صرح بذلك في أول صفحة من إنجيله.

وثمة دليل آخر على كذب الزاعمين بصلب المسيح ﷺ: يروى أنه دخل على المنذر الثالث ـ أحد ملوك الحيرة ـ جماعة من الأساقفة في محاولة لتنصيره، وذلك في عام ٥١٣م، وفي أثناء مناقشته حول صلب المسيح ﷺ ودعوى ألوهيته دخل عليه قائد شرطته، وأسرّ له بشيء، فتظاهر الملك بالتأثر وأخذ يضرب كفًّا بكف ويقول: يا له من خبر سيئ! ثم التفت إلى رئيس الأساقفة وقال له: لقد أخبرني قائد شرطتي أن رئيس الملائكة قد مات، فانتفض الأسقف مذعورًا، وقال له: هذا محال يا مولاي، لقد غشَّك من أخبرك بهذا الخبر؛ فإن الملائكة مخلدون يستحيل عليهم الفناء. فضحك الملك وقال له: إذا كانت الملائكة لا تموت، فكيف تريد مني أن أُصدِّق بموت من تزعمون أنه خلقهم ـ وهو المسيح ﷺ ـ ثم أمر بطردهم وإخراجهم من البلاد؛ لسخفهم، وتناقضهم مع أنفسهم!!

نعم إذا كان المسيح عيسى ﷺ قد صلب كما يزعمون فأين كان الآب، وهو الله عند صلبه؟ ولماذا ترك ولده رهين القتل والعذاب؟! أعن عجز؟! فالمتصف بالعجز لا يكون إلهًا!!. أعن قدرة؟ فلماذا تخلى عن نصرته؟!

الخلاصة:

- العدالة الإلهية تقتضي أن يحاسب كل إنسان على عمله فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، فكيف يخطئ آدم فيحاسب عيسى ؟!! وهل من العدل أن يخطئ إنسان فيحاسب إنسان آخر؟! وهل من العدل أن يرث البشر خطأً عن أبيهم آدم لم يقترفوه؟! علمًا بأن الله أخبرنا ـ بما لا يدع مجالًا للشك ـ بأنه تاب على آدم ﷺ.
- عقيدة الفداء والصلب عقيدة وثنية اقتبسها النصارى من الديانات الوثنية المنتشرة، في بقاع العالم من مثل: ديانة مثرا الفارسية التي انتقلت إلى الدولة الرومانية واقترنت بعبادة إيزوريس المصرية. وديانة بَعْل البابلية التي انتقلت إلى شمال الهلال الخصيب ودان بها الكنعانيون، وديانة الهندوس التي تقول بالصلب والفداء، وتخليص البشرية من الذنوب والخطايا بالصلب والفداء لصاحب الديانة دائمًا مثل بوذا وغيره.
- عقيدة صلب المسيح باطلة بنصوص الكتاب المقدس وشهادة كثير من علماء النصارى ومحققيهم.

- إن بولس اليهودي الماسوني العدو الأول للمسيح عليه السلام هو أصل كل الأباطيل في النصرانية وهو الذي اخترع قصة الصلب، ودعوى ألوهية المسيح، وخرافة الفداء. وتناقض الأناجيل فيما بينها حول رواية صلب المسيح فداءً للبشر يهدم صحة هذه الروايات؛ ولأن القرآن الكريم قد حسم الخلاف بين الأناجيل حول قضية توارث الخطيئة، وأكد بطلانها من أساسها، فقال عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)﴾ (البقرة).

الشبهة الرابعة والتسعون

ادِّعاء أن القرآن والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح عليه السلام على محمد ﷺ (*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم والإنجيل يثبتان أفضلية المسيح عليه السلام على محمد ﷺ، ويستدلون على زعمهم بما يأتي:

- أن عيسى عليه السلام ابن الله، وأن محمدًا ﷺ بشر، ويستندون في ذلك إلى عبارة: "أني قلت: إنِّي ابن الله".
- أن يسوع أجرى المعجزات، وأن محمدًا ﷺ لم تُؤْثَر عنه أية معجزة، ويستندون في دعواهم إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩).
- أن عيسى عليه السلام يعلم الغيب: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾(آل عمران: ٤٩)، وأن محمدًا ﷺ لا علم - بحال - له به: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨).
- أن عيسى عليه السلام يشفع في خطايا العالم كله، وأن محمدًا ﷺ لا يشفع، ولا تقبل منه الشفاعة، ويستدلون بقول الله عز وجل: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).
- أن المسيح عليه السلام دعا للمحبة والسلام، وأن محمدًا ﷺ سنَّ لأمته الإرهاب، ويستندون في ادِّعائهم إلى قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ (الأنفال).

وجوه إبطال الشبهة:

١) المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين، من حيث صحة المعنى وصحة التوثيق، وعبارة: "أني قلت: إني ابن الله" مقابلة ومعارضة بتصريحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى عليه السلام "ابن الإنسان"؛ فكيف يَقْوى الإنجيل على محاجَّة القرآن وهو متناقض ينقض بعضه بعضًا، فمرة يقول هو: "ابن الله"، ومرة يقول: "ابن الإنسان".

٢) المسيح عليه السلام لم يفعل المعجزات استقلالًا، ولكن الله أجراها على يديه تصديقًا له، ولقد أيَّد الله

(*) الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.

® في "فضل عيسى على محمد بثبوت الحياة الأبدية له" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

تعالى محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن، والمقصود بالآيات الممتنع إرسالها إلى محمد ﷺ هي - فقط - الآيات المقترحة من المشركين.

٣) إن علم الغيب هو بيد الله ﷻ لا يظهر عليه أحد إلا من ارتضى من رسول مرسل أو ملك مقرب، وما اطلع عليه عيسى ﷺ من أمر الغيب هو من هذا القبيل، وهو ليس بدْعًا من الرسل، فنبينا محمد ﷺ أيضًا ممن أطلعه الله ﷻ على أمور غيبية، وقوله ﷻ على لسان نبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ (الأعراف:١٨٨) لا تفيد نفي علم الغيب عن نبينا محمد ﷺ.

٤) إن الشفاعة التي يزعمها هؤلاء النصارى لعيسى ﷺ شفاعة أوحى بها فكرهم الباطل وعقلهم الضال ومنطقهم الفاسد، ليبيحوا لأنفسهم فعل المنكرات واستحلال المحرمات، وبلغ من حُمْقهم أن أجازوها - أي: الشفاعة - للناس برُمَّتِهم المؤمنين منهم بعيسى ﷺ وغير المؤمنين به.

٥) ما نسب ولُفِّق للمسيح ﷺ من دعوته للسلم في الأحوال كلها مهانة ومذلَّة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة - فضلًا عن نبي مرسل - فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخِذْلان، وتحريض النبي ﷺ للمؤمنين على القتال من هذا الباب.

التفصيل:

أولا. المفاضلة الصحيحة بين اثنين تكون في نص واحد، لا في نصين متباينين:

على من أراد المفاضلة بين اثنين مفاضلة صحيحة، أن يفاضل بينهما في نصٍّ واحد، أما أن يفاضل بعضهم بين النبي ﷺ في القرآن، وعيسى في الإنجيل، فأمر لا يجوز؛ ذلك أننا لا نؤمن بأن الكتاب المقدس الحالي بعهديه وحي من عند الله، ولا النصارى أنفسهم يقولون: إنَّه وحي منزل، بل هو مكتوب بأيدي من نسب إليهم؛ وعليه فالمفاضلة ليست صحيحة.

أما عبارة: "أني قلت: إني ابن الله" فهي مناقضة ومعارضة بتصريحات الأناجيل المتكررة بأن عيسى ﷺ "ابن الإنسان": "فإني الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان". (متى ١٠: ٢٣)، "فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله. الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته". (متى: ١٧: ٤٠)، "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء. وكما رفع موسى الحيَّة في البَرِّيَّة هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان". (يوحنا ٣: ١٣، ١٤).

وعقلاء النصارى يدركون أن معتقد بني دينهم أن الله ثلاثة - الآب، والابن، والروح القدس - باطل، وأنه إله واحد، وكون عيسى ابن الله على الحقيقة لم يرد في كلام عيسى، وأن التعبير بـ "ابن الله" تعبير مجازي، كما جاء أن الجميع أبناء الله، يقول د. نظمي لوقا: "ولم يرد على لسان المسيح في أقواله الواردة في بشارات حوارييه - الأناجيل - إشارة إلى شيء من ذلك "التثليث النصراني"، بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ "ابن الإنسان"، أما البنوة لله ﷻ فما ورد لها ذكر إلا على سبيل المجاز المطلق، وبمعنى يشمل البشر كافة، حين أوصى أن تكون صلاة

الناس إلى الله بادئة بقولهم: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمك". (متى ٦: ٩)، وحين طالب أتباعه وجميع الناس أن يسلكوا طريق البِرِّ؛ كي يكونوا جديرين بنسبتهم إلى الله: "أحبوا أعداءكم. باركوا لاعِنِيكُم. أحسنوا إلى مبغِضِيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات". (متى ٥: ٤٤، ٤٥)[1].

وبناء على ما سبق، فلا فرق بين ما صرحت به الأناجيل في شأن عيسى من أنه ابن الإنسان، وبين النبي محمد ﷺ ومجيء القرآن الكريم مصرحًا بأنه بشر؛ فالأنبياء جميعًا بشر أرسلهم الله إلى البشر، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ (الأنبياء: ٧)، وقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٢٠) بشر بكامل خواص البشرية.

ثانيًا. المسيح لم يفعل المعجزات استقلالا، ولكن الله ﷻ أجراها على يديه تصديقًا له، كما أن الله أيد محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن:

من يزعمون أن يسوع أجرى المعجزات، مستدلين بنصِّ الأناجيل: "عمل كل شيء حسنًا، جعل الصُّمَّ يسمعون، والخُرْس يتكلمون". (مرقس ٧: ٣٧)، وأن محمدًا ﷺ لم يُجْرِ المعجزات، مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الإسراء)، متخذين ذلك دليلًا على تفضيل عيسى عليه السلام على محمد ﷺ زعم باطل وقول متهافت.

نعم إن الله ﷻ أجرى المعجزات على يد نبيه عيسى ابن مريم عليه السلام تصديقًا له، ولا ينكر ذلك المسلمون، والقرآن الكريم يذكر ذلك في الآيات، قال الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (المائدة)، ولكنه لم يفعلها استقلالًا، وإنما هي من فعل الله تعالى، أظهرها على يدي عيسى عليه السلام، وإذا نسبت إليه في القرآن، أو في الإنجيل، فهي نسبة مجازية، كما ينسب الشيء الواحد إلى أكثر من ذات، حسب دور كل من نُسِب إليه، فينسب إلى فاعله الأصلي، وينسب إلى من

---

1. محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ص٤١.

باشره، وينسب إلى من تسبب فيه... إلخ.

كما نسب الله ﷻ التوفي إلى الله، وإلى ملك الموت، فعيسى ﷺ يمسح بيده على الأبرص، فيعقب هذا المسح أن يبرئه الله ﷻ من هذا الداء، وينفخ فيما شكَّله من الطين، فيعقب هذا النفخ أن يوجد الله ﷻ الحياة، فنسب هذا وذاك إلى عيسى باعتباره متسببًا.

وأما نفي المعجزات عن النبي محمد ﷺ بحجة قوله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٥٩)؛ فليس المراد بالآيات التي امتنع الله من إرسالها مطلق المعجزات التي تؤيد الرسول في صدقه ودعواه النبوة، ولكن المراد الآيات التي يقترحها المشركون، فالله ﷻ لم يُلَبِّ ما طلبوه؛ لأن من سبقهم من الأمم طلبوا من رسلهم آيات، وجاءتهم الآيات بناء على ما طلبوا، فما ازدادوا إلا تكذيبًا، كما حدث من بني إسرائيل مع نبيهم موسى ﷺ، وكما حدث من عادٍ وثمود، فإن من طلب الآيات وجاءته، واستمر على التكذيب هلك، فالمقصود بالآيات الممتنع إرسالها الآيات المقترحة، لا مطلق الآيات.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يُنحِّي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني[1] بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهْلِكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)[2].

وقد أيَّد الله تعالى نبيه ﷺ بالمعجزات الباهرات، وأعظمها معجزة القرآن الكريم، تلك المعجزة التي تخاطب العقول وتستحوذ على القلوب، وهي معجزة باقية صالحة للأمم جميعًا، ولمستويات الناس كافة أبد الدهر، وما زال القرآن الكريم يثبت لأولي العلم كل يوم أنه وحي من الله، وليس من عند بشر، وأنه الذي بلغه رسول الله للناس، هذا فضلًا عن معجزاته ﷺ الأخرى التي جرت على يديه، منها ما أثبته القرآن الكريم، ومنها ما جاء في سنته، فمن معجزاته في القرآن الكريم معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وإخباره بالغيب بجميع أنواعه: الماضي، والحاضر، والمستقبل، وما أكثر ما جاء في السُّنَّة من معجزات، كنبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع، وتكثير الطعام القليل[3].

ثالثًا. الذي يعلم الغيب ويعلم ما في القلوب هو علام الغيوب ﷻ وحده دون غيره:

ينسب بعضهم علم الغيب إلى عيسى ﷺ وذلك استنادًا إلى عبارة جاءت في العهد الجديد تقول: "فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص للكُلَى

١. تَسْتَأْني: تتمهَّل.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما (٢٣٣٣)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. سُبُل الهُدَى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٩، ص٥٥٥: ٦١٨، ج١٠، ص١٣: ٩٠٠. دلائل النبوة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥٧: ١٦٤.

والقلوب، وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله". (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٢٣). وينفي علم الغيب عن النبي ﷺ استنادًا إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقوله ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ (الأنعام: ٥٠).

وللجواب عن هذا نقول: لا نُسلِّم بأن عيسى عليه السلام يقول مثل هذا الكلام، فهو ليس إلهًا ولا ابن إله، حتى يوحي إلى يوحنا بهذا الكلام، وإذا كان عيسى عليه السلام سيكلِّف يوحنا برسالة إلى الكنائس كما جاء في مستهل رؤيا اللاهوتي، فإنما يكلفه بأن يدعو الناس إلى عبادة الإله الواحد، ومتى كانت الكُلَى موضع أسرار؟! على أي حال، إن الذي يعلم ما في القلوب هو علام الغيوب ﷻ وحده دون غيره.

وأما قول الله على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ (الأنعام: ٥٠) فهذا حق لا ريب فيه، فلا النبي محمد ﷺ يعلم الغيب من تلقاء نفسه، ولا غيره من البشر، ولكن النبي إذا عَلِمَ، وظهر له من الغيب شيئًا، فإنما بتعليم الله له، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن)، وقد أظهر الله ﷻ لنبيه من الغيب ما كان آية على صدقه، فقال تبارك وتعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ (الروم)، ولو لم يتحقق ما جرى على لسان النبي ﷺ ونبوته بهذا الحدث الكبير في هذه الأمة العظمى - وهو حدث ترقبه العالم آنذاك - لكذَّب الناس بالقرآن وما صدقه أحد، وهناك الكثير من الأحداث التي أخبرت بالغيب جاءت على لسان رسول الله في سنته؛ كإخباره بعلامات الساعة: "أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رُعاة الشاء يتطاولون في البنيان"[1]. وقد تحققت هذه الأخبار وغيرها، مما يثبت صدقه ﷺ.

ولو افترضنا - جدلًا - أن عيسى عليه السلام قال هذا الكلام، فليس معنى ذلك أنه يعلم الغيب بل يكون علمه بأمور جزئية أعلمها الله له لتقع في المستقبل للدلالة على نبوته، كما أخبر النبي محمد ﷺ عن أمور كثيرة تقع في المستقبل ووقعت بالفعل، مثل فتن وملاحم آخر الزمان، وعلامات الساعة، والإعجاز العلمي الذي أخبر به القرآن والسنة، وما زال يقع ويتحقق حتى اليوم.

رابعًا. دليلهم على شفاعة عيسى للخطايا يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه، وقد نفى الله ﷻ شفاعة محمد ﷺ في المنافقين:

في هذه المقارنة يثبتون الشفاعة لعيسى، وينفونها عن محمد ﷺ، ففي حق عيسى عليه السلام جاء في إنجيل يوحنا: "أنا قد جئت نورًا إلى العالم، حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة. وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه؛ لأني لم آتِ لأَدين العالم بل لأُخلِّص العالم". (يوحنا ١٢: ٤٦، ٤٧). وفي حق محمد ﷺ يستشهدون بقوله ﷻ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر (١٠٢).

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠).

أمَّا ما جعلوه دليلًا على شفاعة عيسى عليه السلام لخطاياهم، وخطايا كل العالم، فهو يتعارض مع العقل والواقع النصراني نفسه؛ حيث إن شفاعة عيسى عليه السلام للخطايا تعدُّ تحريضًا على ارتكاب كل الرذائل والمنكرات، ما دام المسيح يشفع لكم بمجرد أن تؤمنوا بأنه المخلِّص، فهل ترضون - معاشر القساوسة - لأتباعكم أن يرتكبوا كل المنكرات باسم شفاعة عيسى عليه السلام وتكفيره لخطاياكم؟! وما جدوى مواعظكم في بني دينكم إذا كان الأمر كذلك؟

لقد فهم المسيحيون في الغرب الأمر على هذا الوجه، إنهم يستبيحون لأنفسهم كل الشهوات الدنيوية بلا حدود على اعتبار أن هذا حق الجسد من المتعة، ويكفيهم من أمر الآخرة أن المسيح مخلِّص لهم!

وأعجب من ذلك حينما يُعَمِّمُون القاعدة في حق العالم جميعًا، حتى من لم يؤمن بالمسيح - على طريقتهم - فهل تكفر خطايا جميع العالم بشفاعة المسيح من آمن به، ومن لم يؤمن به؟!

إذن فليفسد العالم، ولينتشر الفسق والفجور ما دام المسيح سيشفع للعالم عن خطاياه في نهاية الأمر!

أما الآية التي استدلوا بها على نفي شفاعة نبينا محمد ﷺ، فهي واردة في حقِّ المنافقين، وهم قوم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، والنفاق أشرس أنواع الكفر، وأخطر من الكفر الصريح، فحق عليهم ألا يغفر لهم، وهذا إخبار من الله لنبيه، ما لم يكن يعلمه في شأنهم.

وصدق الله ﷻ القائل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء).

إن الشفاعة لا تكون إلا لمن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، ومن آمن فإنَّ إيمانه حتمًا سيدفعه إلى شيء من العمل، فيتداركه الله بشفاعة الشافعين في بعض ما قصَّر بمنِّه وكرمه[®].

خامسًا. ما نُسبَ ولُفِّق للمسيح عليه السلام من دعوته للسِّلْم في كل الأحوال مهانة ومذلة، لا يرضاها ذو مروءة وكرامة، فضلا عن نبي مرسل، فالأمر إذا اقتضى القتال فالعفو فيه تهاون وخِذْلان:

وهذه المفاضلة تدخل ضمن ترويج اتهام الإسلام بالإرهاب، وأنه انتشر بالسيف، وأن النبي ﷺ سَنَّ لأمته الإرهاب، فكانوا إرهابيين، أما المسيحية فهي دعوة للمحبة والسلام. ويستدلون على منع يسوع أتباعه من استعمال السيف بقوله: "رد سيفك إلى مكانه؛ لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون". (متى ٢٦: ٥٢) وبقوله: "سمعتم أن قيل: عينٌ بعينٍ، وسنٌّ بسنٍّ، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا". (متى ٥: ٣٨، ٣٩).

أما مُحَمَّد ﷺ فقد حث أتباعه على استعمال السيف قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (الأنفال: ٦٥)، وهذه مغالطة ومناقضة، فهم لا

® في "الشفاعة وصلتها بمفهوم التواكل" طالع: الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

ينقلون عن المسيح قوله: "لا تظنُّوا أنِّي جئت لأُلقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنَّة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أبًا أو أمًّا أكثر منِّي فلا يستحقني". (متى ١٠: ٣٤: ٣٧).

"لكن المسيحية اضطرت في القرن الرابع - أي بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الإمبراطور قسطنطين - أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار؛ ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية، جعلت الحرب من وسائلها، فاتخذت الجيوش والأساطيل.. وهل يغيب عن ذاكرة أحد.. الحروب الصليبية أو ما ورد في الكتاب المقدس من أوامر بالقتل، والتدمير، والقهر، والاستئصال لسكان المدائن التي اختُصَّ بها بنو إسرائيل دون أهلها الأصليين"[1].

فكيف يلتقي هذا مع ما استدلوا به من ترك السيف؟! فإما أن يكون النصَّان متناقضين، وإما أن تكون تعاليم المسيح مثل تعاليم النبي ﷺ في هذا الأمر، وإن أخطئوا في تصويرها؛ فيكون العفو في موضعه، والقتال في موضعه، فإذا كان الأمر يقتضي قتالًا لعدوٍّ معتدٍ باطش جبار؛ فالعفو هنا تهاون وفتنة في الدين، ومهانة لدين الله وتابعيه، وإن كان العفو عند القدرة يقود إلى تذوق سماحة الإسلام؛ للانقياد له فهو عفو مطلوب.

لكن هذه المهانة والمذلَّة التي تَقَوَّلوها على السيد المسيح لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلًا عن نبي مرسل، فَمَنْ من العقلاء إذا لطمه شخص على خده حوَّل له خده الآخر، ليلطمه بدل اللطمة لطمتين؟! وهل يرضى مسيحي بهذا من مسيحي مثله فضلًا عمن يخالفه في الدِّين؟! هل عمل بهذا مسيحي في تاريخهم؟ كم لطموا الأبرياء بغير حق لطمات تلوثت بها أيديهم، وتلوثت بها صفحات التاريخ الذي كتب مآسيهم®.

الخلاصة:

- من أراد أن يفاضل بين اثنين مفاضلة صحيحة، فلا بد أن يفاضل بينهما في نصٍّ واحد، لا في نصين متباينين، فهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بنبيه، والإنجيل الذي بين أيديهم نحن لا نؤمن بأنه وحي من عند الله. وعبارة: "أني قلت إني ابن الله" مقابلة ومعارضة بتصريحات الأناجيل بأن عيسى عليه السلام ابن الإنسان، وعقلاء النصارى أنفسهم يعتقدون أن معتقد بني دينهم بأن الله ثلاثة - الأب، والابن، والروح - باطل؛ لأنه إله واحد.

- لم يفعل المسيح المعجزات استقلالًا، وإنما هي من فعل الله تعالى، أظهرها على يديه تصديقًا له، ونسبتها إليه نسبة مجازية، كما ينسب الشيء الواحد إلى أكثر من ذات، كما نسب التوفي إلى الله، وإلى ملك الموت.

---

1. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٨١، ١٨٢.

® في **"انتشار الإسلام بحد السيف"** طالع: الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١). وفي **"موقف الشرع الإسلامي من الاغتيال والإرهاب"** طالع: الشبهة السادسة، من الجزء الرابع عشر (العلاقات الدولية).

- إن الآيات التي امتنع الله من إرسالها ليس مطلق المعجزات التي تؤيد الرسول في صدقه ودعواه النبوة، ولكن المراد هنا الآيات التي يطلبها المشركون، ولقد أيّد الله محمدًا ﷺ بالمعجزات المبهرة، وأعظمها معجزة القرآن الكريم.
- إن الذي يعلم الغيب ويعلم ما في القلوب هو الله ﷻ علام الغيوب وحده دون غيره، وعيسى عليه السلام ليس إلهًا ولا ابن إله حتى يوحي إلى أحد. والنبي ﷺ لا يعلم الغيب - حقًّا - من تلقاء نفسه، ولا غيره من البشر، ولكن الله ﷻ أظهر لنبيه ﷺ من الغيب ما كان آية على صدقه، كإخباره ﷺ بعلامات الساعة، والتنبؤ بانتصار الروم وغيرهما.
- شفاعة عيسى عليه السلام في الخطايا تتعارض مع العقل والواقع النصراني؛ حيث إنها تحرِّض على ارتكاب كل الرذائل والمنكرات، بحيث لا تجدي مواعظ القساوسة في بني دينهم، والآية التي استدلوا بها على نفي شفاعة محمد ﷺ واردة في حقِّ المنافقين.
- ما نُسب ولُفِّق للمسيح عليه السلام من دعوة للسلم وإلقاء السيف في كل الأحوال مهانة ومذلة لا يرضاها ذو مروءة وكرامة فضلًا عن نبي مرسل، فالعفو يوضع في موضعه والقتال في موضعه، فإذا كان الأمر يقتضي قتالًا لعدوٍّ باطش فالعفو هنا تهاون، وفتنة في الدين، وتاريخ المسيحية المليء بالدم والحروب والمذابح خير شاهد - في الماضي والحاضر - على خطأ هذا التلفيق، وكذلك نصوص الكتاب المقدس التي تأمر صراحة بالقتل والإبادة والتدمير.

الشبهة الخامسة والتسعون

توهُّم وقوع النقص والخلل في القرآن الكريم؛ لعدم إشارته إلى كتب بعض الأنبياء والرسل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم كتاب ناقص - حاشا لله تعالى أن يكون كذلك - وبه خلل؛ حيث إنه لم يُشِر إلى كثير من كتب الأنبياء والرسل المذكورين فيه، والمقدَّر عددهم بخمسة وعشرين نبيًّا سوى داود، وموسى، وعيسى، وإبراهيم - عليهم السلام -. ثم ماذا عن عشرات الأنبياء الذين لم يتعرض القرآن الكريم إلى ذكر قصصهم ولا قصص أقوامهم من قريب أو بعيد؟ ويتساءلون قائلين: ألا يتناقض هذا النقص والخلل مع ما يدعيه المسلمون من إعجاز القرآن وكماله؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) إن القرآن الكريم سلك مسلك الإيجاز البليغ في قصِّ قصص بعض الأنبياء والرسل؛ لأخذ العبرة والأسوة الحسنة من حياتهم، فكان القصد الاعتبار بنهجهم في الدعوة، لا الإخبار بجميع الرسل وإحصاء كتبهم؛ لأنه أمر متعذر، فمن ذُكر يُغني عمن لم يُذكر.

٢) لا يُعاب القرآن الكريم في عدم تفصيله الحديث عن بعض الأنبياء وأممهم، فما ذُكِر فيه من قصصهم فيه الكفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.

(*) موقع جودت سعيد. www.jawdatsaid.net

التفصيل:

أولا. لقد سلك القرآن مسلك الإيجاز والاختصار في ذكر قصص بعض الأنبياء؛ لأن القصد من ذكرها أخذ العبرة والعظة:

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الأمر ليس موقوفًا على ما أتى به المعترضون، بل الأمر أبعد من ذلك، فنجد القرآن الكريم يقول: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ (النساء).

فهناك أنبياء ورسل لم يقصص الحق ﷻ خبرهم على نبيه ﷺ وليس في ذلك أي مطعن في القرآن الكريم؛ حيث إن الحق ﷻ أوجب على المسلمين الإيمان بهم على سبيل الإجمال، كما ينبئ عنه قوله ﷻ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) ﴾ (البقرة). أي ما قصَّه وما لم يقصَّه؛ فهناك من الأنبياء من آتاهم الله كتبًا كداود عليه السلام: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣). وإبراهيم وموسى عليهم السلام: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ (الأعلى). وعيسى عليه السلام: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) ﴾ (المائدة).

فالحق ﷻ لم يخبر نبيه عمَّا إذا كان قد آتى البعض الآخر كتبًا، أم لا؛ كيوسف، ويعقوب، وإسماعيل، وإسحاق، ويونس، وإلياس، واليسع - عليهم السلام - وليس في هذا ما يقدح في رسالتهم، فقد أخبر القرآن عن نهجهم في الحياة تجاه الدعوة وتوحيد الله ﷻ. ولا بد أن يفهم أن القرآن كتاب هداية، وأنه الأصل الأول للدين، وأنه لم يزعم أحد من قبل نبيًّا كان أو تابعًا له أنه جاء ليلخص لنا الديانات السابقة[1].

ثانيًا: القرآن لا يُعاب في عدم ذكره بعض الأنبياء، فما ذكره فيه الكفاية لتحصيل العِبْرة:

يقول الله تعالى في ذكره الحكيم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨). ويوضح لنا الشيخ الطاهر ابن عاشور - عند تفسيره هذه الآية - الحكمة من عدم ذكر جميع الأنبياء وقصصهم في القرآن الكريم قائلًا: "لقد بعث الله رسلًا وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله تعالى؛ لأن منهم من أعلم الله بهم نبيه ﷺ، ومنهم من لم يعمله بهم، إذ لا كمال في الإعلام بمن لم يعلمه بهم، والذين أعلمه بهم منهم من له قصة في القرآن، ومنهم من أعلمه بهم وحيٌ غير القرآن، فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين، فورد في الحديث: "أن نبيًّا لسَعَته نملة فأحرق قريتها فعُوتِب في ذلك"[2]، ولا يكاد الناس يحصون عددهم لتباعد

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، القاهرة، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٩ وما بعدها.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق (٢٨٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل (٥٩٨٦).

أزمانهم وتكاثر أممهم وتقاصي أقطارهم مما لا تحيط به علوم الناس، ولا تستطيع إحصاءه أقلام المؤرخين وأخبار القصّاصين، وقد حصل من العلم ببعضهم وبعض أممهم ما فيه كفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.

ولقد جاء في القرآن الكريم تسمية خمسة عشر رسولًا وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، ومحمد، واثنا عشر نبيًّا وهم: آدم، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وذو الكفل، وذو القرنين، ولقمان، وورد بالإجمال دون تسمية صاحب موسى المسمى في السنة الخضر، ونبي بني إسرائيل وهو صموئيل، وتُبّع.

وليس المسلمون مطالبين بأن يعلموا غير محمد ﷺ، ولكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بصريح وصف النبوّة يجب الإيمان بنبوتهم لمن قرأ الآيات التي ذكروا فيها، وعدّتهم خمسة وعشرون بين رسول ونبي، ولقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (الأنعام) على أسماء ثمانية عشر منهم، وذكر أسماء سبعة آخرين في آيات أخرى، ولا يجب الإيمان إلا بوقوع الرسالة والنبوة على الإجمال[1].

وهكذا نجد القرآن الكريم يعرض ظاهرة الأنبياء نموذجًا موحدًا، فهم يشتركون في خصائص معينة لا يجوز أن نفرق بينهم فيها. فمن هذا الجانب يفرض القرآن على أتباعه أن يؤمنوا بجميع الأنبياء في آيات عديدة، فمثلًا يقول الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ (البقرة).

ويقول ﷻ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ (البقرة).

ويقول الله ﷻ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (آل عمران).

ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

---

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج ١١، ج٢٤، ص٢١٠، ٢١١ بتصرف.

﴿لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ (النساء)[1].

الخلاصة:

- لقد سلك القرآن في ذكر قصص الأنبياء مسلك الإيجاز والاختصار؛ وذلك لأن الهدف منها أخذ العبرة والأسوة والاعتبار بنهجهم في الدعوة.
- وعلى هذا فقد أرسل الله رسلًا لا يعلم عددهم إلا الله، والمطلوب منا هو الإيمان بهؤلاء الرسل وعدم التفريق بينهم لأن منهم من قصَّ الله ﷻ قصته، ومنهم من لم يذكر الله ﷻ حكايته قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨)، وهذا من حكمة القرآن في الإرشاد فما كان فيه فائدة من ذِكْرِه ذَكَرَه، وما لم يكن لم يذكره.

الشبهة السادسة والتسعون

الزعم أن القرآن لا يُراعي الفوارق الزمنية بين الأنبياء والرسل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن لا يراعي الفوارق الزمنية بين الأنبياء ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام)، فأيوب بن أموص بن أسباط عيص بن إسحاق، ويتساءلون: أين أيوب من عصر إبراهيم وإسحاق والد إسرائيل - عليهم السلام - في أرض فلسطين؟ وأين أموص والد النبي أشعياء من أيوب؟

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ، فهو يركز على مواطن العبرة ليؤدي رسالته.

٢) كلام المفسرين والمؤرخين ليس حُجَّة؛ لأنه كلام بشر، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويُرَد إلا النبي ﷺ.

٣) الترتيب لا يكون في كل الأحوال ترتيبًا زمنيًّا فقط، فإذا دعت دواعي العبرة نظم بين بعض الوقائع المتفرقة والأسماء التي عاشت على مراحل متباعدة في سلك واحد، فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ:

فلا ينتظر منه أن يسرد تاريخًا ووقائع متتابعة، فهو يركز على مواطن العبرة ليؤدي رسالته، وهي هداية الناس؛ ولذلك حينما يلقي القرآن الضوء على الأنبياء، فإنه لا يلزم أن يذكرهم في تسلسل زمني، بقدر ما يلزم أن يصل إلى هدفه، وهو هداية الناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء). وبناءً على ذلك فإذا دعت دواعي العبرة نظم بعض الوقائع المتفرقة، والأسماء التي عاشت على فترات متباعدة في

١. الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.

(*) موقع المعرفة.

سلك واحد فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

ثانيًا. كلام المفسرين والمؤرخين ليس حجة؛ لأنه كلام بشر، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ:

كيف يذكر القرآن الأنبياء والرسل مرتبين ترتيبًا زمنيًّا وتاريخيًّا، وبعثتهم كانت متفرقة الزمان والمكان؟! فكان لكل نبي زمان معين، ومكان معين حسب مقتضى كل زمان ومكان وما يحتاجه، فالله ﷻ لم يبعثهم عبثًا، بل كان لكل نبي زمان، ولكل نبي مكان ابتعثه الله إلى أهل هذا المكان، فكيف يغفل القوم عن هذه النقطة ويطالبون القرآن بأن يذكرهم مراعيًا الفوارق الزمنية أو المكانية؟!

ولذلك فإن كلام البيضاوي لا يكون حجة على القرآن، وكذلك فإن القرآن حينما ذكر أيوب في جملة هؤلاء الأنبياء، لم يكن ذكره من أجل الإشارة إلى الناحية التاريخية أو الزمنية، بقدر ما كان يفيد المقصد والهدف القرآني من خلال ذكر هؤلاء الأنبياء، لبيان فضلهم للناس، وشرف أصلهم كما ورد في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أنه حال. وفائدة الحال التنويه بهؤلاء المعدودين بشرف أصلهم وبأصل فضلهم، والتنويه بإبراهيم أو بنوح بفضائل ذريته، والضمير المضاف إليه عائد إلى نوح لا إلى إبراهيم؛ لأن نوحًا أقرب مذكور[1]. وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم كان يقصد ذكرهم من جملة شرفهم؛ لأنه لما ذَكَر سبحانه إنعامه على خليله من جهة الفرع، ثنّى بذكر إنعامه عليه من جهة الأصل، فإن شرف الوالد سارٍ إلى الولد[2]. ولا يلزم ذلك أن ذكرهم مرتبين ترتيبًا زمنيًّا وتاريخيًّا، بل يَذكر ما يفيد المقام.

ثالثًا. الله ﷻ لم يبعث الأنبياء عبثًا، بل كان لكل نبي زمان ومكان:

العطف في الآية موطن الشاهد عند المتوهمين بالواو، وهي لا تفيد الترتيب، كما أن الترتيب لا يكون في كل الأحوال ترتيبًا زمنيًّا فقط، ولكنه قد يكون ترتيبًا في الفضل، وقد يكون ترتيبًا في الخصائص، والمزايا التي أكرم الله بها أنبياءه ورسله، وقد لمس هذا المعنى الإمام الرازي في تفسيره فقال: عندي فيه وجه من وجوه الترتيب؛ وذلك لأنه ﷻ خصَّ كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل.

فأول المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق: الملك، والسلطان، والقدرة، والله ﷻ قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيبًا عظيمًا.

المرتبة الثانية: البلاء الشديد والمحنة العظيمة، وقد خصَّ الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية.

المرتبة الثالثة: من كان مستجمعًا لهاتين الحالتين، وهو يوسف عليه السلام فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر.

المرتبة الرابعة: من فضائل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين، والمهابة العظيمة... وتخصيص الله ﷻ إياهم بالتقريب العظيم، والتكريم التام، وذلك كان في حق موسى وهارون عليهما السلام.

---

١. التفسير الوسيط، د. سيد طنطاوي، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ج٥، ص١٦٣.

٢. روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

المرتبة الخامسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس - عليهم السلام -، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين.

المرتبة السادسة: الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع، وهم: إسماعيل واليسع ويونس ولوط - عليهم السلام -.

فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - بحسب هذا الوجه الذي شرحناه[1].

الخلاصة:

- إن ما جاء في القرآن الكريم من قصص ووقائع حقٌّ لا ريب فيه، ومطابقة أخبار القرآن الكريم للواقع - أيًّا كان هذا الواقع - ماضيًا أو مستقبلًا حقٌّ لا ريب فيه، ولقد توصّل العقلاء والعلماء عن طريق مناهج البحث العلمي الصحيحة إلى أن ما جاء في القرآن الكريم من تاريخ وأخبار؛ مطابق للواقع وذلك خير دليل على صدقه.
- إن القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب تاريخ، وبناء على ذلك، فإذا دعت دواعي العبرة نظم بعض الوقائع المتفرقة والأسماء التي عاشت في فترات متباعدة في سلك واحد، فإن هذا يحقق الهدف القرآني.

١. انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، مرجع سابق، عند تفسير الآية.

الشبهة السابعة والتسعون

الزعم أنه لا حكمة من إرسال الرسل والأنبياء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أنه ليس هناك حكمة تُلمس من اختيار الرسل، كما أنه لا فائدة من إرسالهم، ويستدلون على ذلك بأن الله ﷻ قد خلق البشر على الفطرة السمحاء السليمة، كما أنه سوَّى بين البشر في كل شيء، ويتساءلون: ما الحكمة من إرسال الرسل؟! وعلى أي أساس تم اختيارهم؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الله ﷻ حكيم في أفعاله خبير باختياره، فلا يعقل أن تنفي الحكمة من إرسال الرسل؛ لأنها واضحة جلية لكل ذي بصيرة، فضلًا عن أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

٢) الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ ذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، كما أن هناك بعض الأمور الغيبية التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي.

٣) الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده؛ لذلك كانوا من البشر، إذ إن السفير لا بد أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه.

٤) اقتضت حكمة الباري ﷺ أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، والرسل الأخيار؛ ليقطع على الناس معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله

(*) أسئلة بلا أجوبة، موقع نادي الفكر.
www.nadyelfiker.net

يوم القيامة، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهام جسيمة.

٥) الرسل لم يركنوا إلى اختيار الله لهم فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميادين الجهاد والعمل والخير، فكانوا منارات الهدى وأعلام الاقتداء.

التفصيل:

أولا. الله ﷻ حكيم في أفعاله خبير باختياره، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء)، **وقال ﷻ:** ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨)**:**

إن أفعال الله ﷻ وتدابيره في خلقه لا تخلو من حكمة، فهو الحكيم الخبير بشأن الرسل والرسالات؛ قال ردًّا على المعترضين على مثل ذلك: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (الأنعام). وعدم إدراكنا للحكمة لا ينفيها، ومهام النبوة والرسالة لا يقوم بها إلا أفذاذ الرجال، فمن خلال استقراء سيرهم، ومعرفة قصص كفاحهم وجهادهم نجد الواحد منهم جاهد وأوذي فصبر واحتمل، فعند النظر إلى كل نبي مرسل نجد أنه بعد إعلان الحق بمفرده، يعلنها كلمة مدوية على الملأ، والكل ضده يناصبه العداء، فلا يلين ولا يضعف، ولا يتراجع عن دعوته.

وإذا كان الله قد اختار رسله، واجتباهم فليس اختياره ﷻ اختيارًا عشوائيًّا ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكنه اختيار حكيم، فهم وحدهم المؤهلون لحمل هذه المهام الجسام، والله تبارك وتعالى يصطفيهم، ويقيهم ويعدهم الإعداد الروحي والعقلي، والنفسي، والجسدي، والخلقي، الذي يتناسب مع المهام التي تنتظرهم، قال الله تبارك وتعالى في حق نبيه موسى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ (طه). وقال: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه). وقال ﷻ: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (ص).

ثانيًا. الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ ذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، ولا لمعرفة بعض الأمور الغيبية:

لم تخل أمة ذات شأن من رسالة كما قال: ﷻ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر). ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النحل).

والرسالات ضرورية للبشر، لا يغني عنها العقل؛ ذلك أن العقل وحده لا يستطيع أن يلم بكل حاجات الإنسان في حياته، فطاقته على الرغم من قوتها ضعيفة، ومجاله على الرغم من اتساعه محدود، وهو لا يملك من القوة ما يستطيع أن يكبح به جماح الشهوات، أو يصمد

أمام المغريات، وإلى جانب قصوره وضعفه لا يعلم ما سلف به الدهر، ولا ما يخبئه المستقبل، بل لا يستطيع أن يحدد ما يخفيه الغيب الذي ليس له وسيلة إلا السمع والوحي الذي يحمله الرسل.

ومن هنا كانت الرسالة رحمة لجميع بني الإنسان، تكمل نقصهم، وتقوي ضعفهم، وتصحح مفاهيمهم. وهؤلاء الرسل الذين اختارهم الله لهداية الخلق هم الصفوة الممتازة من عباده، كما قال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الحج). وقال بعد ذكر الجماعة من الأنبياء: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ (ص).

وكان الرسل مصطفين أخيارًا؛ لأنهم حملة أكرم رسالة، ولا يليق بأكرم الرسالات إلا أكرم البشر، ولأنهم في مقام القادة الهداة، ولا يتصدر القوم إلا أكملهم وأرفعهم في هذه المهمة بالذات، ومن هنا قال العلماء: يجب أن يتصف الرسل بأربع صفات أساسية هي: الصدق والأمانة والتبليغ والفطنة.

لا بد للرسل أن يكونوا صادقين، في دعوى الرسالة، وفيما يبلغون، وليس أدل على صدقهم من تأييد الله لهم بالمعجزات التي هي بمثابة قوله ﷻ: "صدق عبدي فيما يبلغ عني"، ولو جاز عليهم الكذب، لكان تأييد الله لهم عبثًا وهو منزه عن ذلك، ولكان هناك تناقض مع حكمة إرسالهم وهو الهداية إلى الخير، والتناقض في أفعال الله محال. ومع صدق الرسل فهم أمناء ملتزمون بأوامر الله سبحانه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولو لم يكونوا كذلك لسلب الله عنهم شرف الاصطفاء الذي ما كان ليعطيهم إياه لولا علمه بجدارتهم وأهليتهم له، وقد أجمع العلماء على عصمة الرسل الكرام من الزيغ في العقيدة، والانحراف عن الفطرة السوية، حتى قبل أن يحظوا بشرف الرسالة، كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنبياء).

ولا تقع منهم كبيرة حتى لا تهتز ثقة الناس بهم، بل ونجلهم عن الصغائر التي لا تليق بمقامهم، فقربهم من الله يجعل مقاييس سلوكهم أشد دقة وأقوى ضبطًا، وما كان من تصرف يغيب ظاهره عن إدراك حكمته فهو من باب "حسنات الأبرار سيئات المقربين"[1].

ثالثًا. الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده؛ لذلك كانوا من البشر، حيث إن السفير لا بد أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه:

لو كان الرسل من الملائكة لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم، ولكان للناس حجة في عدم الاتباع للرسل، وهو أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا، وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا. ليسوا بشرًا إنما هم ملائكة، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خُلُقًا، وأطهر منا عملًا، وأكرم مقامًا؛ لأن الملائكة الأطهار- كما أخبر عنهم رب العزة -: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التحريم)، وأنهم دائمًا في عبادة لا ينقطعون عنها أبدًا: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأنبياء).

---

1. المصطفون الأخيار، عطية صقر، مرجع سابق، ص٨، ٩.

ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية؛ لأنهم عباد مكرمون. ومن ناحية أخرى لو كان الرسول الذي يبعث إلى الخلق مَلَكًا ما استطاع البشر أن يأخذوا عنه، أو يجتمعوا به؛ لأنه إن جاءهم بصورة ملكية فزعوا وصُعِقوا وولوا الأدبار هربًا وفزعًا منه؛ لأنهم لم يعهدوا مثل هذه الصورة، ولم يروا مثل هذا الخَلْق العظيم.

وجاء أن رسول الله ﷺ قال: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جاءني على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فأنزل ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾﴾ (المدثر)"[1]. ولو جاءهم بصورة بشرية ـ أي: تمثَّل لهم الملك بصورة إنسان ـ لشكّوا في أمره، والتبس عليهم الحال، هل هو ملك أو هو بشر؟

وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام).

ومعنى الآية الكريمة: لو جعلنا النبي ملكًا كما اقترحوا لجعلناه في صورة رجل من البشر، ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذٍ يلتبس عليهم الأمر، هل هو ملك أو بشر؟ فيشكون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة. قال العلامة القرطبي في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾، أي أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ﷻ الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ: إنه بشر، وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون على الناس بهذا الشك ويشككونهم، فأعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللبس ـ الشك ـ كما يفعلون[2].

وقد ذكر ﷻ في آية كريمة أخرى الحكمة من كون النبي من البشر، لا من الملائكة؛ وذلك أن المرسل ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم. فلو كان الذين يسكنون الأرض من الملائكة لبعث الله إليهم نبيا ملكًا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بدء الوحي على رسول الله ﷺ (٤٢٥)، واللفظ للبخاري.

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٣، ٣٩٤.

إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)﴾ (الإسراء)[1].

رابعًا. اقتضت حكمة الباري ﷻ أن يبعث إلى الخلائق الأنبياء الكرام، والرسل الأخيار؛ ليقطع على الناس معاذيرهم، ولئلا يبقى لإنسان حجة عند الله يوم القيامة:

لهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهمات جسيمة، وهي كما وضحها القرآن ما يلي:

١. **دعوة الخلق إلى عبادة الواحد القهار:** وهذه - في الحقيقة - هي الوظيفة الأساسية، بل هي المهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق والإيمان بوحدانيته، وتخصيص العبادة له دون سواه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ (الأنبياء)، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل: ٣٦).

٢. **تبليغ أوامر الله ﷻ ونواهيه إلى البشر:** فالأوامر الإلهية لا بد لها من مُبلِّغ، ولا بد أن يكون هذا المبلِّغ من البشر ليمكن الأخذ عنه، ولهذا فقد اختار الله ﷻ الرسل من البشر، للحكمة السابقة التي ذكرناها، وقد أدى الرسل الكرام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه، فلم يتأخر واحد منهم عن تبليغ دعوة الله، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ (الأحزاب).

وقد جعل الله تعالى علامة الرسول تبليغ الرسالة، وخاطب سيد الأنبياء بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ (المائدة).

٣. **هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم:** وهذه الوظيفة مهمة كل رسول، كما قال الله تبارك وتعالى في شأن نبيه موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾ (إبراهيم).

وكما قال في شأن خاتم الرسل عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)﴾ (الأحزاب).

٤. **ليكون الرسل قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر:** فالرسل الكرام - عليهم من الله أفضل الصلاة والتسليم - هم القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لجميع البشر، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بهم، والسير على منهاجهم، وجعلهم نماذج للكمال، وعنوانًا للفضل؛ لأنهم أكمل الناس عقلًا وأطهرهم سلوكًا، وأشرفهم رتبة ومنزلة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ (الأحزاب)، وقال ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٩: ٢١.

﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠).

٥. **التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال:** قال الله ﷻ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (الأنعام).

٦. **تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية:** فلقد بعث الله الرسل الكرام؛ ليحولوا أنظار البشر من هذه الحياة الزائلة إلى تلك الحياة الباقية الخالدة وهي الدار الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأنعام)، وكما قال جل ثناؤه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحديد).

٧. **إقامة الحجة على الخلق:** فلا يبقى لإنسان حجة عند الله، كما قال ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥)[1].

لقد أثّر الأنبياء والرسل في المجتمعات التي ولدوا فيها، والأمم التي بُعثوا إليها، ونتج عن هذا التأثير تغيير في مفاهيم هذه الأمم وعقائدهم التي نُشِّئوا عليها، فقد انتقلوا بهم من الظلمات إلى النور، وأخرجوهم من الضلالة إلى الهدى. فكانت دعوة الأنبياء إنقاذًا للأمم من براثن الشرك والفوضى والاضطراب.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (البقرة).

فأشارت هذه الآية إلى أن الناس كانوا على الهدى وعلى دين الحق، ولكنهم اختلفوا وتنازعوا وأفسدوا في الأرض، وحادوا عن الطريق القويم، فبعث الله تعالى لهم النبيين مبشرين ومنذرين، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق. فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة"[2].

وأوضح الله ﷻ الغاية من بعثة الرسل، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

كما جعل كل رسول منقذًا لقومه من ظلمات الجهل والضلالة فقال الله جلت عظمته: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ

---

١. المرجع السابق، ص٢٣: ٢٥.

٢. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم عسق (٣٦٥٣)، وصحح الحاكم إسناده وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ (إبراهيم)[1]. لقد أرسل الله رسلًا حدد مهمتهم، وبيَّن حكمة إرسالهم في قوله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ (النساء).

خامسًا. الرسل لم يركنوا إلى اختيار الله لهم فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميادين الجهاد والعمل والخير:

إن الرسل - عليهم السلام - لم يركنوا إلى أن الله تعالى اختارهم من بين خلقه فعمدوا إلى الراحة والاسترخاء، ولكنهم ضربوا المثل الأعلى في كل ميدان من ميادين الجهاد والعمل والخير، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ (الأنبياء).

والله ﷻ لم يهبهم النبوة محاباة أو مجاملة، ولكنه حمَّلهم من الأمانة والأعباء ما لا يقوم به إلا أمثالهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ (الأنبياء). ووضعهم الله تبارك وتعالى - جميعًا - أمام مسئولياتهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ (الأنبياء).

وهم يخضعون للحساب والمساءلة كغيرهم من البشر: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ (الأعراف).

ونقول لهؤلاء: لو اختار قائد الجيش عددًا من ضباطه وجنوده لمهام قتالية متميزة، لِمَا وجد فيهم من حُسْن السيرة، واللياقة البدنية، ودفع بهم إلى مراكز التدريب ليزدادوا كفاءة على كفاءتهم، أكان لبقية الجند أن يحتجوا على ذلك؟! وصدق الله إذ يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ (الأنبياء).

الخلاصة:

- أفعال الله ﷻ واختياراته لا تخلو من حكمة، فهو ﷻ الحكيم الخبير، وعدم إدراكنا للحكمة لا ينفيها.
- الإنسانية في حاجة إلى الرسل والرسالات؛ وذلك لأن العقل البشري وحده لا يكفي للتفريق بين الخير والشر، كما أن هناك بعض الأمور الغيبية التي لا يمكن أن يعرفها الإنسان إلا بالوحي أو عن طريق الشرع: كالإيمان بالله، وبصفاته العليّة، والإيمان بالملائكة؛ لذلك لم تخلُ أمة ذات شأن من رسالة، ومن هنا كانت الرسالة رحمة بالإنسان.
- الأنبياء والرسل هم السفراء بين الله وبين عباده، ولا بد للسفير أن يكون ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه، ولو كان الرسل من غير البشر لما استطاعوا أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا بهم.
- اقتضت حكمة الباري ﷻ أن يبعث إلى الخلائق رسلًا أخيارًا، ليقطع على الناس معاذيرهم، ولهؤلاء الرسل وظائف جليلة ومهمات

1. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٢٧.

جسيمة منها:

- دعوة الخلق إلى عبادة الواحد القهار.
- تبليغ أوامر الله ﷻ ونواهيه إلى البشر.
- هداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم.
- أن يكونوا قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر.
- التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال.
- تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية.
- إقامة الحجة على الخلق فلا يبقى لإنسان حجة عند الله.
- تغيير مفاهيم الأمم الباطلة، وعقائدهم الفاسدة التي نشئوا عليها.
- الأنبياء والرسل ضربوا المثل الأعلى في كل ميدان من ميادين الجهاد والعمل والخير، كما أنهم يخضعون للحساب والمساءلة كغيرهم من الناس.

الشبهة الثامنة والتسعون

ادعاء تناقض القرآن حول تفضيل بعض الرسل على بعض(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن في القرآن الكريم تناقضًا حول مسألة تفضيل بعض الرسل الكرام على بعض، مستدلين على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣). وقوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥). كما يزعمون أن المسلمين يتعصبون لنبيهم، ويفرقون بينه وبين سائر الأنبياء، ويستدلون على ذلك بقول المسلمين عن أي نبي غير نبيهم: عليه السلام، ويقولون عن نبيهم: صلى الله عليه وسلم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا تناقض بين آيات القرآن الكريم؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين التفضيل بين الأنبياء والتفريق بينهم، فالتفاضل بين الأنبياء جائز؛ لأنهم متفاوتون في درجاتهم وقربهم من الله، أما التفريق فيعني الإيمان ببعضهم دون بعض.

٢) لقد جعل الله الأنبياء درجات، وفضل بعضهم على بعض، وحق التفضيل هذا له وحده لا للمسلمين ولا لغيرهم.

٣) المسلمون لا يتعصبون لنبيهم ﷺ، ولكنهم يفضلون من فضله الله تعالى، وصيغة الصلاة والسلام على النبي إنما هي امتثال لأمر الله تعالى، ولم يبتدعها المسلمون من عند أنفسهم.

التفصيل:

أولا. لا تناقض بين آيات القرآن الكريم؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين التفضيل بين الأنبياء والتفريق بينهم:

إن المتأمل قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقوله ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

(*) بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

﴿رُسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) لا يجد هذا التناقض الذي يدعيه هؤلاء، فقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إخبار أن الله ﷻ فضل بعض النبيين على بعض، فالتفضيل من الله وليس من غيره، فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ استئناف مشعر بالترقي: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأن خصصنا بعضهم بمنقبة ليست لبعضهم الآخر.

وقيل: المراد التفضيل بالشرائع، فمنهم من شَرَّع ومنهم من لم يُشرِّع، وقيل: هو تفضيل بالدرجات الأخروية، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفصيل للتفضيل المذكور، وهذا التفضيل كان لموسى عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: ومنهم من رفعه الله ﷻ على غيره من الرسل بمراتب متباعدة ومن وجوه متعددة، وتغيير الأسلوب لترتيب ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف.

إذن فهناك تفاوت بين الرسل - عليهم السلام - كتفاوتهم في قدمهم في الجهاد، والصبر على المحن والبلاء، ومتفاوتون في أعمارهم التي أفنوها في سبيل الله تعالى، فالتفضيل حسب جهد كل واحد منهم، وجهاده في الدعوة إلى دين الله، وتحمل المشاق والبلاء في سبيلها، كأولي العزم من الرسل، وليس التفضيل محاباة من الله ﷻ لأحد.

إذن فقد شاء الله ﷻ أن يكون الرسل والأنبياء الذين بعثهم على مر العصور متفاوتين في درجاتهم وقربهم من الله ﷻ.. والجامع المشترك بينهم أنهم جميعًا مؤيدون بالوحي من الله ﷻ، وأن على الناس أن يؤمنوا بهم جميعًا، أي: أن يؤمنوا بأنهم رسل أرسلوا إلى أقوامهم، وأنهم جميعًا بعثوا بعقيدة واحدة[1].

أما قوله ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فإن المراد بالتفريق بين الرسل هنا هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب - اليهود والنصارى - حيث آمنوا برسالة بعض الأنبياء، وكفروا برسالة آخرين، ففرقوا بين الرسل، وقد وضح الله ﷻ هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)﴾ (النساء)[2].

إذن فليس المراد من النهي عن التفريق بين الرسل في القرآن هو النهي عن التفضيل بينهم؛ لأنه هناك فرق كبير بين التفريق بين الرسل والتفضيل بينهم؛ وعليه فيجوز التفضيل بين الأنبياء، ولكن لا يجوز بحال من الأحوال التفريق بينهم في الإسلام®.

ثانيًا. لقد جعل الله الأنبياء درجات، وفضل بعضهم على بعض، وحق التفضيل هذا لله وحده:

إن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله،

١. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٢٢.

٢. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص١٨ بتصرف.

® في "شمول إيمان المسلمين لجميع الأنبياء" طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

وليست بمعلومة عند البشر، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلًا، وهذا مفضولًا، لا العلم ببعضها، أو بأكثرها، أو بأقلها، فإن ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا في القرآن إخبارنا بأن الله فضل بعض أنبيائه على بعض - لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفاضلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؛ حيث يقول النبي ﷺ: "لا تفضلوا بين أنبياء الله".[1]

وجاء أن عفريتًا تفلَّت على النبي ﷺ ليقطع عليه الصلاة، وبعد زجره عِدَّة مرات أمكنه الله منه، وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى ينظر إليه جميع الصحابة، فقال: "ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ﴾ (ص:٣٥).[2] وقال ﷺ: "لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى"[3]. والقرآن يخبر أن الله فضل بعض الأنبياء على بعض، ويبين أن الإيمان بهم يكون بلا تفضيل؛ لأنهم جميعًا أنبياء الله ﷻ.

على أننا نريد أن ننبه أن نهي النبي ﷺ أصحابه ﷺ والمسلمين من بعدهم عن التفضيل بين الأنبياء في هذه الأحاديث، إنما هو التفضيل القائم على الحَمِيَّة والعصبية والانتقاص، أو التفضيل الذي يمكن أن يؤدي إلى خصومة أو فتنة بين المسلمين وأهل الكتاب، وعليه فهذا النهي ليس مطلقًا ولا يتعارض مع آيات القرآن التي جاء فيها ذكر لتفضيل بعض الأنبياء على بعض، فمن الثابت أن هؤلاء الأنبياء الأطهار ليسوا بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، وقد جعلهم الله ﷻ درجات، فأفضل الرسل هم أولو العزم، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - فمنهم من فُضِّل بتكليم الله مباشرة؛ مثل موسى عليه السلام على جبل الطور، ومحمد ﷺ في ليلة المعراج، قال الله ﷻ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

قال المفسرون: أراد تعالى بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ محمدًا ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، أي: العرب والعجم، وظهرت على يديه المعجزات الكثيرة، وأُحِلَّت له الغنائم، ولم تُحَلَّ لأحد قبله، وليس أحد من الأنبياء أُعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعطي محمد ﷺ مثلها. ومن فضائله: أن الله ﷻ خاطب الأنبياء بأسمائهم مثل: يا آدم، ويا نوح، ويا إبراهيم، ويا موسى، ويا عيسى، وخاطب نبينا بالنبوة والرسالة في كلامه القديم، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (الصافات) (٣٢٣٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٦٣٠٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يُربط في المسجد (٤٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٧).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ (طه) (٣٢١٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر يونس عليه السلام (٦٣١٠).

﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وأمر الله المؤمنين بمخاطبته بوصف الرسالة في قوله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣)[1].

وورد في القرآن الكريم جملة أخبار تبين عظم قدر النبي ﷺ وشريف منزلته وتفضيله على بقية الأنبياء، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران).

قال أبو الحسن القابسي: اختص الله تعالى محمدًا ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به وهو ما ذكره في هذه الآية. قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًّا إلا ذكر له محمدًا ﷺ ونعته، وأخذ عليه ميثاقه: إن أدركه ليؤمنن به.

إن آيات كثيرة تضمنت فضل النبي ﷺ وفضائله من وجوه متعددة، منها قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب).

ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ (النساء).

قال عمر رضي الله عنه في كلام أبكى به النبي ﷺ: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ (الأحزاب).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودُّون أن يكونوا أطاعوك، وهم بين أطباقها يعذبون: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ (الأحزاب)، أي: فلم يصبنا هذا العذاب. تمنوا حيث لا ينفعهم التمني من جميع الأبواب[2]. قال أبو الليث السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا محمد ﷺ؛ لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم بعثًا.

والمعنى: أخذ الله ﷻ عليهم الميثاق إذ أخرجهم من ظهر آدم كالذَّرِّ[3] بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويتبعوه.

دلت هذه النصوص القرآنية الكريمة على تفضيل النبي محمد ﷺ على جميع الأنبياء، وإن كان متأخرًا عنهم في الزمان، ويؤكدها أحاديث؛ منها: ما جاء عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن الله ﷻ

---

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٨.

٢. المرجع السابق، ص٤٩، ٥٠.

٣. الذَّر: هو صغار النمل.

فضلني على الأنبياء"[1].

ثالثًا. المسلمون لا يتعصبون لنبيهم، ولكنهم يفضلون من فضله الله:

المسلمون ينقلون بأمانة عن الله عز وجل فهم شهداء على الأمم، وحينما يذكرون أحدًا بالفضل، فليس ذلك راجعًا لأنفسهم وأهوائهم، ولكنهم يفضِّلون من فضله الله.

فالمسلمون لا يتعصبون لمحمد ﷺ ولكنهم ينقلون ما خصه الله تعالى به، وعندما يذكرونه بالفضل فما ذلك إلا لأن الله تعالى هو الذي فضَّله، وخصه بما لم يخص به أحدًا من خلقه: لا من الرسل ولا من الملائكة ولا غيرهم، والله تبارك وتعالى يقول عن أنبيائه الكرام: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النمل)، وقال عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الصافات)، وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (النمل)، وقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ (الصافات). فاكتفى الله سبحانه بالسلام على المرسلين فقط.

أما عن نبينا محمد ﷺ فقد قال الله تبارك وتعالى في حقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ (الأحزاب)، والمسلمون لم يغيروا ولم يعدلوا، ولم يزيدوا ولم ينقصوا عما شرعه الله عز وجل.

وعليه فهم حينما يقولون عن أي نبي غير النبي محمد: عليه السلام، وحينما يقولون عنه: ﷺ، إنما يمتثلون لأمر الله تعالى لهم. والنبي ﷺ جدير بكل تكريم، وأهل لكل تفضيل، فمن مثله جاهد؟ ومن تحمل من الأعباء مثلما تحمل؟ ومن خاطب الأمم كلها كما خاطب؟ ومن عمَّ خيره ونفعه العالمين مثله؟ ومن أحدث تحوُّلًا في البشرية كلها كما فعل؟

فإذا نال النبي ﷺ من ربه من الفضل ما لم ينله غيره؛ فلأنه كُلِّف بما لم يُكلَّف به غيره، أو تجمَّل بالأخلاق الجامعة بما تفرق في غيره، ثم إنَّ الله عز وجل وضعه أمام مسئولياته، وسأله عن كل ما كلَّفه به، وهكذا فما من تشريف، إلا وهو مصحوب بتكليف.

الخلاصة:

- الإيمان بالرسل جميعًا واجب على المسلم؛ إذ لا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهم جميعًا بدون تفرقة، فمن آمن ببعضهم وكفر ببعضهم، فقد كفر بالله عز وجل، ومن آمن بهم جميعًا إلا عيسى، أو موسى، أو محمد ﷺ، فهو كافر أيضًا، وأما التفضيل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فهذا التفضيل خاص بالله تعالى، وليس لنا ـ نحن البشر ـ أن نفرق بينهم، إنما الواجب علينا أن نؤمن بهم جميعًا، لا نفرق بين أحد منهم.
- المسلمون لا يتعصبون لمحمد ﷺ ولكنهم ينقلون ما خصَّه الله عز وجل به، وعندما يذكرونه بالفضل، فما ذلك إلا لأن الله عز وجل هو الذي فضله وخصَّه، بما لم يخص به أحدًا من خلقه، لا من الرسل ولا من الملائكة ولا غيرهم، والله تعالى قال عن أنبيائه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

---

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٥٧) برقم (٨٠٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٠).

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ (النمل: ٥٩)، وقال عن نبيه محمد: ﷺ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب)

الشبهة التاسعة والتسعون

ادعاء أن الرسل ينبغي ألا يأكلوا أو يتزوَّجوا؛ لأن هذا نقص في حقهم(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن الأنبياء ليس لهم أن يكونوا من البشر العاديين الذين يأكلون ويتزوجون ويتناسلون؛ لأن ذلك يمثل هبوطًا وسقوطًا يشينهم، هادفين من وراء ذلك إلى نفي النبوة عن البشر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أهلية البشر لتحمل الرسالة الإلهية أمر أثبتته التجربة العملية والتاريخ الإنساني.

٢) أرسل الله إلى خلقه رسلًا من جنسهم؛ حتى تتحقق القدوة والأخذ عنهم؛ لأن في المخالفة ذريعة للناس في ألا يقتدوا بهم، متعللين بأنهم ليسوا من جنسهم، ولا يقوون على ما يقوى عليه هؤلاء الأنبياء.

٣) مقتضى بشرية الأنبياء والرسل تجعلهم: يأكلون ويشربون ويتزوجون ويولد لهم، ويتعرضون للبلاء، و يشتغلون بأعمال البشر.

٤) لا تعد تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تُلَبّى في غير الحلال.

التفصيل:

أولا. أهلية البشر لتحمل الرسالة الإلهية:

إن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله وكرَّمه على سائر المخلوقات؛ قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء)، وكرمنا تعني: جعلنا لهم كرمًا؛ أي: شرفًا وفضلًا، وهذه الكرامة يدخل فيها خَلْقُهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة. وقيل: كرَّمهم بالنطق والتمييز. وقيل: بتسليطهم على الخلق وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط، وقيل: بالفهم.

والصحيح الذي يعوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس ومثال العقل العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء[1].

وشاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف: ١١٠)، أما الذين يستعظمون

(*) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

® في "حكمة الله في بعثه بشرًا رسلا" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد إليها).

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ص٢٩٤.

ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمل الرسالة فلا يقدرون الإنسان قدره؛ فالإنسان مؤهل لتحمل الأمانة العظمى، التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حملها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب).

وهؤلاء الذين استعظموا اختيار الله البشر رسلًا، نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان، نظروا إليه على أنه جسد: يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ (الفرقان)، ولم ينظروا إلى جوهره وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر)، وبهذه الروح تميز الإنسان، وصار إنسانًا، واستُخلِف في الأرض، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته، فلا عجب أن يختار الله واحدًا من هذا الجنس، صاحب استعداد للتلقي، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلما غام عليهم الطريق، وما يقدم به إليهم العون كلما كانوا بحاجة إلى العون: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم).

ثم إن الأنبياء والرسل يُعَدُّون إعدادًا خاصًا؛ لتحمل النبوة والرسالة، ويُصنعون صنعًا فريدًا: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ (طه)، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ، كيف رعاه وأحاطه بعنايته على الرغم من يُتْمِه وفقره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (الضحى)، وقد زكّاه وطهّره، وأذهب عنه رجس الشيطان، وأخرج منه حظ الشيطان منذ كان صغيرًا، فعن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصَرَعَه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت[1] من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظِئْرَه[2] - فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو مُنْتَقِع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المَخِيط في صدره[3].

وحدث قريب من هذا عندما جاء جبريل عليه السلام يُهيِّئه للرحلة الكبرى للعروج به إلى السماوات العُلَا، ففي حديث الإسراء: "فُرِّج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام؛ ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه"[4][5].

---

١. الطَّسْت: إناء كبير مستدير مصنوع من نحاس وغيره.

٢. الظِّئْر: المرضعة غير ولدها، ويقع على الرجل والمرأة.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٣١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلوات، باب كيف فرضت الصلوت في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (٤٣٣).

٥. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٣: ٦٥.

ثانيًا. أرسل الله ﷻ الرسل إلى خلقه مَنْ جنسهم حتى تتحقق القدوة والأخذ عنهم:

لقد كثر اعتراض أعداء الرسل على بعثتهم من البشر، وكان هذا الأمر من أعظم ما صدّ الناس عن الإيمان: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (الإسراء)، وعدّوا اتباع الرسل بسبب كونهم بشرًا فيما جاءوا به من عقائد وشرائع أمرًا قبيحًا، وعدُّوه خسرانًا مبينًا: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (المؤمنون). ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (القمر)[1].

وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يُبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يُبعث مع الرسول البشري رسول من الملائكة: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (الإسراء)، ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الفرقان).

وعندما نتأمل النصوص القرآنية، يمكننا أن نرد عليهم من أربعة وجوه هي:

١. أن الله اختارهم بشرًا لا ملائكة؛ لأنه أعظم في الابتلاء والاختيار؛ ففي الحديث القدسي: "إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك"[2].

١. المرجع السابق، ص٦٥.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٧٣٨٦).

٢. أن في هذا إكرامًا لمن سبقت لهم منه الحسنى، فإن اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلًا تكريمًا وتفضيلًا لهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ (مريم).

٣. أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الذين يصلحون قدوة وأسوة، يقول سيد قطب في هذا: "وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم... ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم ويقدِّر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم؛ لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق، وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة؛ لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرًا سطرًا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتهفوا نفوسهم إلى تقليدها؛ لأنها ممثلة في إنسان"[3].

٣. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٥: ٦٧.

ولو كان الرسل من الملائكة، ما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم أو يجتمعوا، ولكان للناس حجة في عدم اتباع الرسل أن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا وأُمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا.. ليسوا بشرًا إنما هم ملائكة، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلقًا، وأطهر منا عملًا وأكرم مقامًا؛ لأن الملائكة أطهار كما أخبر عنهم رب العزة ﷻ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم)، وأنهم دائمًا في عبادة لا ينقطعون عنها أبدًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنبياء)، ثم إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، وليس فيهم شهوة أو ميل إلى المعصية؛ لأنهم عباد مكرمون.. ولما كان الغرض من بعثة الأنبياء أن يكونوا سفراء بين الله وعباده حتى يبلغوا مراده إليهم، كان لا بد أن يكون السفير ممن يمكن الاجتماع به والأخذ عنه، وأن يكون قدوة للبشر في سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، ولا يكون ذلك إلا ممن اتحد معهم في الخصائص والصفات[1].

٤. صعوبة رؤية الملائكة، فالكفار عندما يقترحون رؤية الملائكة، وأن يكون الرسل إليهم ملائكة لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس سهلًا، الرسول ﷺ مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية وكذلك النفسية، عندما رأى جبريل عليه السلام على صورته أصابه هول عظيم ورجع إلى منزله يرجف فؤاده، وقد كان ﷺ يعاني من اتصال الوحي به شدةً، ولذلك قال في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ (الفرقان)، وذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قُدِّر أنهم رأوا الملائكة كان ذلك اليوم يوم هلاكهم.

فكان إرسال الرسل الكرام من البشر ضروريًّا؛ كي يتمكنوا من مخاطبتهم والفقه عنهم والفهم منهم، ولو بعث الله رسله إليهم من الملائكة ما أمكنهم ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء).

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله تبارك وتعالى إليهم رسولًا من جنسهم، أما وإن الذين يسكنون الأرض بشر، فرحمة الله تعالى وحكمته تقتضي أن يكون رسولهم من جنسهم، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران).

وإذا كان البشر لا يستطيعون رؤية الملائكة والتلقي عنهم بيسر وسهولة، فإن ذلك يقتضي - لو شاء الله أن يرسل ملكًا رسولًا إلى البشر - أن يجعله رجلًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ (الأنعام: ٩)، فالله يخبر أنه "لو بعث رسولًا ملكا"، لكان على هيئة رجل، يمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع السابق، ص١٩.

لاختلط الأمر عليهم[1]. وقد ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في معرض الرد على المشركين، حين طلبوا أن يكون النبي المرسل من الملائكة لا من البشر: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ (الأنعام).

ومعنى الآية: لو جعلنا النبي ملكًا كما اقترحوا، لجعلناه في صورة رجل من البشر؛ ليمكن اجتماعهم به وأخذهم عنه، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر، هل هو ملك أو بشر؟ فَيشُكُّون في أمره، ويعودون إلى سيرتهم الأولى في طلبهم أن يكون النبي من الملائكة[2].

قال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾، أي: أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يألف بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ﷻ الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقابلته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به، ويسكنوا إليه، لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم، حيث كانوا يقولون عن محمد ﷺ: إنه بشر، وليس بينه وبينهم فرق، فيلبسون على الناس بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله ﷻ أنه لو أنزل ملكًا في صورة رجل؛ لأوجدوا سبيلًا إلى اللبس - الشك - كما يفعلون.

ثالثًا. مقتضى كون الأنبياء بشرًا أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفك البشرية عنها:

يوضح د. عمر الأشقر في كتابه "الرسل والرسالات" أبرز تلك الصفات على النحو التالي:

١. الرسل يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويولد لهم:

الرسل والأنبياء يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من الطعام والشراب، ويُحدِثون كما يحدث البشر؛ لأنَّ ذلك من لوازم الطعام والشراب: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ﴾ (الأنبياء).

ومن ذلك أنهم ولدوا كما ولد البشر لهم آباء وأمهات، وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، يتزوجون ويولد لهم، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ (الرعد).

ويصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم ينامون ويقومون، ويصحُّون ويمرضون، ويأتي عليهم ما يأتي على البشر من الموت، فقد جاء في ذكر إبراهيم خليل الرحمن لربه تعالى: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ (الشعراء)، وقال الله تعالى لرسوله محمد بن عبد الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ (الزمر)،

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨.

٢. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق، ص٢٠.

وقال مبينًا أن هذه سنة في الرسل كلهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران)[1]، وقد جاء في وصف رسول الله ﷺ عن الأسود قال: سألتُ عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهْنَة أهله ــ تعني خدمة أهله ــ فإذا حَضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[2][3].

٢. **تعرض الأنبياء للابتلاء:**

ومن مقتضى بشرية الرسل أنهم يتعرضون للابتلاء كما يتعرض البشر، فقد يسجنون، كما سجن نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (يوسف)، وذكر الله أنه: ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف: ٤٢)، وقد يصيبهم قومهم بالأذى وقد يدمونهم، كما أصابوا الرسول ﷺ في غزوة أحد؛ فأدموه وكسروا رُباعِيَتَه، وقد يخرجونهم من ديارهم، كما هاجر إبراهيم من العراق إلى الشام، وكما هاجر نبينا محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وقد يقتلونهم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (البقرة)، وقد يصابون بالأمراض، كما ابتلى الله نبيه أيوب فصبر، وقد صحَّ عن الرسول ﷺ "أن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه"[4].

وكان من ابتلائه أن ذهب أهله وماله، وكان ذا مال وولد كثير: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنبياء)، والأنبياء لا يصابون بالبلاء فحسب، بل هم أشدُّ الناس بلاء، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال ﷺ: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة"[5].

ودخل أبو سعيد الخدري على الرسول ﷺ وهو يُوعَك[6]، فوضع يده على الرسول ﷺ فوجد حرّه بين يديه فوق اللحاف، فقال: يا رسول الله، ما أشدها عليك! قال: "إنا كذلك، يُضَعَّف لنا البلاء، ويُضَعَّف

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨، ٦٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من كان في حاجة على أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٤٤)، وفي مواضع أخرى.

٣. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٤٣.

٤. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٢٩٩) برقم (٣٦١٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (٢٨٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (١٦٠٧)، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣).

٦. يُوعَك: أصابه مرض من شدة الحُمَّى والتعب.

لنا الأجر"، قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ فقال: "الأنبياء"، قلت: يا رسول الله، ثم من؟ قال: "ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التي يُحَوِّيها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء"[1].

٣. اشتغال الأنبياء بأعمال البشر:

ومن مقتضى بشريتهم أنهم قد يقومون بالأعمال والأشغال التي يمارسها البشر، فمن ذلك اشتغال الرسول ﷺ بالتجارة قبل البعثة، ومن ذلك رعي الأنبياء للغنم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكَبَاث[2]، وإن رسول الله ﷺ قال: "عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه"، قالوا: أكنت ترعى الغنم ؟ قال: "وهل من نبي إلا وقد رعاها"[3].

ومن الأنبياء الذين نص القرآن على أنهم رعوا الغنم نبي الله موسى عليه السلام، فقد عمل في ذلك عدة سنوات، فقد قال له العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (القصص) . قال ابن حجر: والذي قاله الأئمة أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبهم بالخَلْوة، ويترقُّوا من سياستها إلى سياسة الأمم.

ومن الأنبياء الذين عملوا بأعمال البشر داود عليه السلام، فقد كان حدادًا يصنع الدروع، قال ﷻ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء)، وفي نفس الوقت كان ملكًا، وكان يأكل مما تصنعه يداه. ونبي الله زكريا كان يعمل نجَّارًا، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "كان زكريا نجارًا"[4] [5].

رابعًا. لا تعد تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تلبى في غير الحلال:

ليس الهبوط أن يشتهي المرء طعامًا أو امرأة، وإنما الهبوط أن يأكل المرء من سُحْت، أو يتصل بمن لا تحلُّ له. والعجب أن يعيب هؤلاء على بشر مثلهم، ثم يقلدونهم في قولهم، فأصحاب تلك الدعوات لم يكونوا خالقيها، وإنما اقتبسوا من غيرهم قولهم، فقد جاء النص: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ (فصلت) ، وتولى القرآن الرد: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأنعام) ؛ لأنه لا يمكن أن يتعامل ملك على ملائكيَّته مع بشر على بشريته؛ وذلك لأمر أراده الإسلام في موضع النبوة، وذلك أن فيه الأسوة،

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٥٠).

٢. الكَبَاث: ثمر الأراك.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف: ١٣٨) (٣٢٢٥)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب فضيلة الأسود من الكباث (٥٤٧٠)، واللفظ للبخاري.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريا عليه السلام (٦٣١٢).

٥. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٦٨: ٧٢.

وكيف يتأسّى بمن خالف طبيعته، فلو ذُكِر لمعاند قوله ﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب) ليقول: ومن أين لي وأنا بشر وهو ملك؟

لكنَّ الله لما شاء وجودهم أنبياء جعلهم بشرًا؛ حتى يسهل التأسي بهم ومتابعتهم، إن هذا الفهم السقيم بقية باقية من فهم الأمم السابقة، وخاصة أهل الكتاب في كتابهم المقدس، تلك المفاهيم الممتزجة بكل باطل، فالنبي عندهم أشبه بالكهنة والعرَّافين، وهم بين متخبطين في الرذائل ساقطين سقوط أدنى البشر أو متألِّهين، وهذا الخليط المترنِّح لا يستقر على وضع مستقيم حتى في الاعوجاج نفسه.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه نهى عن اجتناب ما أحله الله؛ ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رَهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفْطِر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأُصلِّي وأَرْقُد، وأتزوج النساء، فمن رَغِب عن سُنَّتي فليس مني"[1].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٤٧٧٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (٣٤٦٩).

الخلاصة:

- شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون الرسل الذين يرسلهم إلى البشر من البشر أنفسهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠)؛ لذا أعدهم الله إعدادًا خاصًّا؛ لتحمل أعباء النبوة والرسالة، وصنعهم صنعًا فريدًا: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ (طه)، واعتبر هذا بحال نبينا محمد ﷺ، كيف رعاه وأحاطه بعنايته على الرغم من يُتْمِه وفقره، وقد زكَّاه وطهره، ، وأخرج منه حظ الشيطان مُذْ كان صغيرًا.
- لم يرسل الله عز وجل إلى عباده رسلًا من الملائكة، ولكن أرسل إليهم رسلًا من البشر؛ كي تسهل مخاطبتهم، والأخذ عنهم، ولاتفاقهم في الخِلْقة والصفات؛ لأنهم - عليهم السلام - أسوة وقدوة للبشر جميعًا، فكيف يكون الأسوة والقدوة من غير جنسهم؟
- كون الرسل - عليهم السلام - بشرًا يقتضي أن يتصفوا بصفات البشر، كالأكل والشرب والزواج والنوم والابتلاء، وغيرها من صفات البشر؛ لأن هؤلاء الأنبياء لا بد أن تكون لهم سنن في كل متطلبات الحياة من مأكل ومشرب وزواج ونوم وغيرها؛ ليقتدي بها الناس في حياتهم، وهذا لا يتحقق إلا بكونهم بشرًا.
- لا تُعَدُّ تلبية الغرائز والشهوات المشروعة سقوطًا، وإنما فساد الأخلاق أن تلبَّى في غير الحلال، وهذا ما حرمه الله تعالى على الأنبياء - عليهم السلام - وغيرهم من البشر.



الشبهة المائة

دعوى ردّ ما جاء به الأنبياء والرسل؛ لعدم حاجة البشرية إليه(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين من العلمانيين أن البشرية ليست بحاجة إلى الأنبياء والرسل، مستدلين على ذلك بأن البشرية بلغت مبلغًا عظيمًا من التَّقدُّم والرُّقي عندما استغنت بالعقل - الذي يميز بين الصواب والخطأ - عن الرسل وتعاليمهم، هادفين من وراء ذلك إلى إسقاط الدين من الحياة بإنكار رسالة الأنبياء.

وجوه إبطال الشبهة:

١) البشرية بحاجة إلى الرسل؛ لإصلاح القلوب، وتهذيب النفوس، وهداية العقول، ومعرفة الوجهة الصحيحة في الحياة، وكذا معرفة أصول علاقة الإنسان بخالقه تعالى، وبأخيه الإنسان.

٢) الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية؛ لأنهم مؤيدون من قِبل الله تعالى.

٣) حاجة البشرية إلى الشريعة والدين كحاجتها إلى الطب؛ فبالشريعة تصح القلوب والعقول، وبالطب تصح الأبدان.

٤) الوحي هو حلقة الوصل بين الله ﷻ ورسله، فلا يصح الاستغناء عنه بالعقل؛ لأن العقل قاصر عن الإحاطة بما يصلح للإنسان.

٥) الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله وخلقه؛ فهم يعرِّفون العباد بخالقهم، ويبلغونهم ما أمرهم به من خير في دينهم ودنياهم.

التفصيل:

أولا. البشرية بحاجة إلى الرسل؛ لإصلاح القلوب، وهداية العقول، ومعرفة الوجهة الصحيحة للإنسان في الحياة، وعلاقة الإنسان بالحياة وخالقها:

إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل، ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم، فإن البشر اليوم في القرن الحادي والعشرين - حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيدًا في أجواء الفضاء، وفجَّرت الذرة، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية في هذا الوجود - أشد جدالًا للرسل، وأكثر رفضًا لعلومهم، وأعظم إعراضًا عنهم، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحُمُر المستنفرة حين ترى الأسد؛ فتفر لا تلوي على شيء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)﴾ (المدثر).

والبشر اليوم يأبون - أكثر من ذي قبل - التسليم للرسل وتعاليمهم؛ اغترارًا بعلومهم، واستكبارًا عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم، قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾ (التغابن)، واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر

(*) سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق.

® في "حاجة البشرية إلى الأنبياء" طالع: الشبهة السابعة والتسعين، من هذا الجزء.

يدعونهم إلى التمرد على الله تعالى وعلى شريعته ورفض تعاليم الرسل، بحجة أن في شريعة الله حجرًا على عقولهم، وتعطيلًا لرَكْب الحياة، وتجميدًا للحضارة والرقي، وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إن بعض الدول تضع الإلحاد مبدًا دستوريًّا، وهو ما يُسمى بالعلمانية، وكثير من الدول التي تتحكم في رقاب المسلمين تسير على هذا النهج، وقد تُرضي عوام الناس بأن تضع مادة في دستورها تقول: "دين الدولة الإسلام"، ثم تهدم هذه المادة بالمواد السابقة واللاحقة والتشريعات التي تحكم هؤلاء المستبعدين.

فهل صحيح أن البشرية بلغت اليوم مبلغًا يجعلها تستغني عن الرسل وتعاليم الرسل؟! وهل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تقود نفسها بعيدًا عن منهج الرسل؟!

يكفي للإجابة عن هذا السؤال أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها "متقدمة مُتحضِّرة" ـ أمريكا، بريطانيا، فرنسا، روسيا ـ لنعلم مدى الشقاء الذي يغشاهم، فلا ننكر أنهم بلغوا في التقدم المادي شأوًا بعيدًا، ولكنهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءت تعاليمهم لإصلاحه انحدروا انحدارًا بعيدًا.

لا ينكر أحد أن الأوجاع الجسدية والعُقَد النفسية اليوم سمة العالم المتحضر، فالإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته وخسر نفسه؛ ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها، وأخذوا يتبعون كل ناعق من الشرق أو الغرب يلوِّح لهم بفلسفة أو دروشة أو سفسطة يظنون فيها هناءهم، لقد تحوَّل عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه، وتقوِّده الانحرافات والضياع، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبرى.

إن الذين يُسمَّون اليوم بـ"العالم المتحضر" يخربون بيوتهم بأيديهم وحضارتهم تقتلهم، تفرز سمومًا تسري فيهم فتقتل الأفراد، وتغرق المجتمعات. الذين نسميهم اليوم بـ "العالم المتحضر" كالطائر الجبار الذي يريد أن يحلق في أجواء الفضاء بجناح واحد. إننا بحاجة إلى الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا، وتهذيب نفوسنا، وهداية عقولنا. نحن بحاجة إلى الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة[1].

ثانيًا. الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية:

يقول ابن القيم في بيان حاجة العباد إلى الرسل وتعاليمهم: "ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الخبيث والطيب على التفصيل إلَّا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلَّا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق

---

١. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، مرجع سابق، ص٢٩: ٣١ بتصرف.

والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت ليست بأهم من ضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به - طرفة عين - شقيت وفسد قلبك حتى صار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المِقْلاة، إن حال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عِداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضل عظيم[1].

ثالثًا. حاجة البشرية إلى الشريعة كحاجتها إلى الطب؛ فبالشريعة تصح القلوب والعقول، وبالطب تصح الأبدان:

عقد ابن القيم مقارنة بيَّن فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدة حاجة الناس إليه؛ لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، قال: حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة؟ وأما أهل البدو كلهم، وأهل الكفور كلهم، وعامة بني آدم - لا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصح أبدانًا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعل أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكل قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إن كثيرًا من أصول الطب إنما أُخذت من عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم الخاصة.

وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إلى التنفس فضلًا عن الطعام والشراب؛ لأن غاية ما يُقدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن، وتعطل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة، ففساد الروح والقلب جملة، وشتَّان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسل - عليهم السلام - والقيام به والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم[2].

رابعًا. الوحي هو حلقة الوصل بين الله تعالى ورسله، فلا يصح الاستغناء بالعقل عنه:

يزعم الناس في عالم اليوم أنه يمكنهم الاستغناء عن

١. المرجع السابق، ص٣١، ٣٢.

٢. المرجع السابق، ص٣٥، ٣٦ بتصرف.

الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها؛ ولذلك نراهم يسنون القوانين، ويحلون ويحرمون ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كله أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم - هم البراهمة أحد طوائف المجوسية - حيث "زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل؛ لأن ما جاءت به الرسل إن كان موافقًا للعقل حسنًا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفًا قبيحًا فإن احتاج إليه فعله وإلَّا تركه".

ولا يجوز في مجال الحِجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح؛ "فإن الله قد فطر عباده على معرفة الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على معرفة الفرق بين النافع والضار، والملائم لهم والمنافر، وركَّب في حواسهم إدراك ذلك، والتمييز بين أنواعه.

والفطرة الأولى: وهي فطرة الله العباد على التفريق بين الحسن والقبيح خاصة بالإنسان، وبها يتميَّز عن غيره من الحيوانات، **وأما الفطرة الثانية**: وهي فطرة الله عباده على التفريق بين النافع والضار، فهي مشتركة بين أصناف الحيوان، والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور أربعة:

- أن هناك أمورًا هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله؛ لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته "فمن أين للعقل معرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ورضاه، وسخطه وكراهيته؟ ومن أين له معرفة الثواب والعقاب، وكيفيتهما، ودرجاتها؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهر الله عليه أحدًا من خلقه إلَّا من ارتضاه من رسله، إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته".
- أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أدرك التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات، وليس إدراكًا كليًّا شاملًا؛ فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلًا أو ظلمًا، فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل".
- أن العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته؛ فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من كان الفعل مصلحة له، وتنهى عنه من كان الفعل مفسدة في حقه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول".

وما يتوصل إليه العقل - وإن كان صحيحًا - فإنه ليس إلا فرضيات قد تجرفها الآراء المتناقضة والمذاهب المُلْحِدة. ولو استطاعت البقاء فإنها - في غيبة الوحي - ستكون تخمينات شتى، يلتبس فيها الحق بالباطل[1]. والذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلمًا كثيرًا، ويُبدِّدون طاقة العقل في غير مجالها.

إن للعقل اختصاصه وميدانه وطاقته، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب، وحالفه الشطط والتخبط، وإذا أُجري في غير ميدانه كبَّ وتعثَّر، وإذا كُلِّف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال.

- إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول؛ فيستخرج مكنوناته، ويربط بين أسبابه وعلله، ومقدماته ونتائجه، فيكشف ويخترع، ويتبحر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة، وتسيير عجلة التقدم البشري إلى الأمام.

فالوحي الإلهي وجَّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحثَّ الإنسان على استعمار هذه الأرض واستثمارها. وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها؛ ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله ﷻ، فإن تبيَّن له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين، فإذا حُجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله، كما أن المبصر لا ينتفع بعينه إذا عاش في ظلمة، فإذا أشرقت الشمس وانتشر ضَوْءُها انتفع بناظرَيْه، وكذلك أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج)[2].

"إن العقل - بدون هداية الرسل - ليس في وسعه أن يعرف عن الله ما يجب أن يعرف، ولا أن يدرك من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يدرك، ولا أن يصل بصاحبه إلى الحياة الطيبة في الدنيا، فضلًا عن الآخرة، فقد تأكد عندها أن الرسل والأنبياء هم الذين يُخرج الله بهم البشر من ظلمات الكفر والعصيان إلى نور الإيمان والطاعة"[3] ®.

خامسًا. الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله وخلقه، فهم يعرِّفون العباد بخالقهم ويبلغونهم ما أمرهم به:

لا يمكن لعاقل - يفهم مهمة الرسل - أن يصفهم بعدم تبليغ ما أُرسلوا به، فهم لم يكونوا رسلًا إلا لأنهم أصحاب رسالات، وهم بهذه الرسالات واسطة بين الخالق والخلق، فلو لم يبلغوا رسالات الحق إلى الخلق، ما كانوا رسلًا بالمعنى الصحيح الكامل بهذا الوصف، والله ﷻ وصفهم بالبلاغ فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ

---

١. المرجع السابق، ص٣٦: ٣٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٢٥.

® في **"انتفاء التعارض بين المعقول والمنقول في الإسلام"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٣٩)، وقال الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة).

وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (المائدة: ٩٩)، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل)، وكل رسول كان يقيم الحجة على قومه بالبلاغ.

يقول الله ﷻ على لسان رسله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الأعراف)، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (الأعراف)، فالرسل أمناء على رسالات الله، ولو كتموا ما أمروا بتبليغه لما كانوا أمناء، ولو كتموا شيئًا لما قامت الحجة على أممهم، ولكان لهم عند الله حجة، والله تعالى أعذرهم إذ قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

واتهام الأنبياء بالتقصير في البلاغ جرأة على الأنبياء وعلى دين الله، ورميهم بما لا يليق بهم ولا يتفق وما يؤمنون به من فضائل ومبادئ، إذ كيف يؤمن عاقل برسالة يعلم أنها لم تصل إليه كاملة، وما قيمة إيمانه بها وهو لم يتمكن من العمل بمقتضاها حيث لم تصل إليه؟! إن هذا الاتهام والتحلل من الشريعة صنوان، بل هو تكأة لهذا الغرض.

إن الإنسان بدون الأنبياء فلك يدور في مجال التيه والضياع، لا يعرف غاية لحياته، ولا يستطيع أن يجيب عن العديد من الأسئلة التي تحاصره، ولا يجد منها مفرًّا، والتي لا يملك العقل إجابات عنها، لا يملك تلك الإجابات الشافية النافعة الصحيحة من الناس إلا الأنبياء والرسل.

الخلاصة:

- إن البشر في حاجة إلى الرسل وتعاليمهم، لصلاح قلوبهم، وإثارة نفوسهم، وهداية عقولهم، وتعريفهم بخالقهم وما خلقوا له، أما الزعم بأن العقل البشري يستطيع أن يهتدي إلى الخير والحق بدون الرسل والرسالات، فهذا أمر يأباه الواقع والتاريخ؛ لأن التجارب البشرية أثبتت أن الاهتداء إلى معرفة الله لا يتم إلا بالرسل الذين بعثهم الله ليُعرِّفوا الناس به.
- الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة لا يكون إلا على أيدي الرسل وقيادتهم للبشرية؛ لأنهم الميزان الذي توزن به الأخلاق والأعمال.
- إن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم؛ لأن الرسالة غذاء للروح التي هي أهم من البدن، ولا يحيا البدن إلا بها، وإذا سُلبت منه فإن الجسم يموت.
- لقد وجه الوحي الإلهي العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحث الإنسان على إعمار هذه الأرض، واستثمارها، وفي مجال العلوم المنزلة من عند

الله كانت وظيفة العقل أن ينظر فيها؛ ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله ﷻ، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

- أصحاب العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت، قال ﷻ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج).
- الأنبياء هم حلقة الوصل بين الله ﷻ وخلقه، فهم يُعرِّفون العباد بخالقهم وما أمرهم به، ولا يمكن لعاقل يفهم مهمة الرسل أن يصفهم بعدم تبليغ ما أُرسلوا به؛ فهم لم يكونوا رسلًا، إلّا لأنهم أصحاب رسالات، وهم بهذه الرسالات واسطة بين الحق والخلق، قال الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٩).

الشبهة الحادية بعد المائة

الزعم أن حمارًا أفضل من نبي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن الحمار أفضل من النبي، مستدلين على ذلك بأنه كان هناك نبي من الأنبياء أغراه أحد الملوك بالمال، فضَلَّ الطريق ولم يسمع لكلام الله، وسمع كلام المَلِك، فأرسل الله له ملاكًا، فلم يره النبي، وكان هناك حمار، فرأى الحمارُ الملاك ولم يره النبي. ويقول هؤلاء: ما المانع في أن يرى الحمارُ الملاك بقوة الله، ولم يره النبي؛ لأنه استجاب للشيطان، هادفين من وراء ذلك إلى الحطِّ من قدر الأنبياء ومكانتهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأنبياء - عليهم السلام - معصومون كلهم ومصطفون من قبل الله ﷻ، فكيف يضل نبي لدرجة أن يَفضُله حمار؟!!

٢) لا عجب أن يُفَضِّل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس، ومعتقدهم الديني يسمحان لهم بذلك، فقد اتهمت التوراة الأنبياء بأخس الصفات.

التفصيل:

أولا. الأنبياء - عليهم السلام - معصومون ومصطفون من قبل الله ﷻ، فكيف يضل نبي بهذه الدرجة حتى يفضله حمار؟!

إن العجب ليملأ العقول والقلوب والأذهان حينما يدَّعي هؤلاء القوم هذا الادعاء؛ إذ كيف يضلُّ نبي بسماعه كلام مَلِك مع علمه بأن الله هو ملك الملوك والملكوت، وكيف يزلُّ هذا النبي وهو معصوم؟! لأن كل الأنبياء معصومون، فلن تجد في حياة أي منهم أي انحراف مقصود؛ لأنهم ليسوا أخيارًا فحسب، بل إنهم مصطفون من بين أفضل الأخيار، وهؤلاء لا يقترفون - طوال حياتهم - أي شيء يلقي ظلًا على اصطفائهم هذا، وعلى قدسية المهمة التي بعثوا من أجلها.

وكذلك فإن الأنبياء يقومون في الوقت نفسه

(*) قناة الحياة الفضائية، زكريا بطرس، الحلقة ٨٨.

بوظيفة المرآة التي تعكس الأسرار الصادرة من الذات المقدَّسة إلينا؛ لذا وجب أن تكون هذه المرايا صافية ونقية؛ لكيلا تكون الحقائق التي تعكسها للقلوب خادعة؛ لذا يجب أن يرى الناس أفضل صورة متجلية للدين عند الأنبياء؛ لكي يتبعوهم ويصلوا إلى سعادة الدنيا والآخرة.

فكيف بعد كل هذا يقول أحد في نبي من الأنبياء هذا الكلام؟ إلَّا إذا طُمست عين هذا المتكلم، وران على قلبه وعقله، فلم يستطع التمييز أو التفكير؛ لأنه لو فكر لحظة؛ لعلم أن الأنبياء هم الصفوة، ولا يجوز في حقهم نقص، فقد توجد بقع على وجه القمر أو كلف على وجه الشمس، ولكنه لا يوجد حتى ظل للإثم في روح النبي، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (الأنعام).

ثانيًا. لا عجب أن يُفَضِّل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس، ومعتقدهم الديني يسمح لهم بذلك، فقد اتهمت التوراة الأنبياء بأخس الصفات:

لا عجب أن يفضل هؤلاء الجهلة الحمار على النبي، فإرثهم الثقافي من الكتاب المقدس ومعتقدهم الديني يسمحان لهم بذلك، وبما هو أغرب من ذلك، فقد اتهمت التوراة سيدنا إبراهيم ﷺ بالكذب، ولصقت به ـ عن قصد أو غير قصد ـ أخس الصفات وقبيح الفعال، من التحايل والسكوت على الفاحشة وعلى الاغتصاب، ومن الرضا بالمهانة والخوف من السلطان، ثم بالتفريط في العِرْض، وذلك أيام أن رحل إبراهيم فارًّا بعقيدته إلى فلسطين، ومعه زوجته سارة، وابن أخيه لوط، وامرأة لوط وحدثت، مجاعة وجدب، فانتقل إبراهيم ﷺ إلى مصر مهاجرًا ومعه سارة زوجته، وفي الطريق إلى مصر أخبر إبراهيم ﷺ زوجته سارة ـ كما تقول التوراة ـ بأنه يخشى عليها وعلى جمالها من المصريين إذا ما وقعت أعينهم عليها، وأنهم لن يتورَّعوا عن قتل زوجها إذا ما علموا أنها متزوجة، واتفق معها إبراهيم ﷺ ـ لأجل أن تَسْلم حياته ـ أن توافقه في دعواه بأنها أخته.

ونص ذلك في الكتاب المقدس: "وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قَادِش وشُور، وتغرَّب في جرَار. وقال إبراهيم عن سارة امرأته: «هي أختي». فأرسل أَبِيمالِك ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: «ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فإنها متزوِّجة بِبَعْل». ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: «يا سيد، أَأُمَّة بارَّة تقتل؟ ألم يقل هو لي: إنها أختي، وهي أيضًا نفسها قالت: هو أخي؟ بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا». فقال له الله في الحلم: «أنا أيضًا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضًا أمسكتك عن أن تخطئ إلي، لذلك لم أَدَعْكَ تمَسَّها. فالآن رُدَّ امرأة الرجل، فإنه نبي، فيُصلِّي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها، فاعلم أنك موتًا تموت، أنت وكل من لك». فبكَّر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده، وتكلَّم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جدًّا.

ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: «ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جَلَبْتَ عليّ وعلى مملكتي خطيَّة عظيمة؟ أعمالًا لا تُعمل عملت بي». وقال أبيمالك لإبراهيم: «ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟» فقال إبراهيم: «إني قلت: ليس في هذا الموضع خوف الله أَلْبَتَّة، فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة. وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي: في كل مكان نأتي إليه قولي عني: هو أخي». فأخذ أبيمالك غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك: «هوذا أرضي قُدَّامك. اسكن في ما حسن في عينيك». وقال لسارة: «إني قد أعطيت أخاك ألفًا من الفِضَّة. ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد، فأُنْصِفْتِ». فصلَّى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فوَلَدْنَ. لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم". (التكوين ٢٠: ١ ـ ١٧).

ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، بل إن التوراة قد ذكرت أنبياء غير إبراهيم عليه السلام بأحطِّ الصفات، ومن ذلك أيضًا: قصة التوراة عن داود عليه السلام، قصة كلها زنا وفحش وإثم وتحايل؛ للتخلص من آثار جريمة خُلُقيَّة، واعتداء على حرمات الآخرين.

تلك هي القصة: "وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَع بنت أَلِيعام امرأة أُورِيَّا الحِثِّي؟». فأرسل داود رُسُلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طَمْثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحَبِلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يُوآب يقول: «أرسل إلى أوريا الحثي». فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك»... فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت». وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلًا: «عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك، وقال لك: لماذا دَنَوْتُم من المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور؟ من قتل أبيمالك بن يَرُبُّوشَثَ؟ ألم تَرْمِه امرأة بقطعة رَحًى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل: قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا»... فقال داود للرسول: «هكذا تقول ليوآب: لا يَسُؤ في عينيك هذا الأمر، لأن

السيف يأكل هذا وذاك. شدِّد قتالك على المدينة وأَخْرِبها. وشدده». فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، نَدَبَت بَعْلَها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمَّها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابنًا. وأما الأمر الذي فعله داود فقَبُح في عَيْنَي الرب". (صموئيل الثاني ١١: ٢ ـ ٢٧).

وحاشا لشخص مؤمن ـ فضلًا عن نبي مرسل ـ أن ينزل إلى هذا الدَّرَك من الغصب والاعتداء. ولكنه كتابهم المقدس ومعتقدهم الديني، الذي سمح لهم أن يدَّعوا هذا الادعاء على نبي من الأنبياء.

وكذلك فإنه يتهم لوطًا بأنه زنى بابنتيه، فقال: "وصعد لوط من صُوغَر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هَلُمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيِي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضًا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عَمِّي»، وهو أبو بني عمُّون إلى اليوم". (التكوين ١٩: ٣٠ ـ ٣٨).

وإذا كان النبي عند جميع مؤلِّفي الكتاب المقدس يصل إلى هذا الحد، بل إلى درجة الإقرار بالوثنية ـ كما ينسب الكتاب المقدس لهارون صناعته العجل لليهود ليعبدوه ـ فلا تستكثر على أصحاب هذه الدعوى أن يجعلوا الحمار يرى المَلَك، ويحظى بهذا الشرف الذي لا يرقى إليه نبي، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ (الجمعة)[1].

الخلاصة:

- أنبياء الله ﷻ ورسله هم المصطفون الأخيار من عباده ﷻ، وهم جميعًا معصومون، فمن صفاتهم الصدق والتبليغ والفطنة والأمانة، ويمتنع عليهم أضداد هذه الصفات الأربعة، فيستحيل عليهم الكذب، وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه، والغفلة وعدم الفطنة والخيانة، ودليل ذلك الكتاب والسنة والإجماع.
- فأي اتهام لهم أو تطاول عليهم هو اتهام لله ﷻ؛ لأن الله ﷻ هو الذي اصطفاهم واختارهم من بين خلقه ليكونوا رسله، فعصمهم من الزلل والخطأ.
- أما ما جاء في الكتاب المقدس من اتهام الأنبياء بأخس الاتهامات، وأقبح الصفات، فإن هذا إنما وضعه أحبارهم ورهبانهم، لخدمة رغباتهم وقضاء شهواتهم، وهذا ما حدث بالفعل، فقد أباحوا

---

١. الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت، ص١٢٠: ١٢٨ بتصرف.

لأنفسهم الزنا داخل بيوت العبادة عندهم، وشهد عليهم بذلك صديقهم قبل عدوهم.

الشبهة الثانية بعد المائة

ادِّعاء أن الأنبياء غير معصومين لوقوعهم في بعض الذنوب(*) ®

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن الأنبياء بشر غير مفضَّلين، وليس لهم أي مَيْزة على غيرهم من البشر، وما عُرف عن العصمة، فهو من حديث المتكلِّمين عن السَّلب والاختيار. ويستدلون على زعمهم هذا بوقوع الأنبياء في بعض المخالفات من: الظلم والنسيان والشك، وارتكابهم بعض الذنوب، وطلب المنهي عنه. ويتساءلون: هل يتفق هذا مع ما يُقال عن عصمتهم وتفضيلهم على بقية البشر؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) الأدلة العقلية والنقلية تثبت العصمة للأنبياء ويكفينا أن نعلم أن الله أرسلهم؛ ليكونوا قدوة للناس في امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

٢) مبدأ العصمة لم يكن من أفكار المتكلمين، وإنما هو مبدأ قرآني صرف.

٣) العصمة منحة ربانية يمنحها الله من يشاء من عباده، وقد خصها برسله المصطفين الأخيار، وهي لا تسلب الاختيار عن صاحبها الذي هو أساس التكليف.

التفصيل:

أولا. الأدلة العقلية والنقلية تثبت العصمة للأنبياء:

العصمة في اللغة هي: المنع. وفي الاصطلاح: حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمعاصي، فالعصمة ثابتة للأنبياء، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله ﷻ وميَّزهم بها على سائر الخلق، فلم تكن لأحد إلا الأنبياء الكرام.

وهناك العديد من الأدلة العقلية، والأدلة النقلية من القرآن والسنة على عصمة الأنبياء:

١. الأدلة العقلية على عصمة الأنبياء:

- لو صدر الذنب عن الأنبياء لكان حالهم في استحقاق الذم في العاجل والعقاب في الآجل أشد من حال عصاة الأمة؛ وهذا باطل، فصدور الذنب عنهم باطل.

بيان ذلك: أن أعظم نعم الله تعالى على العباد نعمة الرسالة والنبوة، وكل من كانت نعم الله عليه أكثر وأعظم، كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل على ذلك، ويؤكده من النقل أيضًا:

- قول الله ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢)، وقول الله ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠).
- أن المحصن يُرجم إذا زنا، وغير المحصن يجلد.

(*) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، مرجع سابق.

® في **"عصمة الأنبياء في عقيدة المسلمين"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين، من هذا الجزء.

o أن العبد يُحَدُّ نصف حَدِّ الحر.

• طاعة الأنبياء واجبة، فلو صدرت منهم المعصية للزم أن تكون المعصية واجبة وحرامًا وهو باطل، وأما أن طاعتهم واجبة فلقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤)، وأما أن المعصية لو صدرت منهم للزم أن تكون واجبة وحرامًا فلأنه يجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية، فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرمة علينا، فيلتزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد في آن واحد، وهو باطل، فالأنبياء لم تصدر عنهم معصية[1].

• لو صدر ذنب عن الأنبياء - عليهم السلام - لوجب زجرهم وإيذاؤهم؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ولكن زجر الأنبياء فيه إيذاء لهم، وإيذاء الأنبياء حرام لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأحزاب). كما أن هذا فيه مُشاقَّة للرسول، ومشاقة الرسول محرَّمة لقول الله ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (النساء)، ومن ثم كان صدور الذنب عن الأنبياء ممتنعًا[2].

• لو صدر الذنب عن الأنبياء ما كانوا مقبولي الشهادة لقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الحجرات). فلو أقدم الأنبياء - عليهم السلام - الذنوب، ورُدَّت شهادتهم لكانوا أقل حالًا من عدول الأمة، فكيف يكون غيرهم أفضل حالًا منهم، وقد اصطفاهم الله تعالى وفضَّلهم على العالمين؟![3]

• لو صدرت المعصية عن الأنبياء عليهم السلام لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب الله؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (النساء)، ولكانوا ملعونين لقوله ﷻ: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (هود)، وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلًا[4].

• أنهم كانوا يأمرون بفعل الطاعات وترك المعاصي، ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الصف)، وتحت قوله ﷻ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة). ومعلوم أن هذا في غاية القبح، لكنهم منزَّهون عن القبح. وأيضًا أخبر ﷻ عن رسوله شعيب عليه السلام أنه برَّأ نفسه من ذلك، فقال: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود: ٨٨).

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٣، ١٣٤.

٢. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٢.

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

٤. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٣ بتصرف.

• وصف الله تعالى أنبياءه بالاصطفاء والخيرية في كل الأمور، ومن كان موصوفًا بالاصطفاء والخيرية على هذا النحو لا تصدر المعصية عنه، أما أن الله ﷻ وصفهم بالاصطفاء والخيرية فجاء في آيات كثيرة منها: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ (الحج)، واختيار الله لهم لتبليغ شرائعه إلى الناس لا يكون إلا عن صلاحية منهم للقيام بما كُلِّفوا به على أكمل وجه مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وقال ﷻ عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ (ص)، ولفظي (المصطفين، والأخيار) يتناولان جميع الأفعال، سواء المأمور بها أم المنهي عنها، فثبت بذلك أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور[1]، ومن ثم فصدور المعصية عنهم غير وارد.

• قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ (الأنبياء)، والألف واللام في صيغة الجمع في كلمة "الخيرات" تدل على العموم، فأخبر الله ﷻ عن أنبيائه في هذه الآية بأنهم كانوا فاعلين لكل ما ينبغي فعله من الطاعات، تاركين لكل ما ينبغي تركه من المعاصي، وذلك يدل على عصمتهم من الذنوب والمعاصي.

• لو أذنب الأنبياء لكانوا غير مُخلِصين، وكونهم غير مخلصين باطل، فبطل كونهم مذنبين، وثبت نقيضه وهو عصمتهم من الذنب، قال ﷻ في حق إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ (ص). وقال ﷻ في حق يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ (يوسف). وإذا ثبتت العصمة في حق واحد ثبتت في حق الكل، أما أنهم لو أذنبوا لكانوا غير مخلصين؛ فلأن الذنب لا يقع إلا عن إغواء من الشيطان، وهو لا يغوي المخلَصين، بدليل قوله ﷻ حكاية عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ (الحجر).

• قسم الله تعالى المكلَّفين إلى قسمين: حزب الشيطان، ويقول ﷻ فيهم: ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ (المجادلة)، وحزب الله كما قال ﷻ: ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ (المجادلة)، ولا شك أن حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يريد الشيطان ويأمره به، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء؛ لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان، ولصدق عليهم قوله ﷻ: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ولصدق على الزهاد من آحاد الأمة قوله ﷻ: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، وحينئذ يلزم أن يكون واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء.

• قال ﷻ في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (البقرة: ١٢٤)، والإمام هو الذي يُقتدى به،

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٦، ١٣٧.

فلو صدر الذنب عن إبراهيم عليه السلام لكان اقتداء الخلق به في ذلك الذنب واجبًا، وهذا باطل[١] لأمرين:

- أن وجوب الاقتداء بمن يفعل الذنب أمرٌ بذلك الذنب، والله لا يأمر بالفحشاء، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (الأعراف: ٢٨).
- الله لا يصطفي، ولا يجعل للناس إمامًا مَنْ يكون قدوة في فعل الذنب؛ لأن الاصطفاء إنما يكون لأجل القدوة في الهداية، فثبت أن الخليل عليه السلام لم يذنب، والأنبياء جميعًا مثله[٢].

- قال عز وجل: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة). وثابت أن المذنب ظالم، وهذا العهد الذي حكم الله عز وجل بعدم وصوله للظالمين إما أن يكون عهد النبوة أو عهد الإمامة، فإن كان الأول - أي: عهد النبوة - فهو المقصود، وإن كان الثاني - أي: عهد الإمامة - فالمقصود أظهر؛ لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة، فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى الظالم - وهو المذنب العاصي - فالأولى ألا يصل عهد النبوة - وهو أجلُّ وأعظم - إلى ذلك العاصي[٣].

ومن ثم تثبت العصمة لهؤلاء الأنبياء، وتستحيل عليهم المعصية.

- من الثابت لدى العلماء أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وبما أن الملائكة لم يقدموا على شيء من الذنوب، فالأولى أن يُحجِم الأنبياء عنها حتى تثبت لهم تلك الأفضلية.

- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (سبأ). فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال: إنهم الأنبياء أو غيرهم، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)، وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع؛ فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وكل من أذنب فقد اتبع إبليس، فدل هذا على أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ما أذنبوا[٤].

٢. الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء:

يستقصي د. أبو النور الحديدي هذه الأدلة التي تثبت عصمة الأنبياء ويفصل القول فيها، وننقل هذا التفصيل مختصرًا على النحو الآتي:

قد حفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تتحدث عن أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - وتثبت لهم كل كمال بشري يمكن أن تحويه كلمة "العصمة"، وتجعلهم فوق الدنايا والصغائر بما يدفع شبهات المفترين.

مع ملاحظة أن ما يُحكم به على واحد من أنبياء الله، ينطبق على بقية أنبيائه.

- فمن الآيات التي تحدثت عن أبي البشر آدم عليه السلام قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

١. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٦.
٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٣٨.
٣. عصمة الأنبياء، الرازي، مرجع سابق، ص٤٦، ٤٧ بتصرف يسير.
٤. المرجع السابق، ص٤٥.

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة).

وعِلْمُ آدم بالأسماء مبرر لتفضيله، وإسجاد الملائكة له، ولكنه ليس المبرر الوحيد، فالعلم عندما لا تصاحبه طاعة الله، والكفُّ عن محارمه يفقد قيمته وثمرته، ولا يستحق صاحبه به تفضيلًا على غيره. فلا بد إذن أن آدم عليه السلام قد شابه الملائكة في التخلُّق بأخلاقهم من فعل المأمورات، وترك المنهيات، ثم امتاز عليهم بعلم الأسماء دونهم، فلهذا كله استحق آدم عليه السلام شرف إسجادهم له.

- أما عن نبي الله نوح عليه السلام فقد امتدحت آيات كريمة من القرآن الكريم نوحًا عليه السلام بأنه عبد شكور، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء)، وأما الهداية، فقد وصف الله تبارك وتعالى بها نوحًا عليه السلام في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأنعام). أي: وهديناه إلى الدين الحق والمعرفة الصحيحة من قبل إبراهيم عليه السلام.

وأما الصلاح فقد وصفه الله تبارك وتعالى به هو ولوط - عليهما السلام - في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ (التحريم: ١٠).

وأما الاصطفاء بالرسالة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (آل عمران). واصطفى: أي: اختار، فمعنى اصطفاهم: جعلهم صفوة خلقه تمثيلًا بالشيء الذي يُصفَّى وينقَّى من الكُدورة.

ويروي بعض العلماء قولًا يوضح اصطفاء آدم ونوح هو: اصطفى الله آدم عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء له، وإسجاد الملائكة له، وإسكانه الجنة. واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أول من نسخ الشرائع، إذ لم يكن تزويج المحارم قبل بعثته حرامًا، وبإطالة عمره، وجعل ذريته هم الباقين، واستجابة دعوته في حق الكفرة والمؤمنين، وحمله على متن الماء.

ومن البدهي أن من اصطفاه الله، وجعله على هدى، وفضَّله على عباده، وجعله عبدًا شكورًا لا تصدر عنه معصية؛ لأن الله عز وجل لا يختار العصاة؛ ليهدي بهم خلقه، ثم إن النبوة أعظم النعم على الإنسان، والعاصي لا يقوم بشكر الله على نعمه، ونوح عبد شكور، فهو إذن لم يعص الله عز وجل[1]. وما يُحكم به على نبي من أنبياء الله، ينطبق على جميعهم.

- أما عن نبي الله إبراهيم عليه السلام فقد امتدحه القرآن الكريم بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ونفى عنه ما ادعته كل من اليهود والنصارى والمشركين، من أنهم على ملته، بل أثبت القرآن أن أقرب الناس

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، ص١٤١ وما بعدها.

لخليل الله إبراهيم عليه السلام هم أتباعه ومحمد ﷺ والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ (آل عمران).

كما امتدحه الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ (الأنبياء)، "والرشد" فسره بعض العلماء بالنبوة، استئناسًا بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾؛ لأن الله تعالى لا يخص أحدًا بالنبوة إلا إذا علم من حاله أنه يقوم بها، ويجتنب ما لا يليق بها. وهذا الرشد الذي آتاه الله إبراهيم عليه السلام قد طهَّر قلبه، فجعله سليمًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ (الصافات). أي: إن الله عز وجل نقَّى قلبه من العقائد الفاسدة، والنيات السيئة، والصفات القبيحة.

ومن الآيات التي تحدثت عن حميد صفاته عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)﴾ (هود)، فتضمنت هذه الآية وصفه عليه السلام بثلاث صفات:

- أنه حليم: أي: غير عجول في الانتقام من المسيء إليه.
- أنه أوّاه: أي: كثير التضرع والدعاء من خوف الله.
- أنه منيب: أي: راجع إلى الله عز وجل.

وهي صفات تدل كلها على رقة القلب، والرأفة، والرحمة، وغير ذلك من الصفات والكمالات التي لا تجتمع لأحد من البشر، ولا توجد إلا متفرقة، في حين أنها اجتمعت لخليل الله إبراهيم عليه السلام حتى وصف بأنه أمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)﴾ (النحل).

فقد وصفه الله عز وجل في هذه الآية بأنه كان أمة وحده، أي: عنده من الخير ما عند أمة، أو أنه كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. كما وصفه بأنه كان قانتًا مطيعًا له، مائلًا عن الباطل إلى الحق، ولم يكن من المشركين، شاكرًا لنعم الله عليه، اجتباه واصطفاه ربه للنبوة، وهداه إلى الطريق الموصل إليه تعالى وذلك بهدايته إلى ملة الإسلام، كما جمع الله له خير الدنيا، وجعله في الآخرة في عِداد الصالحين في الدرجات العُلا من الجنة.

فهل يصح أن يقال عن الذي رفع الله درجته، وأعلى في العالمين ذكره، وطهّر قلبه، وامتدحه بحميد الصفات: إنه غير معصوم من الذنوب التي تَشينه وتَحُطُّ من شأنه؟! قد قال الله تبارك وتعالى عنه أيضًا في وصفه بالصدق: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١)﴾ (مريم).

ولقد قام الخليل عليه السلام بحقوق النبوة والاصطفاء، فوفّاها وبلّغها، وأدّاها كلها على أكمل وجه، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ (النجم).

قال قتادة: إنه وفّى طاعة الله، وأدّى رسالته إلى

خلقه، واختار ابن جرير هذا القول؛ لأنه يشمل الذي قبله، وأيضًا يشهد له قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (البقرة).

فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلّغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون إمامًا للناس، يُقتدى به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا يدل على أنه عليه السلام معصوم من الذنوب؛ لأنه - وقد جعله الله قدوة - لو صدرت المعصية منه لوجب الاقتداء به فيها، فيلزم وجوب فعل المعصية وهو باطل[1].

- لقد تحدث القرآن الكريم أيضًا عن نبي الله لوط عليه السلام بما يشهد بعصمته من الذنوب والمعاصي، فذكر ﷻ أنه عليه السلام قد آمن بإبراهيم عليه السلام قال ﷻ: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (العنكبوت). وأن الله تعالى قد آتاه حكمًا وعلمًا، وصلاحًا ورحمة، قال ﷻ: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الأنبياء). والحُكْم: فُسِّر بالحكمة، وهي: الإصابة في القول والعمل، وفسر بـ: الفصل بين الخصوم، وفسر بـ: النبوة. والعلم: هو العلم بكل ما ينبغي علمه للأنبياء - عليهم السلام. ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾ نجاه الله من أهل سدوم الذين كانوا يعملون الخبائث والسوء، والفسق من اللواط وقذف المارة بالحصى والسباب... وغير ذلك مما يدخل تحت الفاحشة والمنكر وقطع السبيل.

وكان لوط عليه السلام يكره أعمال قومه القبيحة: ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (الشعراء). أي: إني أبغض عملكم غاية البغض، وينهى قومه عن ارتكاب تلك الأفعال، ويصفهم بالجهل نتيجة أفعالهم تلك: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النمل)، ونتيجة لإنكاره عليهم ونهيه إياهم؛ ضاق قومه به ذرعًا، وتوعدوه إن لم يَكُفَّ عن هذا؛ ليخرجوه من بين أظهرهم بقوة وعنف، قال ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (الشعراء). فخوَّفهم لوط عليه السلام من العذاب، فقالوا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٩)، وعندئذ طلب من ربه أن ينجيه من شؤم عملهم، وعذابه فقال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (الشعراء)، فنجاه الله ﷻ ومن آمن معه، فأخرجهم من بين قومه وقت حلول العذاب بهم إلا امرأته لرضاها بفعل قومه، قال ﷻ: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (الشعراء).

ومن أخلاقه رعايته لحق الضيف، فقد دافع عن أضيافه ولم يكن يعرف أنهم ملائكة؛ حتى لا يُخْزَى في ضيفه، فقال القرآن حاكيًا عنه: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (هود). وقد وصفه الله

١. المرجع السابق، ص١٤٨: ١٥٤ بتصرف.

بالصلاح وأدخله في رحمته، قال الله: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الأنبياء)، لهذا كله فضله الله تبارك وتعالى مع غيره من الرسل - عليهم السلام - على العالمين: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الأنعام).

فإذا كان لوط عليه السلام بهذه المثابة من التصديق بجميع ما أتى به إبراهيم عليه السلام، وقد أوتي حكمًا وعلمًا وصلاحًا ورحمة وفضلًا، فلا يُقبل التقوّل عليه بأنه عليه السلام التجأ إلى غير ربه، أو رضي أن يأتي قومه الفاحشة مع بناته، ولا يقبل أيضًا أن يشرب الخمر مهما كانت الحيلة إلى ذلك، ويضطجع مع ابنتيه تحت أي مؤثر كان - كما زعم المبطلون - مستندين إلى نصوص وردت في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين[1].

- يأتي الحديث عن يوسف عليه السلام فيثبت له القرآن الكريم مثلما أثبت لغيره من الأنبياء من الفضائل ومكارم الأخلاق والتنزّه عن المعاصي والذنوب، وفي شأنه يقول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ (يوسف). "ويجتبيك" أي: يصطفيك للنبوة، "وتأويل الأحاديث" أي: تعبير الرؤى، "ويتم نعمته عليك" أي: يجمع لك بين النبوة والملك، أو بين خيري الدنيا والآخرة.

ويمكن أن نلخص من أخلاق يوسف عليه السلام الطيبة ما يقطع بنزاهته عن كل ما نُسب إليه - كذبًا وافتراءً - من افتراءات، وهي:

- العِفَّة عن الشهوات، وضبط النفس عن السوء والفحشاء، قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف).
- الحِلْم عند الغضب، وضبط النفس عن مجازاة السيئة بمثلها، قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (يوسف).
- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ (يوسف).
- ثقته بنفسه: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ (يوسف).
- قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى عليه سنون حتى يضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يوسف).
- استعداده الكامل للعلم وحبه له، وتمكنه منه، قال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يوسف). وقال: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ

1. المرجع السابق، ص١٥٥: ١٥٧ بتصرف.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (يوسف). وقال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يوسف).

○ شفقته على الضعفاء، وتواضعه مع جلال قدره، وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يوسف)، وحادثهما في أمور دنياهما ودينهما، فالأول بقوله: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (يوسف: ٣٧)، والثاني بقوله: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (يوسف: ٣٨).

○ العفو مع القدرة: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (يوسف).

○ إكرام الأهل والعشيرة: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (يوسف).

○ حسن التدبير: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (يوسف). ومن حسن تدبيره، وسديد سياسته في ملكه اجتذابه القلوب إليه باللين بالإحسان: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (يوسف). وتدبير الحيلة الذكية العجيبة بمسألة الصُّواع، واتهام إخوته جميعًا بالسرقة؛ ليضم أخاه إليه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف).

○ ومعاملة المحكومين بشرعهم وعادتهم رفقًا بهم، وليكون أدعى لامتثالهم: ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (يوسف)[1].

- أما عن موسى عليه السلام فقد آتاه الله حكمًا وعلمًا؛ جزاء له على إحسانه قال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (القصص)، وقد تخلَّق عليه السلام بأخلاق طيبة؛ منها: الأمانة التي وصفته بها ابنة شيخ مدين: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (القصص).

ومنها الحياء: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "إن موسى كان رجلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرى من جِلْده شيء استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستُّر إلَّا من عَيْب بجلده، إما بَرَصٌ وإما أُدْرَة[2] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحَجَر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ. ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجرُ فأخذ ثوبه فلبسه، وطَفِق بالحجر ضربًا بعصاه.

---

١. المرجع السابق، ص١٥٨: ١٦٨ بتصرف.

٢. الأُدْرَة: الخِصْية المنتفخة.

فوالله إن بالحجر لندَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا: فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب)"[1].

ومنها: النجدة ونصرة المظلوم، ويتبين هذا من إغاثته للإسرائيلي الذي استعانه على ظالمه المصري الذي كان يسخره في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون، ومنها: معاونة الضعيف.

ولهذه الصفات التي تحلَّى بها آتاه الله تعالى الهدى، فقال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (غافر)، كما آتاه الله حكمًا: ﴿ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشعراء).

وكان نبي الله موسى عليه السلام ذا جاه وقدر عظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأحزاب).

ومن وجاهته ومنزلته عند الله تعالى أنه يوم القيامة حين يُصعق الناس، ويكون نبينا ﷺ أول من يفيق، فإنه يرى موسى عليه السلام آخذًا بشيء من العرش بقوة، فلا يدري نبينا أكان موسى ممن صعق فأفاق قبله ـ وهذه فضيلة لموسى ظاهرة ـ أو كان موسى ممن استثنى الله فلم يُصعق، وهذه أيضًا فضيلة لموسى عليه السلام.

فهل بعد هذا يلتفت العقل إلى كلمة تطعن في موسى عليه السلام أو فرية تنتقص من قدره[2]؟

- أما عن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن اختيار الله تبارك وتعالى لهما، وإيتائهما الملك والنبوة: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وأعطى سليمان عليه السلام ما أعطى داود: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ (النمل: ١٦)، ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾ (الأنبياء:٧٩)، وأثبت الله لهما ذكاء النبوة وتواضعها فقال: ﴿ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (النمل)، فهما لم يَدَّعيا التفضيل على جميع البشرية؛ لأنهما لم يستوعبا جميع النعم التي تفضل الله بها على عباده، فضلًا عن أن يدعيا استيعاب البشر أجمعين، فهو منطق راشد يتمثل فيه الذكاء والأدب، والتواضع والحياء.

وقد أمر الله عز وجل نبينا محمدًا ﷺ بالاقتداء بسيدنا داود عليه السلام في الصبر فقال: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص)، فلو كان نبي الله داود عليه السلام مرتكبًا للمعاصي لما كان من الحكمة أمر نبينا ﷺ بالاقتداء به؛ إذ كيف يقتدي في الصبر بمن لم يصبر عن المعصية؟!

وقد أخبر الحق جل جلاله أن لكل من داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ عنده منزلة عالية، وحسن مرجع، فقال عن كل منهما: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ (ص)، وكل هذا يدل على براءتهما مما نسب

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٢٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة (٧٩٦)، واللفظ للبخاري.

٢. عصمة الأنبياء، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص١٦٩: ١٧٥.

إليهما زورًا وافتراءً، فإن الذي يستحق الزلفى وحسن المآب لا يتصور منه صدور المعصية أو الذنب.

هذه بعض أخلاق وخصال المُصْطَفَيْنَ الأخيار الذين صنعهم الله بيده، ورباهم، ليكونوا هداة ومثالًا لمن يرجو الله واليوم الآخر، فهل يقابل إحسان الله عز وجل لعبده بشيء من الإساءة؟ أو يتصور منه صدور معصية من المعاصي؟ هذا ما لا يقول به عاقل منصف.

ثانيًا. العصمة مبدأ قرآني، ليس من أفكار المتكلمين:

مبدأ العصمة مبدأ قرآني صرف؛ إذ إنه جاء - أول ما جاء - في القرآن الكريم؛ حيث يقول الله عز وجل في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم)، ولا يجد الإنسان كلمة أوضح من هذا القول في تحديد حقيقة العصمة وواقعها في مجال الامتثال، فالآية تدل على عصمة الملائكة في مجال التكليف.

وبإمعان النظر في هذه الآية يظهر أن العصمة بمفهومها القريب - أي: العصمة عن العصيان والخطأ - مع قطع النظر عن موصوفها - الملائكة - قد طرحها القرآن الكريم، ولفت نظر المسلمين إليها من دون أن يحتاج علماؤهم إلى أخذ هذه الفكرة من الأحبار، أو الرهبان، أو حتى المتكلمين.

فإن قيل: إن ذلك في حق الملائكة، وليس في حق الأنبياء، قلنا: ليس الشأن شأن المجيء في الملائكة أو الأنبياء، وإنما القضية هي وجود المبدأ نفسه، فقد وجد في القرآن الكريم في حق الملائكة. وإن كانت هذه الآية تتحدث عن الملائكة، فلقد صرح القرآن الكريم بعصمة النبي محمد ﷺ في غير آية، ومنها:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ (النجم).

فالآيات تشير بوضوح صريح إلى عصمة النبي محمد ﷺ؛ فأنه لا ينطق عن هوى النفس، ولا تحيز الذات، وإنما كلامه وحي من الله تبارك وتعالى، ومن ثَمَّ يكون مصونًا معصومًا من الزلل في المرحلتين: مرحلة الأخذ، ومرحلة التبليغ، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (النجم). وليس ذلك في حق النبي محمد ﷺ فحسب، بل إن العصمة ثابتة للأنبياء جميعًا.

ثالثًا. العصمة منحة ربانية، ولا تعني سَلْب الاختيار:

العصمة موهبة من مواهب الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده، بعد وجود أرضيات صالحة وقابليات مصححة لإفاضتها عليهم.

فالله عز وجل يجتبي من يشاء من عباده؛ ليكونوا أسوة للخلق، ولما كان الأمر مع هؤلاء المُجتَبَيْنَ كذلك، كان لزامًا لهؤلاء أن يكونوا معصومين؛ حتى يقع كلامهم في القلوب موقعه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام).

وعصمة الأنبياء لا تعني سلب اختيارهم في ارتكاب المعاصي والآثام، وإنما هم مع قدرتهم على إتيان المعاصي والذنوب، يبعدون - بعلمهم وخوفهم من الله وحفظ الله لهم - كل البعد عن هذه الرذائل.

وأيًّا كان تفسير معنى العصمة فهي لا تسلب اختيار النبي، فالنبي مخيَّر في فعله، في إمكانه إتيان المعاصي وتركها، ومثال ذلك في واقعنا: الإنسان العاقل العالم بوجود الطاقة الكهربائية في الأسلاك المنزوعة من جلدها لا يمسّها - مع قدرته على مسِّها - إلا أنه علم بعواقب المس فتجنبه، وكذلك الطبيب الذي يرى المسلول أو المجذوم يشرب من ماء؛ فإن هذا الطبيب - لعلمه بعواقب استعمال الماء بعد هذا المريض - يتنزه عن استعماله؛ خوفًا على نفسه، مع قدرته على استعماله.

وكذلك الأنبياء لما حصل لهم يقين العلم بالله، وعرفوا حقيقة أمره ونهيه، وما هو نعيمه وعذابه؛ تجنبوا، بل فروا من المآثم فرار الطبيب من المجذوم؛ ولذلك نجد النبي ﷺ يقول لأصحابه: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا"[1].

إن هذه الميزة - العصمة - لا تغير الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية، ولا تخرجها إلى ساحة الإجبار والاضطرار. كيف والعلم من مبادئ الاختيار؟ ومجرد قوة العلم لا يوجب إلا قوة الإرادة، كطالب السلامة إذا أيقن بكون هذا المائع الذي أمامه سُمًّا قاتلًا، فمن حين علمه بتلك الحقيقة، يمتنع عن شرب ذلك المائع باختياره.

تلك هي حقيقة عصمة الأنبياء، التي لا تسلبهم إرادتهم - كما زعم بعض المتوهمين - وإنما تحفظهم بحفظ الله ﷻ من الوقوع في رذائل الأمور؛ لأنه ﷻ إنما أرسلهم لهداية البشر، فليس من المعقول أبدًا أن يتركهم يتخبطون في ظلام الآثام والمعاصي كسائر البشر، فلا بد لهؤلاء الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - من خصائص فريدة، وميزات عديدة، تميز هؤلاء الأنبياء بين أقوامهم الذين أُرسلوا إليهم.

ويشهد لذلك القول قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنعام). وتفيد هذه الآية إمكانية وقوع الشرك من هؤلاء الرسل، إلا أن اجتباء الله، وهدايته لهم، وتعليمه إياهم بحقيقة العبادة، وأصول الاعتقاد، كل ذلك منعهم من الوقوع في الشرك.

وعليه فلا مجال للقول بأن عصمة الأنبياء - عليهم السلام - تعني سلب الاختيار عنهم، أو إنها مجرد فكرة من أفكار المتكلمين عن السلب والاختيار.

الخلاصة:

- العقل والنقل يثبتان العصمة للأنبياء، حتى يسلم لهم - صلوات الله وسلامه عليهم - مبدأ الطاعة والاقتداء.
- العصمة مبدأ قرآني، ولم يكن من أفكار المتكلمين؛ لأن علم الكلام لم ينشأ أساسًا - إلا في ضوء الاختلافات المذهبية والفكرية في القرن الثاني الهجري.
- إن الله يجتبي من يشاء من عباده، ويعصمهم من الوقوع في الأخطاء؛ ليصح الاقتداء بهم، والعصمة منحة ربانية، يتفضل الله بها على أنبيائه؛ ليكونوا أسوة للخلق، وهي ليست أمرًا مكتسبًا.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (٩٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (٢١٢٧).

- العصمة لا تعني سلب الحرية، والجبر على الفعل، فهي لا تعني سلب حرية الأنبياء في ارتكاب المعاصي والآثام، وإنما هم مع قدرتهم على إتيان المعاصي والذنوب إلا أنهم ـ بعلمهم وخوفهم من الله، وحفظ الله لهم ـ يبعدون كل البعد عن هذه الرذائل والمعاصي.

الشبهة الثالثة بعد المائة

ادعاء أن القرآن يأتي بأحداث لا وجود لها في الحقائق التاريخية (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المتوهمين أن القرآن الكريم يأتي بأحداث مبهمة لا وجود لها في الحقيقة، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان). ويتساءلون: من هم أصحاب الرس؟ وفي أي البلاد كانوا؟ وفي أي الأزمان عاشوا؟ ولماذا لم يوضح لنا القرآن ذلك إن كان لهم وجود؟!

وجها إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأشملها وأكملها؛ حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، كما أن عدم العلم بالشيء ليس دليلًا على عدم وجوده.

(*) موقع ابن مريم.

٢) من قصص الأمم ما ذكرها القرآن مفصَّلًا وكرّرها، وفيها ما يختصر ذكرها، ومنها ما يشير إليها إشارة عابرة، ومنها ما يطوى ذكره؛ ليحتفظ علام الغيوب به عنده.

التفصيل:

أولا. القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأشملها وأكملها:

القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل الذي لم تمتد إليه يد البشر بالتحريف أو التبديل أو التغيير، فهو آخر الكتب السماوية وخاتمها، وأشملها، وأكملها؛ حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، ولهذا جعله الله تعالى مهيمنًا، أي: شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، فما وافق القرآن من الكتب السماوية فهو حق، وما خالفه فهو باطل[1].

كما أن عدم العلم بقصة أصحاب الرس ليس حكمًا بعدم وجودها، فلم يذكر التاريخ كل شيء حتى يُنكر ما لم يرد فيه، وعلى هذا فإن هؤلاء المشككين كان ينبغي عليهم فيما ورد من حقائق في القرآن لم يعلموها، أن يسألوا إذ جهلوا، ويطلبوا العلم من أهله، أمَّا أن يكون الإنسان جاهلًا بالشيء ثم يدَّعي عدم وجوده، لا لدليل قائم لديه يقوِّي زعمه أو بينة تدعم قوله، فهذا هو الجهل المركب.

ثم إننا نسألهم عن مقدار علمهم وما الذي قد علموه من أحداث البداية والنهاية في الخلق وشئون الحياة منذ أن أوجدها بارئها عز وجل.. إن موسى لما التقى

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٤ بتصرف.

بالخضر - عليهما السلام - فسلم عليه، فردَّ الخضر عليه السلام وقال: "هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم؛ قال: فما شأنك؟ قال: جئتُ لتعلمني مما عُلِّمْتَ رشدًا. قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟! يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله، إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر"[1][2].

فإذا كان ذلك علم الأنبياء والأولياء الذين وهبهم الله علمًا لم يعطه أحدًا غيرهم، فما بالنا بغيرهم من البشر العاديين، ماذا يساوي علمهم في جنب علم الله تبارك وتعالى؟!

ثانيًا. من قصص الأمم ما ذكرها القرآن مفصلا وكررها، وفيها ما يختصر ذكرها، ومنها ما يشير إليها إشارة عابرة، ومنها ما يطوى ذكره ليحتفظ علام الغيوب بعلمه:

الرسُّ في كلام العرب: البئر غير المطويَّة، والجمع رِساس[3]، قال النابغة الجعدي: تنابلة يحفرون الرساسا، يعني: آبار المعادن. وأصحاب الرسِّ: قوم من بقايا ثمود؛ لذلك لم يذكر الله ﷻ قصتهم إلا عرضًا، فهم كقوم تُبَّع الذين كانوا من قبائل سبأ، أغنى عن ذكرهم تفصيلًا ما ذكره الله عن سبأ[4].

إن أصحاب الرس من بين الهالكين الذين لم تبق من بعدهم ذرية، ولم تبق لهم آثار، تدل عليهم والله ﷻ ينوِّع في ذكر الأمم الخوالي؛ ليبين لنا أن قدرته تناولت كل مقدور، فمن هذه الأمم من بقي من بعدها ذرية لا تزال موجودة، وهم قوم موسى، ومنهم من استؤصلوا ولم يترك من بعدهم نسل وهم عاد، وثمود، وأصحاب الرس، وهناك أمم كثيرة عاشوا في قرون متطاولة، على مدى التاريخ الإنساني طوي ذكرهم، فما أكثر الهالكين! كما قال ﷻ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الفرقان)، وهناك من الأمم من أهلكوا، وبقيت آثارهم تدل عليهم، كقوم لوط ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الفرقان). وهذا التنوع في ذكر قصص السابقين مقصود ملحوظ، وهل كل ما لم يعرفه الإنسان لا وجود له؟ وهل سُجِّل في التاريخ كل شيء حتى يُنكر ما لم يرد فيه؟

ثم إن القرآن يطلب من أتباعه، بل من البشرية جمعاء أن تسير في الأرض، وتبحث لتعرف ما خفي عنها، وإشارات القرآن مقصودة في ذاتها للبحث والتقصِّي، وما زال العلم يطلع علينا بما يكشف عن بعض الأمور التي تركها القرآن للإنسان؛ ليصل إليها بجهده وبحثه.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الكهف (٤٤٤٩).

٢. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢١٦.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٣، ص٣٢.

٤. قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٠٦ بتصرف.

ومـن الجـدير بالـذكر في هـذا المقـام أن القـصة في القرآن أنواع، فهناك القصة المطوَّلة التي يسردها القرآن ويفصلها كقصة يوسف وقصة موسى عليهما الـسلام، وهناك القصص القصيرة التي يختـصر القـرآن ذكرهـا كقصة ذي القرنين، وهناك القـصة تتنـزل بطلـب مـن الناس كقصة أصحاب الكهف، وهنـاك القـصة التـي يشير إليها القرآن إشارة عابرة كقصة أصحاب الرس، وقوم تُبَّع، وهناك القصة التي يطوى ذكرهـا ليحـتفظ علام الغيوب بعلمها[1].

الخلاصة:

- القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لم تمتد إليه يد بـالتحريف والتبـديل، فهـو خـاتم الكتـب الـسماوية وأشملها وأكملها، وهو الحاكم عليها كلها، فـما وافـق القرآن من الكتب السماوية والتـاريخ فهـو حـق، ومـا خالفه فهو باطل، كما أن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجود هذا الشيء.
- أصحاب الرس هم قوم من بقايا ثمود؛ لـذلك لم يذكر الله تعالى قصتهم إلا عَرَضًا.
- قصة أصحاب الرس من القصص التـي أشـار إليها القرآن إشارة عـابرة، وهـذا نـوع مـن القـصص القرآني فهنـاك القـصة المطوَّلـة كقـصة يوسـف ، وهناك القصة القـصيرة كقـصة ذي القـرنين، وهنـاك القصة التي يشار إليها إشارة عابرة.

1. موسوعة القـرآن العظـيم، د. عبـد المـنعم الحفنـي، مرجـع سابق، ج١، ص٨٣١.

محمد رسول الله ﷺ (*)

أشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله، لا مفر من هذه الشهادة، بل إنه لا تقبل ـ في الأوضاع المستقيمة ـ شهادة "أن لا إله إلا الله" دون شهادة "وأن محمدًا رسول الله" وهما إقرار متكامل بالإيمان، إقرار لا يتجزأ.

كيف نشهد أن محمدًا رسول الله؟

يقول الإمام الغزالي: "فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا، فلا يحصل لك اليقين إلا بمعرفة أحواله: إمَّا بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب، والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمعرفة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعي ـ رحمه الله ـ فقيهًا، وكون جالينوس طبيبًا، معرفة بالحقيقة، لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئًا من الفقه والطب، وتطالع كتبهما وتصانيفهما؛ فيحصل لك علم ضروري بحالتهما، فكذلك إذا فهمت معنى النبوة".

ونريد الآن أن نشرف بمرافقة الرسول ﷺ؛ لنشهد بعض سناء النبوة ولألائها فيه ﷺ:

إنه سليل أمجاد، يحدثنا التاريخ عن شرفهم وعراقة أصلهم، وعن المكرمات التي كانوا يقومون بها من أجل الإنسانية ومن أجل الخير:

وقُصَيّ ـ أحد أجداده ﷺ ـ ابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت، وكانت دار الندوة هذه تسمَّى مجلس الشورى، وهي البرلمان، وهي المجلس التنفيذي، بل إنها كانت أوسع من ذلك كله، ففيها يكون أمر قريش كله وما أرادوا: من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لواء حرب لهم، ولا لقوم غيرهم إلا في دار الندوة يعقده لهم قصي.

ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفًا لقصي وتيمنًا برأيه، ومعرفة بفضله، فكان أمره كالدين المتبع لا يُعْمَل بغيره في حياته، وبعد موته.

وتابَعَه ابنه عبد مناف: فاضل هو الآخر، في الذروة والسنام شرفًا في قومه.

وكذلك كان أمر هاشم بن عبد مناف: الذي أنقذ أهل مكة من الموت جوعًا في السنين الجدباء التي أصابتهم، والتي ذهبت بأموالهم.

أما عبد المطلب الجد المباشر للرسول ﷺ، فقد كان من حكماء العرب وكان من حكام قريش: وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، كالمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة.

وإذا نظرنا إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده أو من ناحية والدته فإنهما: خلقًا وعراقة أصل، من أشرف بيوت مكة وأكرمها، وأسماها بشهادة المؤرخين عن بكرة أبيهم، فكان الرسول ﷺ ـ كما يقول ابن هشام ـ أوسط قومه نسبًا،

(*) الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

وأعظمهم شرفًا من قبل أبيه وأمه.

وَوُلِد ﷺ فأرّخ ميلاده ابتداء التمهيد لما أرادته الحكمة الإلهية من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور. كان ميلاده تمهيدًا لذلك بمعنى: أن الله ﷻ في هذه الفترة التي سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام برعايته وعنايته؛ ليكون أهلًا لأن يحمل أعظم رسالة؛ ولأن يبشِّر بالدين العام، ولأن يبيِّن للإنسانية أجمع عن المعنى الصحيح، فيما يتعلق بأمر الصلة بينها وبين الله، وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه وبالنسبة للآخرين؛ وليحدد مسئولية كل شخص في المجتمع: حاكمًا كان أو محكومًا، وزوجًا كان أو أبًا، أو ابنًا، أو أخًا، أو رئيسًا أو عاملًا إلى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف: "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيَّته؛ الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته"[1].

ومنذ ميلاده ﷺ بدأت تتزلزل جميع أسس الضلال والانحراف، وترمز إلى ذلك السيرة النبوية برموز جميلة فتحدثنا: أنه في ليلة ميلاده غاضت بحيرة ساوى، وتصدَّع إيوان كسرى، وخَبَت نار الفرس، أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فإن مصيرها المحتوم، وتحطيمها المؤكد قد تحدّد موعده بالسنين والأيام.

إن أعمدة الشرك والضلال، والانحراف، والظلم، والاستعباد بدأت تتهاوى وتنهار منذ ميلاد الرسول ﷺ وأصبح أمر النور والهداية، والرشاد، وشيك الظهور والانتشار.

وسُمِّي المولود "محمدًا"، أما سبب هذه التسمية فهو من جانب أن آمنة أتاها ـ فيما يُروي ـ آت حين حَمَلت به، فقال لها: إنك قد حملت بسيِّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سمِّيه "محمدًا".

ومن جانب آخر: فهو حينما جاء جده عبد المطلب؛ ليراه قيل له: ما سمَّيت ابنك؟ فقال: محمد. فقيل له: وكيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم، وذلك ـ حسبما يروي السهيلي ـ لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب، وقد ذكر حديثها على القيرواني في كتاب "البستان" قال: إن عبد المطلب قد رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وغدا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصَّها فعُبِّرت له بمولود يكون من صُلْبِه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض؛ فلذلك سماه "محمدًا".

وأخذت حليمة السَّعديَّة رسول المستقبل إلى بادية بني سعد، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٤٨٢٨)، واللفظ للبخاري.

هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية، بالبهجة والنشاط والأمل والتفاؤل.

وإن الأبحاث الحديثة نفسها، وتجارب الإنسانية منذ أن وُجدت الإنسانية تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفي على المرافقين لهم بهجة ونشاطًا، فلا غرابة ـ إذن ـ أن تنشط حليمة وينشط زوجها، وتنشط دوابهما وأن تسير الرحلة رخاء، وأن يكون محمد في براءته وطهارته، وفي طفولته الباسمة ونضارته المتألقة هو سبب ذلك كله.

ويملأ محمد ﷺ بيت حليمة بهجة وسرورًا، ويَدِبُّ النشاط في جميع أرجاء البيت وسكانه، ويبارك الله في كل شيء فيه، وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة، فيزيد عطفها على محمد ﷺ، ويزيد حنانها عليه؛ فينمو في جو من الرحمة والود والحنان، وينغرس كل ذلك في نفسه، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم.

وفي عامه الرابع ﷺ في هذه السن التي يبتدئ الإنسان فيها بنوع من التمييز حصَّنته رعاية الله بما تعبِّر عنه السيرة النبوية بـ "شقِّ الصدر"، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغِلْمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب، فاستخرج منه عَلَقَة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، فقالوا: إن محمدًا قد قُتِل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون[1].

لقد استخرج جبريل حظ الشيطان من قلبه في هذه السن المبكرة، فكان كما تقول السيدة آمنة: والله ما للشيطان عليه من سبيل، وحقيقة أنه ﷺ لم يكن للشيطان عليه من سبيل، فقد عصمه الله عصمة تامَّة عن الرجس طِيْلَة حياته.

لقد كانت مكة ـ حينما كان رسول الله ﷺ شابًا فتيًا قويًا ـ تعجُّ بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة، فكانت بيوت الخمر منتشرة فيها، وكذلك البيوت المُرِيبة، وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمَنْأًى عن كل ذلك.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممتُ بقبيح مما يهمُّ به أهل الجاهلية إلَّا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهلنا نرعاها: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دُفوف ومزامير، قلت: ما هذا؟ قالوا: فلانٌ تزوَّج فلانة لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلَهَوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غَلَبَتْنِي عيني فنِمْتُ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فسمعت كما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا"، قال رسول الله ﷺ: "فوالله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته"[2].

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (٤٣١).

٢. حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

وهذا الخبر الذي يفيدنا عصمة رسول الله ﷺ من شرور الجاهلية ومفاسدها، يعرِّفنا بأمر آخر، وهو: رعاية محمد ﷺ قبل بعثته للغنم، لقد كان ﷺ يرعاها في بادية بني سعد، وقد كان يرعاها في مكة، وقد أخبر ﷺ أنَّ موسى عليه السلام بعث وهو راعي غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وإنما جعل الله هذا في الأنبياء تقدمة لهم؛ ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعاية لهم. ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكي.

وأشهد أن محمدًا رسول الله:

وصفه قومه بالأمين؛ لما رأوه ولاحظوه وحققوه، وأيقنوا به من صفات تتمثل فيها الأمانة واضحة وضَّاءة. لقد كان أمينًا على نفسه، فلم يسلمها إلى مهاوي الشرك، أو الشهوة، أو الرجس. وكان أمينًا على الناس، فلم ينتهك عرضًا، ولم يوقع بعض القوم في بعض بالنميمة ولم يَغْتَبْ. وكان أمينًا على الأموال التي تودع عنده؛ ليتاجر بها، أو ليحفظها، فلم يختلس، ولم يَغُشّ ولم يسرق. وكان أمينًا على الحديث إذا تحدث، فلا كذب، ولا مغالاة. وكان أمينًا على الأسرار؛ فلم يُفْشِها ولم يُذِعْها.

إنه الأمين.. أجمع عليها القرشيون، وقالوها حينما اختلفوا في رفع الحجر الأسود، واستلوا السيوف، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم، ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول آت، فغمرتهم الفرحة، حينما رأوا محمدًا، وصاحوا: إنه الأمين.

والأمين كلمة تعني: الصادق المخلص، فالصدق والإخلاص عنصران تتكون منهما الأمانة، وكانت هذه الأمانة معروفة عنه ﷺ في شبابه، وفي حياته كلها، وهو القائل فيما بعد: "لا إيمان لمن لا أمانة له"[1].

وعند بدء دعوته جهرًا؛ حينما نزل قوله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ (الشعراء).

صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: "يا بني فِهْر، يا بني عدي" - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم أكنتم مصدِّقيّ". قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)﴾ (المسد)[2].

وإذا كان رسول الله ﷺ قد طرح الثِّقة بنفسه على قريش برفعه عَلَم الأمانة هذا في وجوههم، فإنه كان مطمئنًا واثقًا من أن حياته، هي من الصفاء بحيث لم يَشُبْها ما يجعل رأي قريش فيه قبيحًا. لقد كانت حياته البراءة الكاملة،

---

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٢٤٠٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان (١٩٤)، وحسنه الارنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ (الشعراء)، واللفظ للبخاري.

والطُّهْر التام، وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى في صراحة، وأن يعلن في وضوح أن حياته تُثْبِت صدق ما يقول.

ولو تمثَّلت الأمانة ـ الصدق والإخلاص ـ في كل من يحيطون به من المكيين، ما كان في حاجة إلى رفع عَلَمِه هذا، فقد كان يكفي الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة. وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون لما توفر فيهم من الصدق، والإخلاص لأنفسهم وللآخرين، أي: لما توفر فيهم من الأمانة، لقد آمنت خديجة، وآمن أبو بكر، وآمن ورقة وغيرهم، بمجرد أن أخبرهم بأمره، وآمنوا لما يعرفون فيه، ولما يعلمونه من حياته.

ولقد أقرَّ بهذه الصفة ـ صفة الأمانة ـ أبو سفيان في وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول ﷺ. سأله هرقل قائلًا: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. وكان استنتاج هرقل: إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. سأل هرقل أبا سفيان أيضًا: عمّا إذا كان قد أُثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفي. فقال له هرقل: سألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا. كذلك الرسل لا تغدر.

وحديث هرقل هذا مع أبي سفيان جدير بالتأمل، فهو استنتاج عاقل، ومنطق مُتروٍّ، ونأخذ منه الآن ما يتصل بحياة الرسول ﷺ وندع ما يتصل بالرسالة لما بعد، يقول هرقل لأبي سفيان: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسَّى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرت: أن لا. قلت: لو كان من آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب مُلْك أبيه[1].

وإذا نظرنا إذن إلى حياة الرسول ﷺ من ناحية الوراثة، أو من الناحية النفسية، فإننا نجد: أنها تحقق صدقه. لقد كانت حياته ﷺ شرحًا مستفيضًا، وتوضيحًا كاملًا، وتعبيرًا تامًّا لما ذكره ابن خلدون: وما يتفق عليه العقلاء، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة: من أن علامات الأنبياء: "أنه يوجد لهم قبل الوحي خُلق الخير والذكاء، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لجبلته".

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول: وفي الصحيح أنه حمل الحجارة ـ وهو غلام ـ مع عمه العباس لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره، فانكشف، فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره. ودُعِي إلى مجتمع وليمة فيها عُرْس ولعب؛ فأصابه غشي النوم، إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضر شيئًا من شأنهم. بل لقد نزَّهه الله عن ذلك كله، حتى إنه بجِبلَّته يتنزه عن المطعومات المستكرهة، فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك، فقال: "إنني أناجي من لا تناجي"[2].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب صفة الصلاة، باب ما جاء في الثوم النَّيء والبصل والكراث (٨١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كرّاثًا أو نحوها عن حضور المسجد (١٢٨١).

ومن الملاحظات الدقيقة التي وجّه ابن خلدون الأذهان إليها مشيرًا بها إلى أن الملابسات والظروف والجو الذي عاش فيه الرسول ﷺ وحياته قبل البعثة وبعدها، إنما كان كل ذلك خيرًا وفضيلة، سواء من ناحية سلوكه الشخصي، أو من ناحية صلته بملك الوحي، يقول ابن خلدون: وانظر لما أخبر النبي ﷺ خديجة ـ رضي الله عنها ـ بحال الوحي أول ما فاجأته وأرادت اختباره، فقالت: "اجعلني بينك وبين ثوبك، فلما فعلت ذلك ذهب عنه". فقالت: "إنه مَلَك وليس بشيطان". ومعناه: أنه لا يقرب النساء، وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها. فقال: "البياض والخضرة". فقالت: إنه ملك. يعني: أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين، وأمثال ذلك".

هذا النهج الذي نهجناه في هذا الحديث، والذي اتجه إليه ابن خلدون: واتجه إليه من قبله هرقل: هو نهج الفطرة، ونهج العقل، وهو النهج القرآني، إنه نهج الفطرة؛ ولذلك قالت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ على البداهة للرسول ﷺ حينما فاجأها بخبر الوحي، وقال لها: "لقد خشيت على نفسي" قالت له: "كلا.. والله ما يخزيك الله أبدًا: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"[1].

ونحن حينما ننهج هذا النهج، فإنما نتأسى بالقرآن الذي بيَّن أن حياته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تقف دليلًا واضحًا على أنه صادق في كل ما يقول، فهو على خلق عظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم). ويقول ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2].

وهذا الجانب الخلقي فيه: يعرفه قومه، ومواطنوه حق المعرفة، فقد كانوا يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم وإخوتهم، لا تخفى عليهم من سلوكه خفية.

ويوجه القرآن تفكيرنا إلى أنه ﷺ كان أميًّا، فما كان يتلو من قبل من كتاب ولا يخطه بيمينه، إذن لارتاب المبطلون: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت).

ثم إن مما يلفت النظر في قوله: إنه مكث فيهم أربعين سنة، لا يتحدث عن رسالة ولا نبوة، ومضى عهد الشباب الطموح لم يعلن فيه شيئًا، ولم يتحدث فيه بزعامة، ولا مُلْك ولا نبوة، فلما اكتمل نضجًا وعقلًا تحدث عن اجتباء الله له واختياره لأداء الرسالة: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس).

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

2. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين، باب كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (٢٠٥٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

ويتحدى القرآن المنكرين في صدقهم وإخلاصهم، وإن شئت فقل: في أمانتهم فيعرض عليهم أمرًا واحدًا سهلًا لا يشق عليهم تنفيذه. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ (سبأ).

وأشهد أن محمدًا رسول الله:

ما من شك في أن كل شخص مخلص يستمع إلى الدعوة الإسلامية، يقر مع النجاشي: أن الذي جاء به محمد ﷺ والذي جاء به عيسى ؈ يخرج من مشكاة واحدة. لقد كان النجاشي يؤمن بعيسى إيمانًا لا يخالجه فيه شك، فلما سمع وصفًا لموضوع الدعوة الإسلامية، آمن بمحمد ﷺ إيمانًا كإيمانه بعيسى ؈ في صدقه، وفي أنه يستمد دعوته من الله.

لقد قالها النجاشي حينما سمع جعفر بن أبي طالب ؓ يقصُّ عليه أمر الجاهلية وأمر الإسلام، وقد عاش جعفر بن أبي طالب حياة الجاهلية، وعاش حياة الإسلام، وكل الأخبار والوثائق، تؤيده فيما يتعلق بالجاهلية، والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة تؤيده فيما يتعلق بالإسلام، يقول جعفر: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا - من دونه - من الحجارة والأوثان. وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا..."[1]، فلما سمع النجاشي ذلك، وقر في قلبه يقين لا يتزعزع بصدق محمد ﷺ، فقال كلمته المشهورة السابقة.

أما هرقل فإنه حينما سأل أبا سفيان عن الدعوة الإسلامية، ذكر له أبو سفيان أن محمدًا يأمر الناس أن: "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة، والصدق، والعفاف والصلة". فقال هرقل: "فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَيّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أنني أخلصُ إليه، لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدمه"[2].

هذا النهج - الاستدلال بالدعوة على الصدق، وجعل النظر في الدعوة إحدى الوسائل التي تُسْلِم مع غيرها من

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث جعفر بن أبي طالب ؓ (٢٢٥٥١)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر بيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١١٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

الملابسات إلى اليقين بصدق الداعي - الذي اتخذه هرقل والنجاشي هو النهج الذي أقرَّه الإمام الغزالي، فإنك إذا: أكثرت النظر في القرآن والأخبار، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة.

وأُعضِّد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله: "من أعان ظالمًا بباطل ليدحض بباطله حقًّا فقد برئ من ذِمَّة الله وذمة رسوله"[1].

إن النظر إلى الدعوة الإسلامية في نظر الإمام الغزالي، هو إحدى الوسائل التي تثبت صدق الرسول ﷺ، وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال العالم الاجتماعي الكبير ابن خلدون، وهو يستوعب - في نظرة عامة - الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات، وننقل هنا ما كتبه خاصًّا بموضوع الاستدلال بالدعوة - حينما تكون الدعوة خيرًا محضًا كالدعوة الإسلامية - على صدق الرسول فيما يدعيه، يقول:

ومن علاماتهم أيضًا:

دعاؤهم إلى الدين والعبادة: من الصلاة، والصدقة، والعفاف، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، كذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه، وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد في بلده من قريش، وفيهم أبو سفيان يسألهم عن حاله، فكان فيما سأل أن قال: بم يأمركم؟ فقال أبو سفيان: "بالصلاة، والزكاة، والصلة، والعفاف... إلى آخر ما سأل فأجابه، فقال: إن يكن ما تقوله حقًّا فهو نبي، وسيملك ما تحت قدمي هاتين". والعفاف الذي أشار إليه أبو سفيان: "هو العصمة".

فانظر كيف أخذ هرقل من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة، دليلًا على صحة نبوته ﷺ، ولم يحتج إلى معجزة، فدل ذلك على أن ذلك من علامات النبوة. والواقع أننا إذا نظرنا إلى موضوع الرسالة الإسلامية، فإننا نجده يحقق في صورة دقيقة الهدف الذي حدده الله من إنزالها، وهو الرحمة العامة، يقول تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء).

والرحمة إذن هي الطابع العام، لكل تعاليم الإسلام سواء في ذلك ما يختص بالمجتمع أو ما يختص بالفرد، وسواء في ذلك ما يتصل بالجانب العقلي أو الجانب الأخلاقي أو الجانب التشريعي. وهذه الرحمة تظهر في مختلف ميادين النشاط الإنساني بصور متعددة، فتظهر في المجتمع بمظهر العدالة والأخوة، وقد ربط الإسلام المجتمع بعضه ببعض برباط كرباط البناء المحكم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا"[2].

وبتماسك كتماسك الجسد الحي الذي يسعد جميعه أو يشقى جميعه، بسعادة أعضائه أو بشقائها، قال رسول الله:

---

1. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢١١) برقم (٢٩٤٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٨).

2. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره (٤٦٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٦٧٥٠).

"مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"(١).

وهذا الإحكام وهذا الترابط إنما كان بسبب العدالة السارية التي تكبح شهوات الجموح، وتفيء بالمسرفين إلى سبيل الاعتدال.

والأخوة بجوار العدالة عامل ثان من عوامل الترابط والتماسك، والمؤمنون لوحدة أهدافهم، ولوحدة آمالهم هم إخوة متعاونون: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر: ٣).

وهذا الدين الخالص إنما هو العبودية الكاملة لله وحده، وإذا ما وجدت هذه العبودية، وُجِد الإيثار والتضحية، والبذل والفداء، ووُجِد كل خلق كريم، وكان البعد عن كل خلق ذميم، وأصبح الإنسان الذي يتمثل فيه ذلك رحمة أينما حلَّ وحيثما أقام، ولكنه هو نفسه يصبح أيضًا بعبوديته هذه في كنف الله ﷻ وفي رعايته، وكان آمنًا على نفسه وعلى ذويه سعيدًا بعناية الله ﷻ به وتوفيقه له، فهو إذن مغمور برحمة الله.

والمثل الأعلى الذي تمثلت فيه الرسالة الإسلامية خير تمثيل، إنما هو رسول الله ﷺ لقد كان خلقه القرآن - كما جاء على لسان عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - لقد خالط القرآن لحمه ودمه ﷺ، وتلألأ نور القرآن في روحه وبدنه، وامتزج ﷺ بالرسالة الإسلامية وامتزجت به، فكانت هي الرحمة المرسلة، وكان هو الرحمة المهداة.

وإذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية فإننا نشهد: أن محمدًا رسول الله، صلوات الله ورحمته عليه، وبركاته، وتحياته وسلامه عليه(٢).

الرسول ﷺ في مواجهة الشبهات:

وإن المتأمل لما أُثير حول النبي ﷺ يُدرك أنه لم تَحْظَ شخصية في التاريخ البشري العريض بمثل ما حَظِيت به شخصية النبي الكريم محمد ﷺ، سواء من الإشادة والتمجيد، وهذا هو التيار العام والغالب الذي ظل ولا يزال يسير بشكل يتوخَّى الإنصاف والموضوعية في ناحية التقدير الحقيقي لأثره ﷺ في تاريخ البشرية، ولفضل رسالته على الإنسانية. أو من الادعاءات والافتراءات والأباطيل، والطعن والتشكيك، وهذا هو التيار القليل الحاقد الذي يفتقد الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق.

بتصدِّينا لهذا التيار منحرف الفكر والمنهج والغاية وجدنا نشاطه - بما يثيره عن نبينا الكريم المعصوم - من الكثرة والتنوع بحيث يجدر بنا أن نُفْرِد لإبطاله موسوعة مستقلة، ومن هنا لم نتردَّد في التوكل على الله، قاصدين هذه الغاية، وهي إنجاز موسوعة: "**الرسول ﷺ في مواجهة الشبهات**"، ماضين في سبيلها بجدٍّ وثبات، متبعين منهجًا جديدًا في

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٧٥١).

٢. انظر: الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، مرجع سابق.

تصنيف ما وُجِّه إليه ﷺ من شبهات وافتراءات، بغرض محاولة النيل من شخصه ﷺ: إنسانًا، ونبيًّا مرسلًا، وقائدًا، ثم عرضها وإبطالها بالحجة الدامغة، آخذين في الاعتبار كل الجهود التي بُذلت ـ ولا تزال تُبذَل ـ في هذا الصدد، سائلين المولى ﷻ أن يتقبله وينفع به.

المصادر والمراجع

- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الأدلة الكتابية على فساد النصرانية، د. أحمد حجازي السقا، دار الفضيلة، القاهرة، د. ت.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الأديان في القرآن، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د. ت.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمود العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، د. ت.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- أساقفة كنيسة إنجلترا وألوهية المسيح، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، كتاب المختار، القاهرة، ١٩٩١م.
- استحالة تحريف الكتاب المقدس، القمص مرقص عزيز خليل، كنيسة القديسة العذراء والشهيدة دميانة المعلقة، مصر، ٢٠٠٣م.
- أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، جون هك، ترجمة: نبيل صبحي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٨م.
- الإسلام بدون حجاب، أبو عبد الله العربي، د. م، د. ن، د. ت.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- أصول العقيدة الإسلامية دراسات وبحوث، د. محمد سلامة أبو خليفة، مكتبة دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- أضواء على أحاديث الإسراء والمعراج، د. سعد المرصفي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- أضواء على المسيحية: دراسة تحليلية للكتاب المقدس، أحمد ديدات، ترجمة: د. عادل جلول، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- إظهار الحق، قساوسة وعلماء مستشرقون أشهروا إسلامهم، محمد عبد الحليم عبد الفتاح، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي، تحقيق: عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٨م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديث، الرياض، ١٩٥٤م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بنو إسرائيل من التاريخ القديم وحتى الوقت الحاضر، د. محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- البهريز في الكلام اللي يغيظ، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- البيان في تحليل وتوجيه الإشكالات التي تثار حول قصص القرآن، د. عاطف قاسم المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- بين الدين والحياة في رحلة قطار، د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي، جلال الدين المحلي، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٤١م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.
- التفسير الوسيط، د. سيد طنطاوي، دار الرسالة، القاهرة، ط ٤، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

- تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، أبو الحسن علي بن أحمد السبتي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجنة والنار، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، د. ت.
- الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح، الألوسي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- جولة نقدية في نصوص الرواية التوراتية، محمد صالح توفيق، دار الهاني، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حائط البراق وليس حائط المبكى، د. عادل حسن غنيم، مجلة رؤية، السلطة الفلسطينية، د. ت.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤م.
- الحوار دائمًا، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، د. أحمد الصباحي عوض الله، مكتبة مدبولي، القاهرة، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- دائرة معارف الفقه والعلوم الإسلامية، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- دراسات في العقيدة الإسلامية، د. محمد أحمد الخطيب، د. محمد عوض الهزايمة، دار عمار، الأردن، ط٥، ١٩٩٧م.
- دراسات لغوية مقارنة، د. محمد صالح توفيق، مطبعة الزهراء، القاهرة، د. ت.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف الأمريكية، القاهرة، د. ت.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٢م.
- دلائل النبوة، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة،

ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، عبد المجيد صبح، دار المنارة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجموعة علماء، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الردود الجلية على من اتهم المسيح بالألوهية، جمع وترتيب: أبو بصير، دار الفرقان، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- رسالة للرد على رسالة تنصيرية شهيرة تزعم ألوهية المسيح من القرآن، إعداد وترتيب: محمود مهران، د. م، د. ن، د. ت.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس، الأردن، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ٢٠٠٢م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرح ابن العثيمين، دار ابن الجوزي، الرياض، ط٣، ١٤١٦هـ.
- الشرق الأدنى القديم، عبد العزيز عثمان، كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٢م.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صيحات تحذير من دعاة التنصير، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، مطبعة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، د. ت.
- العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة،

١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي، د. أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغبي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.
- عيسى ليس المسيح الذي تفسيره المسيا، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- عيسى ومريم في القرآن والتفاسير، مجموعة مؤلفين، إشراف: يوسف قزما خوري، المعهد الملكي للدراسات الدينية، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٦م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل، ابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في الطريق إلى الله: التوكل، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القرآن ونقض مطاعن الرهبان، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- قصة الهداية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.
- القصة في القرآن، محمد قطب، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: محمد بن الملك الزغبي، دار المنار، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص الأنبياء، محمد متولي الشعراوي، دار القدس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت.
- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- اللقاء بين الإسلام والنصرانية، مناظرة بين الشيخ أحمد حجازي السقا والأنبا غريغوريوس، دار البشير للنشر

والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤م.

- مؤلفات أحمد ديدات: المجموعة الثالثة، أحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، رمضان الصفناوي، علي عثمان، مطبعة كتاب المختار، القاهرة، د. ت.
- ما فرطنا في الكتاب من شيء، د. أحمد شوقي إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- المائة الأعظم أثرًا في التاريخ، ميخائيل هارث، ترجمة: علي الجوهري، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محاضرة عن ألوهية المسيح في كتب الآخرين، ميخائيل الإسكندر، تادرس يوسف، مؤتمر في شبين الكوم، المنوفية، مصر.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، محمد أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، مصر، ٢٠٠٣م.
- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.
- مدرسة الأنبياء: عبر وأضواء، محمد بسام الزين، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المسيح في مصادر العقائد المسيحية، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- المسيحية والإسلام والاستشراق، محمد فاروق الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مشكل الحديث وبيانه، ابن فورك، تحقيق: د. موسى محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- المصطفون الأخيار، عطية صقر، دار مايو، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مع الأنبياء والرسل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- المفردات، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة بيروت، د. ت.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، العراق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، د. ت.
- مكانة المرأة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.
- من إعجاز القرآن، رءوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣م.
- المناظرة الكبرى مع القمص زكريا بطرس حول ألوهية يسوع، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- مناظرة بين الإسلام والنصرانية لمناقشة العقيدة الدينية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، دار الحديث، القاهرة. ط٢، ١٤١٢هـ.
- مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق بحث من المستشرقين، ترجمة نخبة من الأساتذة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبوات، ابن تيمية، مكتبة فياض، المنصورة، ط١، ٢٠٠٥م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- النبوة والأنبياء في والمسيحية والإسلام، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- نسيم الرياض، الإمام أحمد شهاب الدين الخفاجي، المطبعة الأزهرية المصرية، القاهرة، د. ت.
- نصارى نجران بين المجادلة والمباهلة، د. أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، د. ت.
- نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار ابن القيم، القاهرة.

- هذا هو الحق، رد على مفتريات كاهن الكنيسة، ابن الخطيب، المطبعة المصرية، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
- الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.
- يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة حامد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد السادس

ج١٠

شبهات حول الأنبياء والرسل (٢)